شَيْخُ أُدَبَاءِ مِصْرَ
سَيِّدُ بْنُ عَلِيّ الْمَرْصَفِيُّ

* حياته..
* ومنهجه في دراسة النص الأدبي.
* ونقده.

المؤلف

سيف النصر الطحاوي

ماجستير في اللغة والأدب

الطبعة الأولى

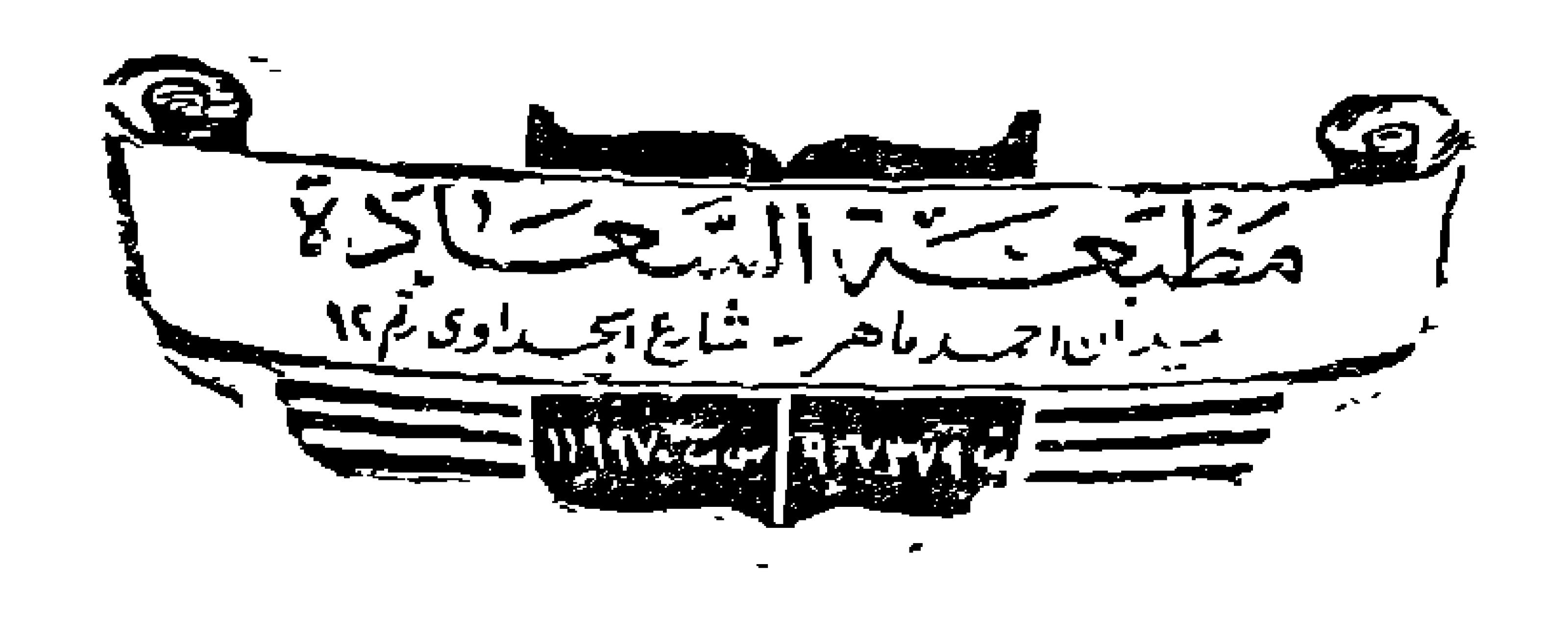
١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م

شَيْخُ أُدَبَاءِ مِصْرَ
سَيِّدُ بْنُ عَلِيّ المَرْصَفِيُّ

* حياته..
* ومنهجه في دراسة النص الأدبي.
* ونقده.

المؤلف
شريف النصر الطحاوي
ماجستير في اللغة والأدب

الطبعة الأولى
١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م


مطبعة السعادة
ميدان احمد ماهر - شارع الجداوى رقم ١٢



شيخ أدباء مصر

سيد بن علي المرصفي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وبعد ...

فإن شخصية « سيد بن على المرصفى » من الشخصيات المرموقة ، وفكره الأدبى واللغوى من المعالم الثابتة فى تاريخ الفكر بالجامع الأزهر .

وقد أشار إلى صحة فكره ، وسلامة ذوقه ، وصدق رأيه فى الأدب ، وكثرة روايته لشعر الجاهلية وصدر الإسلام، كثير من تلامذته،وفى مقدمتهم « طه حسين » ، فقد تحدث عن أستاذه فى تقديمه « لذكرى أبى العلاء » قال : « أستاذنا الجليل سيد بن على المرصفى ، أصح من عرفت بمصر فقها فى اللغة ، وأسلمهم ذوقا فى النقد ، وأصدقهم رأيا فى الأدب ، وأكثرهم رواية للشعر ولاسيما شعر الجاهلية وصدر الإسلام ... » ، كما تحدث عن شخصية أستاذه وأثره فى كثير مما كتب ، حينما تحدث عن تأثره بهم فى حياته وفكره .

والمرصفى بعد هذا ، تربطنى به آصرة النسب الأزهرى، وتجمعنى به روافد الثقافة الأزهرية ، التى جمعت حولها كثيرا من الأفكار والوجدانات وإذا كانت كل فتاة بأبيها معجبة ، فلا غرو أن أجد فى شخصية « سيد بن على » مايعجبنى ومايدفعنى للتلمذة على يديه ، ومصاحبته فى رسالة للماجستير، تتناول حياته ، ومنهجه فى دراسة النص الأدبى ونقده ، ثم فى بحث قدم فى الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر ، فنال جائزة تقديرية .

و « سيد بن على » رجل عايش الكتب الصفراء فى الأزهر ، وسهر الليالى باحثا عن شوارد اللغة ، وغريب الأساليب ، وكانت له عنايته بالشعر الجاهلى

وبالأدب فى صدر الإسلام، ولاشك أن صحبة مثل هذا الرجل توجب على مثلى أن ينهض للبحث والتحصيل، وأن يجد للوقوف على ماوقف عليه صاحبنا من معان وأساليب، لابرازها فى صورتها الواضحة، وصحة تقديرها فى الدراسة. ورغم مشقات هذه الصحبة، فقد كنت ألذ حينما أصل إلى معلم جديد من معالمه الفكرية، وكانت صحبته دائما تحفزنى للعمل فى دأب ومثابرة بما حفظ من أدب عذب، وما كتب من حديث موفق بديع.

وقد وصلت – بحمد الله وعونه – بعد رحلتى مع المرصفى، لأوضح ملامح شخصيته، ومنهجه فى دراسة النص الأدبى ونقده.

وهيكل البحث هنا يقوم على تمهيد وبابين وخاتمة:

ففى التمهيد، حاولت أن أصور حياة المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر ونسمات الحضارة التى كانت تهب عليه، من داخل البلاد وخارجها، ودعوات الإصلاح فى الجامع الأزهر، وأساليب التعليم فيه.

وفى الباب الأول: تناولت حياة «سيد بن على» فى ثلاثة فصول:

* الفصل الأول: فى نشأة المرصفى، وطلبه العلم بالأزهر، واشتراكه فى الثورة العرابية، وحصوله على الاجازة من شيخه «الشيخ الشربينى» للتدريس والفتيا، ثم حصوله على الاجازة العالية الممتازة من الأزهر، والوظائف التى عمل بها، وأهم صفاته وملامح شخصيته.

وفى الفصل الثانى: تحدثت عن ثقافته ومشايخه، وميوله الأدبية واللغوية ومكتبته.

* وفى الفصل الثالث: تحدثت عن مؤلفاته فى الشعر والنثر والمعركة الأدبية الحامية التى قامت بسببه بين السباعى بيومى وزكى مبارك على صفحات الرسالة.

وفى الباب الثانى : تناولت منهج المرصفى فى دراسة النص الأدبى ونقده فى ستة فصول :

* الفصل الأول : مدخل لبيان خطوط منهج المرصفى ، كما أوضحها فى أقواله ، وكما طبقها فى شروحه ، وكما تحدث بها تلامذته .
* الفصل الثانى : فى التقديم للنص ، وخطواته الأولى لدراسته .
* والفصل الثالث : فى دراسة النص الأدبى مبنى ومعنى .
* والفصل الرابع : المرصفى والقصيدة العربية .
* الفصل الخامس : فى التذوق الأدبى عند المرصفى .
* والفصل السادس : فى التخطئة والتصويب .

وأخيرا تناولت أهم النتائج ، وأيضاح مكانة « سيد بن على » بين القدماء والمحدثين ، وأثر شخصيته فى تلامذته وعصره .

وإذا كنت قد بذلت فى هذه الرسالة جهدا ، فإنى لأرجو أن أكون قد وفقت لأعطاء صورة واضحة المعالم والسمات عن حياة الشيخ ومنهجه ، وأن أبرز مع كبار تلامذته ، علما من أعلام اللغة والأدب،عاش حياته بين أعمدة الجامع الأزهر وانتشر فكره بين كثير من المجتمعات .

وقبل أن أختم تقديمى ، أرى من الحق على أن أوجه شكرى لأستاذى الجليل محمد خلف الله أحمد،عضو مجمع اللغة العربية، فقد كانت توجيهاته نبراسا يضىء لى الطريق وقد شرفت مع نخبة من أبناء العروبة ، بالتلمذة على يديه ، فترة دراستنا بمعهد البحوث والدراسات العربية فعرفناه يسعى دائبا للوصول باللغة والأدب لأعلى مراقى الكمال والازدهار . تغمده الله بواسع رحمته .

فله من الله خير الجزاء ، ومن تلميذه خالص التقدير .

والله الموفق والمستعان،وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم؟

سيف النصر الطلخاوى

تمهيد

١ – نسمات الحضارة تهب على المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر .
٢ – دعوات الإصلاح فى الجامع الأزهر .
٣ – أساليب التعليم فى الجامع الأزهر .

١ – نسمات الحضارة تهب على المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر :

لقد ظل المجتمع المصرى يرزح تحت وطأة الحكم التركى ، طيلة ثلاثة القرون ، التى فرض فيها سلطانه على البلاد ، وقد عانى المجتمع المصرى خلال تلك الفترة ظلام الجهل والفقر ، إذفرض الأتراك على البلادنوعامن الاحتلال كان فى حقيقته محاولة لقتل البلاد ماديا وأدبيا ، فقد عمل على امتصاص خيرات الشعب ومصادرة موارده وسجن قدراته ، وأعاقة ر ‹كب العلم والتطور ، وكثرت الضرائب ، وأهمل كل إصلاح ، ولم يوجهوا عناية للتعليم حتى أغلقت المدارس أو انهدمت ، وكانت النتيجة أن انطفأت شعلة الحياة العلمية فى البلاد ، إلا وميضا ينبعث من الأزهر ، الذى ظل الملاذ لما بقى من علوم الدين واللغة ، وإن كان يعانى فى تلك الآونة كثيرا من الجمود ككل مظاهر الحياة فى ذلك العهد »[1].

وجاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ١٧٩٨م فجاءت معها بالعلماء جندا يقومون بتدعيم الحملة علميا ، فقاموا بإنشاء مراكز للأبحاث الرياضية ومراصد فلكية ومعامل كيماوية ، كما أنشأوا بعض المصانع ، ومعملا للورق ، ثم مجمعا علميا لدراسة أحـــوال الطبيعية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والثقافية ، وإمداد الحكومة الفرنسية بالمعلومات والتوجيهات ، والخرائط والإحصاءات ، وأقاموا مطبعة عربية . وأصدروا صحيفتين باللغة الفرنسية ،

---

(١) ص ٥ تطور الأدب الحديث فى مصر . أحمد هيكل - دار المعارف سنة ١٩٦٨ م .

ونشرة باللغة العربية ، كما أقاموا مسرحا، وفتحوا مدرستين لأبنائهم ، ومكتبة عامة جمعوا فيها مامعهم من كتب، ثم ماجمعوه من مساجد مصر وأضرحتها، وأخذوا يدعون الناس لمشاهدة تجاربهم العلمية ، ثم كان تشكيلهم للديوان الذي ضم تسعة أعضاء من علماء الأزهر ، متظاهرين باشتراك الشعب فى حكم البلاد ، ويكون ذلك وسيلة لاستتباب الأمن فيها .

(كانت الحملة الفرنسية ـ إذن ـ نقمة فى طيها نعمة ، فقد ساعدت المصريين على الشعور بأنفسهم ، والتطلع لآفاق أخرى من المعرفة ، وضروب جديدة من الإجتماع والعمران)[1] .

وجاء « محمد على » واليا على مصر ، فعمد إلى تكوين جيش مصرى قوى يحميه ويحقق أطماعه ، فأنشأ مدرسة حربية ، ومدرسة للطب لعلاج الجيش، ومدرسة للصيدلة ، وأخرى للطب البيطرى ، ومدرسة للهندسة ، كما أنشأ عددا من المدارس الابتدائية والتجهيزية ، وأرسل البعثات إلى أوربا لتلبية هذه المدارس بما تحتاج إليه من مدرسين ذوى خبرة ودراية حديثة .

وقد أينع هذا اللقاء ثمارا طيبة، فقد عاد هؤلاء المبعوثون بعلم حديث وعقلية متفتحه ، وقاموا بالتدريس فى تلك المدارس ، وعملوا بالمصالح الحكومية واشتغلوا بالترجمة فى العلوم المختلفة ، وألفوا فى العلوم الحديثة ، ووضعوا بهذا أساس الحركة الثقافية والأدبية الحديثة فى مصر، أما عامة الشعب فلم ينله من التعليم والثقافة وقد عانى من سوء الحالة الاقتصادية ، واقتصرت المدارس المختلفة على خدمة الوالى الذى نزع الأرض من الفلاحين ، وصار هو المالك لها . فاستبد بأمر البلاد ، ونفى الزعامات الشعبية .

وجاء الخديو إسماعيل ، فأخذ يعمل لتكون مصر قطعة من أوربا ، فأعاد

---

(١) ص ٥ معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها . محمد خلف الله أحمد مطبعة عيسى البابى الحلبى .

إرسال البعثات التعليمية ، وفتح المدارس المغلقة ، كمدرسة الألسن ، وافتتح كثيرا من المدارس الابتدائية والثانوية .

ثم افتتحت مدرسة « دار العلوم » سنة ١٨٧١م ، وتألفت جمعية « اتحاد الشبيبة المصرية » ١٨٧٩م ، تدعو لإنشاء المدارس لتعليم أبناء الشعب .

وفى هذه الفترة أحس كثير من المثقفين بوجوب إبراز عظمة بلادهم ، وإشراق تاريخهم ، ورقى ثقافتهم ، ومواجهة الثقافة الغربية الوافدة بثقافة عربية أصيلة فكان الاتجاه إلى التراث العربى القديم لإنتقاء روائعه ونشره ، وكان نواة هذه الحركة « جمعية المعارف » ١٨٦٨ ، وافتتحت دار الكتب المصرية ١٨٧٠م ، تجمع الكتب المتناثرة فى الأضرحة والمساجد ، ومايمكن من المكتبات الخاصة .

وفى هذه الفترة ظهرت مجلة « اليعسوب » ١٨٦٥ ، وصحيفة « وادى النيل » ١٨٦٧ ، و« روضة المدارس » ١٨٧٠ ، واشترك فى تحريرها نخبة من أعلام الفكر والأدب فى مصر ، ثم جريدة الاهـــرام ١٨٧٥ ، كما أنشئت صحيفتان حربيتان لتثقيف التلاميذ والضباط ، وأنشئت « دار الأوبرا » ١٨٦٩ ، وافتتحت قناة السويس ١٨٦٩ م . وحضر إلى مصر فى هذه الحقبة من تاريخ مصر ، جمال الدين الأفغانى ، ١٨٦٩ : ١٨٧١ ، بآرائه الإصلاحية ، ودعواته الفكرية .

أضف إلى ماتقـــدم من النسمات الاصلاحية ، تلك الجمعيات الثقافية المتعددة ، التى كانت مجالا خصبا لتبادل الآراء ، ونشر الأفكار ، وبث الوعى واتساع رقعة الثقافة ، ومن أشهر هذه الجمعيات ، « الجمعية الخيرية الإسلامية » التى أنشئت بالاسكندرية أولا ١٨٧٨ ، وكان من عمدها عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية[١] .

---

(١) ص ٧٨ جـ ٤ . تاريخ آداب اللغة . جورجى زيدان . دار الهلال . تعليق شوقى ضيف .

وكانت السنوات الأولى من عصر إسماعيل يسودها الهدوء النسبي ، وقد ساعد عليه ارتفاع أسعار القطن المصرى ، والإقبال عليه فى الأسواق العالمية ، وانشغال الفلاحين بالأملاك الجديدة التى أعادها إليهم ، كما انشغل المثقفون بإحياء التراث العربى . فلما كانت السنوات الأخيرة فى عهده كشف الغطاء ، فظهر ما كان عليه الخديو من استبداد واستهتار ، وكان من أثر نسمات الحضارة فى مصر ، إنضاج الوعى القومى ، ومعرفة المصريين بواجبهم فظهرت حركة وعى متأجج أخذ مظهرين ، أحدهما فكرى ، انعكس على اللغة والأدب ، والآخر سياسى أدى إلى ثورة عسكرية شعبية فى عهد توفيق .

وظل الوعى القومى ناميا متطورا ، متحركا فى كل الميادين ، يشحذ النفوس للنضال ، ويعمل من أجل الإصلاح ، والوصول بالبلاد إلى تحقيق آمال الأمة فى الحرية والخلاص من المستعمر ، والعمل على تقدمها اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا واستمر ذلك مع بداية القرن العشرين ، كما ظل الوعى القومى حيا ناميا متطورا حتى أوصل إلى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ، ومهد لانتصاراتها الفكرية والسياسية جميعا »(١) .

٢ - دعوات الإصلاح فى الجامع الأزهر :

لا شك أن علماء الأزهر كانوا فى مقدمة المصريين الذين تأثروا بالحملة الفرنسية . وما جلبته لمصر من علوم ومخترعات ، وكانوا فى مقدمة المبعوثين إلى أوربا للتعلم والرجوع إلى الوطن العربى بزاد جديد ، شارك فى إعداد الجيش لمحمد على ، ثم فى بناء صرح الثقافة فى عصر إسماعيل ، وكان علماء الأزهر فى مقدمة من نادوا بالإصلاح ، ووجوب الأخذ بالأساليب المصرية

---

(١) ص ٤٣ تطور الأدب الحديث فى مصر . أحمد هيكل . دار المعارف ١٩٦٨م .

الحديثة ، وكان منهم الخطباء والشعراء والكتاب الذين ألهبوا حماسة الجماهير ، وتقدموا الثورات التي قاومت المستعمر الانجليزي .

وقد دعا الشيخ « حسن العطار » إلى الاصلاح ، حين رأى الفرنسيين وما هم عليه من تقدم ، وما فيه مصر من تأخر في جميع الميادين فقال : « إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد مابها من العلوم والمعارف »(١) وقد كان الشيخ حسن العطار حريصا على الإفادة من كل علم ، كما كان صاحب فضل في التنبيه إلى قيمة العلوم الطبيعية ، وإلى ضرورة إدخال العلوم العصرية في الأزهر ، وضرورة الأخذ بالعلوم الطبيعية ، والأصول الهندسية إلى جانب العلوم الشرعية والأصول الفقهية .

وجاء « رفاعة الطهطاوي » تلميذ شيخه حسن العطار ، فنوه بشأن أستاذه لاتصاله بالعلوم المختلفة : « وكان للمرحوم العلامة الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر أيضا مشاركة في كثير من هذه العلوم حتى في العلوم الجغرافية ... وكان له ولع شديد بسائر المعارف البشرية مع غاية الديانة والصيانة ، وله بعض تآليف في الطب وغيره زيادة عن تآليفه المشهورة ... فلو تشبث من الآن فصاعدا نجباء أهل العلم الأزهريين بالعلوم العصرية .. لفازوا بدرجة الكمال ، - وانتظموا بسلك الأقدمين من فحول الرجال(٢) ، وسار رفاعة الطهطاوي محتذيا أثر أستاذه ، داعيا للاصلاح في العلوم والآداب .

وممن يمثلون ثورة فكرية في تاريخ الأزهر الشيخ « محمد عياد الطنطاوي » الذي شغل كرسي الآداب الشرقية بالجامعة الروسية ١٨٤٠ ، وقد ألف في النحو والصرف والفلك والجبر والميراث والحساب ، والعقائد والتاريخ والبلاغة

---

(١) ص ٣٨ ج ٤ الخطط . علي مبارك .

(٢) ص ٢٥٠ مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية . رفاعة الطهطاوي - ١٢٨٩ هـ .

والشعر والعروض والتوحيد ، كما نظام الشعر ، وكتب الرسائل والقصص ، ووضع القواميس[١] .

ثم جاءت الدعوة لفتح باب الاجتهاد . مع مجيء جمال الدين الأفغانى إلى مصر ، وحين أصدر مع محمد عبده مجلة (العروة الوثقى) فكانت تحمل للدعوات الإصلاحية ، والرأى الحر المستنير .

وفى نهاية القرن التاسع عشر ،وصل الشيخ (محمد عبده) إلى عضوية مجلس إدارة الأزهر ، فحمل مشعل الاصلاح فيه ، واتجه إلى إصلاح الإدارة ، وإصلاح التدريس ، وتغيير الكتب .

نظر (محمد عبده) إلى الأزهر ،فوجده لانظام له ، والطلبة مهملين ورأى أن العلة تكمن فى فساد طرق التعليم والتربية فى الأزهر ، والعناية بالصناعة اللفظية ، والرغبة عن بعض العلوم النافعة كالتاريخ والأدب ، فوجه اهتمامه لإدخال مثل هذه العلوم الحديثة إلى الجامع الأزهر ، وإصلاح حال التدريس فيه ، واستطاع أن يحقق للأزهر الأمور التالية :

١ — إنشاء مجلس إدارة للأزهر ١٣١٢ هـ .

٢ — ضبط مرتبات العلماء وطريقة توزيعها .

٣ — ربط المعاهد الدينية فى مصر بالجامع الأزهر .

٤ — إصلاح نظام التدريس .

٥ — وضع نظم للامتحانات .

٦ — إصدار طائفة من القوانين للإصلاح ، وإدخال العلوم الحديثة إلى رحاب الأزهر .

---

(١) ص ٥٨ . قصة الأزهر أحمد الشرباصى . دار الهلال يناير ١٩٧٣م .

٣ – أساليب التعليم فى الأزهر فى القرن التاسع عشر :

كيف ينتظم الطالب فى سلك الأزهريين :

إذا أراد الطالب مجرد الحضور لسماع دروس التعلم فى الجامع الأزهر ، فليس هناك قيد يحول دون ذلك فهذا مباح لكل من يريد الحضور ، والتعليم مجانى فى كل أطواره وامتحاناته .

أما إذا أراد الطالب الانتظام فى سلك أحد الاروقة أو الحارات فالأمر مقيد بشرط أن يكون عمر الطالب خمسة عشر عاما على الأقل ، وأن يكون له دراية بالكتابة والقراءة ، وأن يكون حافظا لنصف القرآن على الأقل ، ويتعين حفظه كله على كفيف البصر .

وكان من المميزات التى يتمتع بها الطلبة المجاورون ، معافاتهم من الخدمة العسكرية ، وكانت هذه المعافاة عامة لكل من ينتسب للأزهر ، ثم اشترط لذلك أن يكون الطالب قد حضر حضورا حقيقيا فى الجامع الأزهر مدة ثلاث سنوات على الأقل ، وأن يكون قد تحصل على جانب من المعلومات يمتحن فيها أمام لجنة ، فإن أجاب الطالب إجابة حسنه أعطت له شهادة المعافاة من الخدمة العسكرية مختومة بختم شيخ الجامع الأزهر .

فإذا تقدم الطالب فى الدراسة بالجامع الأزهر ، مدة ثمانى سنوات كان من حقه التقدم لإمتحان الشهادة (الأهلية) التى أنشئت عام ١٣١٤ هـ لتخريج أئمة وخطباء للمساجد ، ومدرسين للمدارس الابتدائية ويمتحن الطالب أمام لجنة تتكون من ثلاثة من العلماء وتختم شهادتهم من شيخ الجامع الأزهر ، وليس لهؤلاء التدريس بالجامع الأزهر .

فإذا زاد تقدم الطالب فى معرفته ودرايته بالعلوم ، تقدم لامتحان (الشهادة العالمية) وقد أنشئت فى عهد الشيخ (المهدى العباسى) ١٢٨٨ هـ ، ويمتحن الطالب

فى المواد الأحد عشر : « التفسير ، الحديث ، الأصول ، التوحيد ، الفقه ، النحو ، الصرف ، المعانى ، البيان ، البديع ، المنطق » .

وكان فى الأزهر شهادة أخرى علمية، ولكنها غير رسمية تسمى (الإجازة) وهـذه كانت تعطى للطالب عند إرادته الرجوع لبلاده بعد قراءة الكتب المعتبرة على مشايخه ، فيكتبون له إجازة متضمنة الشهادة بالتحصيل، والمهارة فى الفنون والأهلية للتدريس والافتاء ، وإجازته بذلك . ويبين المشايخ فى تلك الشهادة اتصال سندهم ، ويوصونه بالتقوى والتحرى فى الأحكام ، وألا يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه . وهذه الشهادة كانت هى الشهادة الأصلية التى تعطى لكل من تمم دراسته قبل استحداث قانون الامتحانات .

الكتب التى تدرس بالجامع الأزهر :

لقد كان التعليم فى الأزهر فى القرن التاسع عشر، مايزال فى جمود فكرى فطلابه يدرسون مانقل إليهم من علوم السلف فى دقة وأمانة. وكانوا يلقنون أن العلوم تتفاوت فى المكانة والفضل ، ففى رأسها العلوم النقلية مثل علم التوحيد والفقه والحديث والتصوف ، ثم تأتى بعدها العلوم العقلية مثل علوم اللغة والعروض والبلاغة والمنطق والهيئة .

ولايجب – على رأيهم – أن يدرس علم الهيئة إلا لأغراض عملية ، مثل علم التقاويم ، وتحديد مواقيت الصلاة .

وأهملت منذ القرون الوسطى بعض مواد العلوم العقلية كالأدب والتاريخ والجغرافيا ، والعلوم الطبيعية والرياضية .

(ويقول الطنطاوى[١] الذى كان يدرس فى الأزهر حوالى عام ١٨٢٧ قبل

---

(١) محمد عياد الطنطاوى ، ولد ١٨١٠ بمحلة مرحوم غربية . ونال العالمية ١٨٢٨ ،ودرس على الشيخ الباجورى، والشيخ حسن العطار، والشيخ محمد الاشمونى وذهب إلى روسيا ١٨٤٠ أستاذا للآداب الشرقية .

سفره إلى (سنت بطرسبرج): إنه لا يعرف أحداً قبله قرأ في الأزهر ماقرأه هو من مقامات الحريري ، والمعلقات مع شرح الزوزني)[١] .

ولم يتأثر الجامع الأزهر بالعلوم الحديثة التي جاءت إلى مصر وأثرت فيها تأثيرا قويا في القرن التاسع عشر ، وأخذ القول بحرمة بعض العلوم العقلية واستمر الحال كذلك بإهمال تدريس العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية ، حيث إن بعض رجال الأزهر نهوا عن قراءتها، وربما نسبوا الكفر لمن يطالعها، وقد فعلوا ذلك مع جمال الدين الأفغاني عند حضوره إلى مصر عام ١٢٨٨هـ، فلما رأى ما آلت إليـــه حالة تلك العلوم أوقف جهوده على نشرها مستعينا بتلميذيه الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الله وافي الفيومي .

وقد تنبه لتلك الحالة في الأزهر كثير من الأساتذة والعلماء وكثير من أمراء مصر ووزرائها، فسعوا إلى إعادة تدريس تلك العلوم ، ولكنهم خشوا الطفرة ونتائجها ، فلجئوا إلى حيلة شرعية للبدء بالإصلاح المطلوب . . وكلفوا (محمد بيرم)[٢] أن يتوجه إلى شيخ الجامع الازهر الشيخ محمد الانبابي ١٨٨٧ بهذا الاستفتاء : (. . . . ماقولكم ـ رضى الله عنكم ـ هل يجوز تعلم المسلمين للعلوم الرياضية مـــثل الهندسة والحساب والهيئة ، والطبيعيات ، وتركيب الأجزاء المعبر عنها بالكيمياء وغيرها من سائر العلوم، لاسيما ماينبني عليه منها من زيادة القوة في الأمة بما تجاري به الأمم المعاصرين لها في كل مايشمله الأمر بالاستعداد، بل هل يجب بعد تلك العلوم على طائفة من الامة بمعنى أن يكون واجبا وجوبا كفائيا، على نحو التفصيل الذي ذكره الإمام حجة الإسلام الغزالي في إحياء العلوم ، ونقله علماء الحنفية أيضا وأقروه ، وإذا كان الحكم فيها كذلك فهل يجوز قراءتها مثل ماتجوز قراءة العلوم الآلية، من نحو وغيره،

---

(١) ص ٨٦ الأزهر عبد الحميد يونس . دار الفكر ١٩٤٦م .

(٢) قاضي محكمة مصر آنذاك . وأشهر علماء جامع الزيتونة .

الرائجة الآن بالجامع الأزهر وجامع الزيتونة والقرويين ؟ أفيدوا الجواب ، لازلتم مقصدا لأولى الألباب[١] .

وقد كان الشيخ الأفغاني يعلم مصدر الفتوى فلم يهملها ، وجاء فى إجابته عنها .. (.. يجوز تعلم العلوم الرياضية مثل الحساب والهندسة والجغرافية لأنه لاتعرض فيها لشيء من الأمور الدينية ، بل يجب منها ماتتوقف عليه مصلحة دينية أو دنيوية وجوبا كفائيا ، كما يجب علم الطب لذلك – كما أفاده الغزالى فى مواضع من الإحياء – وإن مازاد عن الواجب من تلك العلوم مما يحصل به زيادة فى القدر الواجب فتعلمه فضيلة ، ولايدخل فى علم الهيئة الباحث عن أشكال الافلاك والكواكب وسيرها ، علم التنجيم : المسمى بعلم أحكام النجوم وهو الباحث عن الاستدلال بالتشكلات الفلكية على الحوادث السفلية فإنه حرام . كما قال الغزالى ، وعلل ذلك بما حصله أنه يخشى من ممارسة نسبة التأثير للكواكب و تعرض للأخبار بالمغيبات ، مع كون الناظر قد يخطيء لخفاء بعض الشروط ، وأما الطبيعيات ، وهى الباحثة عن صفات الأجسام وخواصها ، وكيفية استحالتها وتغيرها كما فى الاحياء فى الباب الثانى من كتاب العلم ، فإن كان ذلك البحث عن طريق أهل الشرع فلا منع منها .

كما أفاده العلامة شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمى فى جزء الفتاوى الجامع للمسائل المنتشرة ، بل لها حينئذ أهمية بحسب أهمية ثمرتها كالوقوف على خواص المعدن والنبات المحصل للتمكن فى علم الطب ، وكمعرفة عمل الالات النافعة فى مصلحة العباد ، وإن كان على طريقة الفلاسفة ، فالاشتغال بها حرام ، لأنه يؤدى الوقوع فى العقائد المخالفة للشرع كما أفاده العلامة المذكور[٢] ..

---

(١) راجع رسالة الأزهر لمصطفى بيرم التى قدمها لمؤتمر علماء اللغات الشرقية ١٩٠٢ . طبع بلوظة بدار الكتب المصرية ٨٠٨٨ ح .

(٢) ص ١٧٢ محمد عبده تأليف عباس العقاد . أعلام العرب .

وبعد أسبوعين من صدور هذه الفتوى من قبل شيخ الأزهر - الشافعى - جاءت الموافقة عليها من مفتى الديار المصرية - وهو حنفى المذهب .

ويستطيع الناظر فى تضاعيف هذه الفتوى أن يلمح مقدار مافيها من التحفظ والتقييد .. غير أن هذه الفتوى أوجدت نوعا من الحوار بين دعاة التجديد والمتحفظين. وظلت حالة الأزهر هكذا إلى أن تولى الشيخ حسونة النواوى وكالة الأزهر د ١٨٩٥ . وتولى فى نفس العام الشيخ محمد عبده عضوية إدارة الأزهر ، وبذلك اجتمع عنصران فريدان من عناصر الاصلاح فى الأزهر، فتقدم الأزهر خطوات مسايرا ركب التطور والعلوم الحديثة ، فأصبح يدرس فيه العلوم الدينية (المقاصد) : علم الكلام ، علم الأخلاق الدينية ، الفقه ، أصول الفقه ، تفسير القرآن ، الحديث و (الوسائل) : النحو ، الصرف ، المعانى ، البيان ، البديع ، المنطق مصطلح الحديث ، الحساب ، الجبر ، العروض ، القافية .

ومن العلوم التى أدخلت حديثا : تاريخ الإسلام ، صناعة الإنشاء قولا وكتابة ، اللغة متنا وأدبا ، مبادىء الهندسة ، تقويم البلدان « جغرافيا » ، الخطوط ، وغير هذه من العلوم العقلية .

والكتب التى كانت تدرس بالجامع الأزهر فى تلك الفترة، نرى منها ماهو سهل العبارة والأسلوب ، ونجد منها ماهو قوى التركيب والعبارة إلى جانب بعد المعنى ، بحيث تتناسب مع حالة الطلاب وأعمارهم الفكرية .

ونذكر جانبا من أشهر(١) هذه الكتب ، توضح ما [illegible] الأزهر من فكر وثقافة(٢) ، فمن أشهر هذه الكتب فى علم التوحيد ، كتاب الخريدة للشيخ

---

(١) راجع أشهر الكتب التى تدرس فى الأزهر فى : الأزهر بين الماضى والحاضر منصور على رجب ١٩٤٦ ص٤٦ وما بعدها .

(٢) قدم مصطفى بيرم لمؤتمر علماء اللغات الشرقية المنعقد فى هامبورج =

أحمد الدردير ، وجوهرة التوحيد للشيخ إبراهيم اللقانى ، والمواقف للشيخ عبد الرحمن العضد . وفى علم التصوف ، الأنوار القدسية للشيخ عبد الوهاب الشعرانى ، والأحياء للغزالى . وفى علم التفسير ، تفسير الجلالين المحلى والسيوطى بحاشية الجمل ، والكشاف للزمخشرى ، والنسفى لأبى البركات .

وفى علم التجويد ، نجد تحفة الأطفال للشيخ سليمان الجمزورى . والجزرية للشيخ محمد الجزرى .

وفى علم الحديث ، نجد صحيح البخارى بشرح القسطلانى والعسقلانى والعينى وزكريا الأنصارى . وصحيح الإمام مسلم بشرح محي الدين النووى . وفى علم مصطلح الحديث ، تقريب النووى بشرح الجلال السيوطى ، وألفية الحافظ العراقى بشرح شيخ الإسلام والعدوى .

وفى الفقه الشافعى ، الغاية والتقريب للشيخ أحمد أبى شجاع بشرح الخطيب الشربينى ، وفتاوى ابن حجر ، والرحبية .

وفى الفقه المالكى ، أقرب المسالك للدردير والعشماوية للشيخ العشماوى .

وفى الفقه الحنبلى ، متن الدليل للشيخ مرعى ، وزاد المستقنع للبهوتى .

وفى علم أصول الفقه ، جامع الجوامع للسبكى بشرح الجلال المحلى ، ومختصر ابن الحاجب بشرح العضد .

ومن أشهر كتب اللغة التى كانت تتداول بالجامع الأزهر ، القاموس للفيروزبادى بشرح السيد مرتضى ، ومختار الصحاح للرازى ، ولسان العرب

بألمانيا ١٩٠٢ ، رسالة عن الأزهر . كتب فيها بيانا بأسماء الكتب التى تدرس فى الأزهر . استخرجها من رسالة قدمتها مشيخة الأزهر للخديو فى سنة ١٣١٠هـ (طبع بلوظه بدار الكتب المصرية رقم ٨٠٨٨ ح .

لجمال الدين الأنصارى ، ومن الكتب فى علم النحو ، الأجرومية للصنهاجى بشرح الكفراوى والشيخ خالد الأزهرى ، وقطر الندى لابن هشام ، وألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل والأشمونى .

ومن الكتب فى علم الصرف ، الشافية لابن الحاجب بشرح شيخ الإسلام والرضى ، والترصيف للأخضرى ، ولامية الأفعال لابن مالك .

ومن كتب المعانى والبيان والبديع ، التلخيص للخطيب القزوينى بشرح السعد ، والمفتاح للسكاكى بشرح السعد والسيد الشريف ، والرسالة الصبانية للصبان .

ومن المؤلفات فى علم العروض والقوافى ، الكافى للقنائى ، ومنظومة الصبان .

ومن كتب الوضع ، الرسالة العضدية بشرح السمرقندى ، وعنقود الزواهر ، ومن المؤلفات فى علم المنطق ، السلم للأخضرى ، والتهذيب للسعد التفتازانى بشرح الخبيصى ، والشمسية للكاتبى بشرح قطب الدين الرازى .

ومن مؤلفات أدب البحث ، الرسالة العضدية ، لعضد الدين ، وآداب الكلنبوى بشرح حسن باشا زاده ، وآداب الجرجانى ، ومن كتب التاريخ الكامل لابن الأثير ، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، وأسد الغابة لابن الأثير ، والعقد الفريد لابن عبد ربه .

ومن المؤلفات فى الجغرافية ، الجغرافية الأزهرية للشيخ محمد حسين الأزهرى ، ومن كتب الحساب والجبر ، الوسيلة لابن الهائم ، ومنظومة فى الحساب لعبد الرحمن الأخضرى ، والياسمينية لابن الهائم .

ومن الكتب المؤلفة فى الميقات والهيئة ، هداية الحائر للسبط ، ورسالة فى الوقت والقبلة للقليوبى ، والمطلع السعيد لحسين زائد .

ومن كتب الحكمة ، الاشارات لابن سينا ، والهداية لأثير الدين الأبهرى ومقولات السجاعى .

ومن كتب الرسم ، منظومة فى الرسم العثمانى ، ومنظومة فى الرسم القياسى .

كيفية التدريس :

إذا أراد الشيخ المدرس قراءة الدرس جلس بجانب أحد أعمدة الجامع ، واستقبل القبلة ، وقعد على الأرض ، أو على كرسى من خشب أو جريدة – بحسب كثرة الطلبة وقلتهم – ثم تقعد الطلبة حول شيخهم متربعين على الأرض ، على شكل حلقة ، ولكل طالب محل لا يتعداه . وبيد كل منهم نسخة من الكتاب المدرس ، ويبتدىء الشيخ بالبسملة ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم يقرر لهم الدرس بأن يقرأ بنفسه ، أو يستقرىء أحد طلبته ، جملة من الكتاب الذى بين يديه ، ثم يأخذ فى تفسير تلك العبارة للطلبة ، وللطالب أن يستفسر عن ماغمض عليه ، والأستاذ يجيبه بما يزيل من ذهنه الخفاء .

والغالب أن المدرس لايخرج فى شرحه عن ماهو وارد فى الكتاب المقروء من الأمثلة ، بحيث نجد أن ما كان يدرس منذ قرون هو بعينه الذى يقرأ حتى أوائل القرن العشرين .

والطلبة لا تكتب ماتسمعه من أساتذتها فى مذكراتها ، بل يقتصرون على سماع مايقوله لهم الأستاذ مما هو وارد فى الكتاب الذى بين أيديهم .

ويمكث المدرس نحو الساعتين .

ومتى انتهى الأستاذ من شرح درسه ختمه بقراءة الفاتحة ، ويقوم الطلبة ليقبل كل منهم يد شيخه طالبا منه صالح الدعاء .

الغاية من التعليم فى الأزهر :

إن الغاية التى يرمى إليها التعليم فى الأزهر هو تخريج قوم عالمين بالأحكام الشرعية والعلوم العربية ، محافظين على التعاليم الدينية والآداب ، والنصائح

العربية ، قادرين على نشر تلك الأحكام والآداب ، ذوى سلطان على قلوب العامة ، وتأثير فى نفوسهم حتى يسلكوا بهم المحجة الواضحة الموصلة إلى أغراض الشرع الإسلامى الحقه(١) .

وقد أدرك ذلك مجلس إدارة الأزهر المنشأ ١٣١٢هـ ، فقد رأى أن العناية بالعلوم الشرعية لم تراع فى تدريسها ثمرة تلك العلوم من حفظ أحكامها ، ومعرفة براهينها ، ووجه العدالة فيها ، وما يترتب عليها من خيرى الدنيا والآخرة . واصلاح شأن الأمة وتهذيب نفوس أبنائها ، وتوثيق الارتباط بين الأفراد ، وإيقاف كل على ما يجب عليه نحو نفسه وعائلته وجيرانه وبلده وأهل قطره وحاكمه ، وعامة إخوانه فى الإنسانية ، وما ينبغى عمله بالنسبة لسائر الحيوانات ، فإن كل ذلك أوفته الشريعة الإسلامية .

وكذلك علوم الأخلاق الدينية ، وإن أدخلت اسما فى الأزهر إلا أنها فى الواقع لا تؤدى الغرض المطلوب منها .

كما رأى مجلس إدارة الأزهر أن علوم اللسان العربى مقصورة على معرفة القواعد والمناقشات اللفظية ، مع التوسع فى ذلك ، وهو ما يضل الطالب ويحيد به عن الجادة ، ولذلك فإنه لا يترتب على هذه الطريقة تقوية ملكات الطلبة ، ولا براعتهم فى الأساليب ، ولا وقوفهم على فصاحة التراكيب ، وقد رأوا أن الطريق لذلك إنما هو فى الوقوف على أشعار العرب وخطبها ، ومعرفة مفردات اللغة ضبطا ووضعا ، والوقوف على أسرارها ، واستخراج ما فيها من كنوز ودقائق ، ويكون ذلك بدراسة أمهات الكتب الأدبية أمثال ، كتاب الكامل لأبى العباس المبرد ، والحماسة لأبى تمام ، والأمالى لأبى على القالى ، وغير هذه من كتب الأدب العربى فى عصوره الأولى .

لقد رأى الشيخ محمد عبده التربية والتعليم فى الأزهر ، وإعراضها عن

(١) راجع رسالة مصطفى بيرم لمؤتمر اللغات الشرقية ١٩٠٢ .

دراسه الأدب فقال : « ترك الاشتغال بدقائق الفصاحة والبلاغة والبراعة موت للحياة العقلية » .

وحين رأى أسلوب التعليم الذى يعنى بالصناعة اللفظية ، ويطبق ذلك حتى على دراسة القرآن الكريم قال : « لا يمكن لهذه الأمة أن تقوم مادامت هذه الكتب فيها ، ولن تقوم إلا بالروح التى كانت فى القرن الأول وهى القرآن ، وكل ماعداه فهو حجاب قائم بينه وبين العمل والعلم »(١) .

وجاء دور « سيد بن على المرصفى » ليكون الرجل الأول الذى يجلس على كرسى الأدب واللغة فى الرواق العباسى ، وكان وجوده فى هذه الفترة رأبا لصدع طالما عانى منه الجامع الأزهر ، كما كان تلبية لنداء الاصلاح فيه . وبدأت أمهات الكتب العربية فى الأدب واللغة تأخذ طريقها إلى أعمدة الجامع الأزهر ، وتسرى روحها بين نفوس أبنائه . كما بدأت دراسه كتب جديدة ذات أساليب مبتكرة وفكر حديث .

---

(١) ص١٥ الأزهر بين الماضى والحاضر . منصور على رجب القاهرة ١٩٤٦

الباب الأول

حياة سيد بن علي المرصفي

١ — الفصل الأول : نشأته وثقافته .

٢ — الفصل الثاني : الوظائف التي شغلها .

٣ — الفصل الثالث : (ا) مؤلفاته .

(ب) معركة أدبية .

الفصل الأول

سيد بن على المرصفى
نشأته وثقافته

مرصفى – مولده – عناية والده به – التحاقه بالأزهر – اشتراكه فى ثورة عرابى – ثقافته .

قرية مرصفا :

ريف مصر يغذى دائما أبناءه بما يحمل من طيب الأرض والهواء ، وبما حباه الله به من خضرة ونماء ، وبما وهبه من ظل ظليل ، وزهر نضير ، ودعة وسكون وحب للخير والناس والجمال ، يلمس أهله دوما الجمال يبدو حولهم فى الزهرة الباسمة ، والنغمة الحالمة ، وقطرة الندى تساقط فى صباح مشرق بين يدى وردة ناعمة .

وكل إنسان يبعد به العلم ، فينتقل من قريته إلى المدينة ، فأنه ينتسب إلى قريته ، فيقرنها باسمة ، وهو مشدود إليها بفكره وقلبه . لما يحمله لها من ذكريات ، وما يكنه لأهلها من حب وتعاطف وتراحم ، فهو محب لهذا العالم الذى رأى فيه جنته وهو صغير ، وما يزال يتمسك به ، ويأتى إليه زائرا ليجدد فى نفسه مالا يمكن أن تطفىء من نوره وإشعاعه مر السنين والأيام .

وأبناء الريف دائما مطبوعون على الجد فى العمل ، والسعى الدءوب للوصول لأهدافهم وآمالهم الكبيرة . ومنهم الكثيرون الذين حققوا بمثابرتهم وكفاحهم الآمال الكبيرة لأمتهم ، ووصلوا إلى ريادة كثير من ميادين العلم والمعرفة .

وقرية مرصفا واحدة من ريف مصر ، تقع بالقرب من بنها محافظة

القليوبية ، فى جنوبها الشرقى ، وهى قرية تتمتع بما يتمتع به ريف مصر من نضرة وجمال ، وأهلها لهم عناية زائدة بالعلم ، يعلمون أولادهم القراءة والكتابة فى المكتب ، ثم يلحق الكثير منهم بالأزهر ، وأهلها يكرمون أهل العلم ، ويشجعون طلبته ، وكثير منهم يجعل فى ماله حقا معلوما لأهل العلم من أبناء مرصفا .

وقد نبغ كثير من أهل مرصفا فى الأزهر ، وكان منهم مشاركون فى زيادة النهضة العلمية ، وفى الثقافة العصرية ، ومن تراثهم العلمى الخالد الوسيلة الأدبية ، ورغبة الآمل من كتاب الكامل[1] .

وقد صار الأوائل النابغون من أهل مرصفا ، مصابيح هداية لمن أتى بعدهم . فاقتفوا أثرهم حتى استطاعوا أن يلحقوا بهم ، وأن يكون لهم مكانة مثل ما كان للسابقين منهم ، وربما فاق الفرع أصله إذا وهب القوة والنماء .

وسيد المرصفى ، واحد من أبناء هذه القرية التى اقترن اسمها باسم كثير من العلماء ، حتى استحقت لقب « قرية العلماء »[2] .

والمرجح[3] أن « سيد بن على » ولد بقرية مرصفا ، ونشأ بها طفلا صغيرا فى ظل أبوين كريمين ، هما الشيخ على بن حسن ، وزوجته « غز » .

وقد أنجب الشيخ على من الأولاد « محمد ، عبد العال ، سيد » وإحدى البنات ، وقد هاجر الجميع إلى القاهرة ، حين تزوجت البنت من محمد الصياد . وكان صاحب أنوال للنسيج فى القاهرة ، فاشتغل معه عبد العال عامل نسيج

(١) ممن كتب عن مرصفا ومفاخرها ، محمد عبد الجواد فى كتابه الحسين المرصفى ، دار المعارف سنة ١٩٥٢م .

(٢) فى بلاد اليمن مدينة العلماء « زبيد » لكثرة العلماء المنتسبين إليها .

(٣) ذكر محمد عبد الجواد فى كتابه « الحسين المرصفى » أن سيد بن على ولد بدرب الركراكى بباب البحر بالقاهرة .

« مسدى » كما عمل محمد بالتجارة ، وجاء الوالد فافتتح كتابا لتعليم الصبية القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ، فى درب الركراكى بباب البحر ، ثم فى درب السماكين ، وقد عاش الشيخ على مع أولاده بالقاهرة حتى ناهز التسعين من عمره ، قوى البنية ، وكان له بيت فى درب الركراكى ، ثم انتقل إلى جوار ربه تعالى فى درب السماكين بعد أن قرت عينه بما رأى من مكانة أولاده ، وخاصة أصغر أولاده « سيد » .

و « سيد بن على » من هؤلاء الرجال الذين لم نعرف على وجه التحديد تاريخ مولدهم فلم ينتبه أحد لتاريخ مولده ، ونستطيع أن نصل إلى معرفته بإحدى طريقتين وكلاهما تعرفنا ذلك بحساب تقريبى لا تحديدى .

فالطريقة الأولى ، توصلنا حينما ندرك ما ثبت لدينا أن « الشيخ سيد » قد نال شهادة الإجازة على شيخه « الشيخ الشربينى » سنة ١٣١٠هـ — ١٨٩٢م وإذا عرفنا أن طالب العلم بالجامع الأزهر كان يقضى فيه ليستطيع أن يحصل على مثل هذه الشهادة خمس عشرة سنة على الأقل ، وأن قانون الرواق وتسجيل الأسماء فيه لم يكن يسمح لأقل من خمسة عشر عاما ، يقضيها الطالب فى حفظ القرآن وتجويده ، وحفظ المتون ، ومعنى ذلك أن السن المعتبرة والمعتادة للحصول على الإجازة تصل إلى ثلاثين عاما وقد تزيد قليلا أو كثيرا ، وفقا للظروف التى يمر بها الطالب .

فإذا اعتبرنا أن «سيد بن على» قد نال الإجازة ، بعد ثلاثين سنة من مولده ، فإن عام ولادته على هذا يكون هو عام ١٢٨٠هـ يوافق عام ١٨٦٢م .

ويقوى هذا أن « سيد بن على » قد اشترك فى الثورة العرابية . وهو فى سن العشرين ، وهى سن يتدفق فيها الشباب ثورة وحيوية .

والطريقة الثانية ، ترتكز على ما ذكره المؤرخون من أن المرصفى تولى تدريس اللغة فى الأزهر إلى أن نالت منه الشيخوخة وكسرت ساقه ،

فاعتكف فى منزله بالقاهرة[١] .

وعلى ماذكره محمود محمد شاكر ،فى حاشية الجمحى[٢] ، قال :

« وقد دخلت أعود شيخى - رحمه الله - سيد بن على المرصفى ، وقد كسرت ساقه . فلما رآنى أنشدنى هذه الأبيات ... وذلك أنه كان على أريكة فجاء ابن ابنه[٣] الصغير فظل يعاكسه ، فأنقلب فوقع على الأرض فاصيبت ساقه ، وكان ذلك فى آخر عمره ، تغمده الله برحمته . وكان ذلك أول سماعى للأبيات فقرأتها عليه » .

والأبيات المشار إليها لعبد الله بن ميمون المرى وهى من بحر الوافر :

إذا ما المرء صم فلم يناج وأودى سمعه إلا ندايا

ولاعب بالعشى بنى بنيه كفعل الهر يحترش العظايا

يلاعبهم وودوا لو سقوه من الذيفان مترعة ملايا

فلا ذاق النعيم ولا شرابا ولا يسقى من المرض الشفايا

ونستطيع أن نلمح فى حديث الشاعر روح السأم والضجر وآلام الشيخوخة وأسقامها ، وكأنى به يذكرنى بقول زهير بن أبى سلمى :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا - لا أبالك - يسأم

وقول الشاعر الآخر :

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان[٤]

---

(١) ص٢١٧ ج٣ . الأعلام . خير الدين الزركلى . ١٩٦٩م .

(٢) ص٣٠ حاشية ٢ . طبقات الشعراء . ابن سلام الجمحى . تعليق محمود محمد شاكر .

(٣) الصحيح أن الذى كان الشيخ يداعبه هو ابن بنته «أحمد سعودى» .

(٤) قال هذا البيت الشاعر : أبو المنهال عوف بن محلم الخزاعى بالولاء الشيبانى من قصيدة له فى مدح عبد الله بن طاهر ت ٢٢٠هـ .

فإذا كان زهير قد سئم تكاليف الحياة، والشاعر الثاني قد احتاج إلى ترجمان يسمعه الألفاظ ويترجم له المعاني ، لأن كليهما بلغ الثمانين .

وإنشاد « سيد بن علي » لأبيات « عبد الله بن ميمون المرى » يقربه من الشاعرين سنا وآلام شيخوخة ، فإذا كانت وفاة « سيد بن علي » ١٩٣١، فإن مولده يكون على هذا الاعتبار عام ١٨٥١ م .

والطريقة الثانية تقترب من الأولى ، إذ الفارق بينهما عشر سنوات وبهذا يتحقق من كلا الطريقتين أن مولده كان بين عامى ١٨٥١ ، ١٨٦٢ أى فى بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

ولما شب « سيد بن علي » عن الطوق ، وجد نفسه مع الصبية فى كتاب والده « الشيخ علي » يتعلم القراءة والكتابة ، ويحفظ القرآن الكريم ، وقد عني والده به عناية كبيرة ، وكان خط الشيخ علي جميلا ، مطبوعا على الإجادة والإحسان فى كل ما يتناول من عمل ، وكان يرتل القرآن بصوت تحس معه بالمعاني تنساب إلى سمعك وقلبك فى رقة وعذوبة ، والولد سر أبيه، لهذا أجاد الابن الخط ، وتلا القرآن تلاوة مجودة ، وقرأ فأحسن القراءة ، وحين أتم حفظ القرآن تعلم أحكامه وجوده فأتقن ذلك، وأحضر له والده مجموعة المتون استعدادا لدخول الجامع الأزهر .

وخرج « سيد بن علي » حين بلغت سنه الخامسة عشرة لأنها السن القانونية التى يستطيع فيها أن يسجل اسمه بعد الامتحان فى القراءة والكتابة وحفظ القرآن فى أحد أروقة الجامع الأزهر يتلقى دروس العلم المختلفة ، فهذا درس التفسير والحديث قبل شروق الشمس ، وهذا درس الفقه بعد الشروق ،وهذا درس النحو والصرف بعد الظهر واستمع إلى مشايخ يدرسون الكتب الصغيرة المناسبة لسنه وتفكيره .

ومارس منذ ذلك الحين عادات الطلبة وتقاليد المجاورين ، فكان يقرأ الدرس مع أقرانه قبل حضور درس الشيخ ، وأخذ يطالع لإخوانه ، وهم ينصتون لقراءته ، أو يكون مع المنصتين لقراءة بعض زملائه ، كما تعودوا شراء الكتب الغالية الثمن مشتركين متعاونين فى شرائها لمطالعتها معا .

وكان من عاداتهم أنهم إذا ختم الشيخ قراءة كتاب أتوا فى حلقة الدرس بالمباخر والقماقم الملأى بالطيب والعطريات ، والبعض يأتى بالفواكه الناشفة وبعد الختم يقرأ البعض شيئا من القرآن بالترتيل ، ثم يرش عليهم بماء الورد ، وينثر عليهم من الفواكه كاللوز والتمر ثم يقبلون يد الشيخ.

وفرح المرصفى الصغير بهذه العادات ، ففيها ترويح عن نفسه ، وانتعاش لفكره ، وشارك زملاءه فى الخروج من الجامع من صباح يوم الخميس إلى غروبه ذاهبا خارج المدينة جهة النيل للفسحة ، وقد يلعبون هناك الكرة أو نحوها .. وكان الترقى فى التعليم بالجامع الأزهر ، لا تحكمه نظم ولا يتقيد بقوانين ، فلا يوجد امتحان سنوى يختبر فيه الطلبة لمعرفة مقدار تحصيل كل واحد فى تلك السنة ، بل إن الطالب متى حضر الكتب الصغيرة ، وآنس من نفسه جواز الانتقال إلى ما هو أرقى منها انتقل من نفسه من حلقة المشايخ المدرسين للكتب الصغيرة ، وذهب متدرجا لحلقات المشايخ المدرسين الأكثر تطويلا .

وهكذا تدرج « سيد بن على » بين حلقات الدروس ، حين أنس من نفسه القدرة العلمية ، والحاجة إلى ما هو أعمق ، وأكثر زادا وعطاء ، وانتفع المرصفى الشاب بكتب الأزهر ، وأخذ ينقب عن كل ما فيها ؛ من حواش وتقريرات فهو من قرية العلماء ، وهو يطلب العلم من منهلهم الذى نهلوا منه قبله ، وأخذ نفسه بالجد والتحصيل ، والمثابرة فقرأ كثيرا من كتب الأزهر

التى كانت تدرس به آنذاك [١] ، كما قرأ كثيرا من الكتب الأخرى .

وبينما « الشيخ سيد » فى العقد الثالث من عمره ، إذ هبت فى أرجاء مصر رياح ثورة عارمة ، ضد سياسة الخديو واستبداده ، والسخرة ، وفرض الضرائب الباهظة على المصريين ، وتدخل الأجنبي فى شئون البلاد وتمتعه بخيراتها فى حين يسام المصريون العذاب من قانون السخرة والملتزمين .

وتحدث العلماء فى الأزهر وفى خارجه فأوضحوا للشعب طريقه ، وبينوا له حقه ، وكيف يتمسك بهذا الحق ، ويطالب به فى ثقة وإيمان ، ونشرت الصحف المقالات الوطنية ، والقصائد الحماسية ، وأشعل الخطباء فى الشعب الحماسة والوطنية وانفعل بتلك الحالة شباب الأزهر ، فساروا فى طريق الثورة ونادوا بأن مصر للمصريين ، ومن بين شباب الأزهر نجد « سيد بن على » يتقدم الصفوف ، وينشد الجماهير ، منبها إلى الخطر الذى أحدق بمصر ، وما يجب على المصريين إزاءه ، إنهم إذا تهاونوا فى حق بلدهم حاق بهم الذل والنكد ، وإذا تركوا المستعمر الأنجليزى بدون مقاومة فسوف يحيق بهم الهوان والنكال لقد أنشأ « المرصفى » فى ذلك الحين ، قصيدته « المرصفية فى مدح حامى حمى الديار المصرية أحمد عرابى باشا ، ومما جاء فيها قوله .

يا آل مصر تنبهوا فمن الذى يرضى بذل فى الخليقة أنكد
يا آل مصر علمتموا ما حل فى هند وتونس من بلاء سرمد

وانتهت الثورة العرابية بهزيمة الثوار ، واعتقل « سيد بن على » مع من اعتقل من الثائرين ، ورأى نفسه فى السجن وحيدا ، ولا راعى له ، فكان لهذا أثر فى حياته ، فآثر العزلة والتوجه للقراءة والإطلاع .

وقد ظل « سيد بن على » يتلقى العلم فى الجامع الأزهر ، حتى نضج فكره وأنس من نفسه القدرة العلمية ، فطلب من شيخه « الشيخ الشربينى » أن

(١) راجع أساليب التعليم بالجامع الأزهر بتمهيد الكتاب .

يشهد له بالإجازة لنشر العلم وتدريسه، فأجازه شيخه بذلك عام ١٣١٠هـ ، وقد جاء فى هذه الأجازة :

« . . . طلب منى الإمام الكامل ، والهمام الفاضل ، اللوذعى الأريب الألمعى الأديب ، ولدنا الشيخ سيد على المرصفى ؛ إجازة ليتصل بسند سادتى سنده ، ولا ينفصل عن مددهم مدده فأجبته — وأن لم أكن لذلك أهلا رجاء أن ينشر العلم وأنال من الله فضلا » . . (١)

لقد منح الشيخ الشربينى تلميذه ، الشيخ سيد المرصفى ، شهادة الأجازة بنشر العلم ، وإذا كانت هذه الشهادة هى الشهادة الأصلية التى كانت تعطى لكل من أتم دراسته قبل إستحداث قانون الإمتحانات ، فأن هذه الأجازة لم تكن لتبيح له العمل للتدريس بالجامع الأزهر ، فتقدم بعد ذلك للامتحان لينال الشهادة العالمية وانتظر دوره لأداء الإمتحان ثم حصل عليها من الدرجة الأولى (٢). واستحق كسوة تشريف، والإنتقال للعمل بالتدريس بالجامع الأزهر (٣) .

---

(١) أنظر النص الكامل للاجازة ص ٤١ .

(٢) ص ١٤٦ ح ٣ الأيام . (طه حسين) دار المعارف بمصر ٩٥٢ .

(٣) لقد تقرر فى مشيخة الشيخ المهدى العباسى ١٢٨٨ لمن يريد التدريس فى الجامع الأزهر : أن يمتحن فى المواد الإحدى عشر ، على لجنة من أكابر العلماء ، على رأسهم شيخ الجامع الأزهر ، ولم يكن يمتحن فى العام أكثر من ستة ، فاذا تراكمت العرائض من طالبى الإمتحانات نظر شيخ الجامع الأزهر فى موجبات الترجيح كالشهرة بالعالمية ، أو كبر السن .

وفى سنة ١٣٠٥ استحسن الشيخ الإنبابى أن يمتحن الطالب فى أصول الفقه فقط يطالع الطالب مسألة فى غرفة منفردا وتعطى له الكتب والمراجعة

=

ثقافة (سيد بن على المرصفى) :

الواقع أننا إذ أردنا أن نقف على ثقافة (سيد بن على) فان من اللازم أن نبحث ذلك فى مرحلتين مرت بهما حياته ، المرحلة الأولى حينما كان طالبا فى الجامع الأزهر ، والثانية بعد أن عمل مدرسا بالجامع الأزهر . فاذا بحثنا عنه فى مرحلته الأولى وجدناه مثال الطالب الأزهرى الجد فى تحصيل دروسه فى وعى وإتقان ، والكتب التى يقرؤها هى الكتب المتداولة بين مشايخ الجامع الأزهر فى العلوم المقررة من توحيد ، وتصوف ، وتفسير ، وتجويد وحديث ، ومصطلاح حديث ، وفقه ، وأصول فقه . ولغة ، ونحو ، وصرف ومعانى ، وبيان ، وبديع ، وعروض ، وقافية وغير ذلك [١] .

وقد قرأ (سيد بن على) كتب هذه العلوم ، ومؤلفاتها المختلفة ، واستمع إلى أساتذته فى حلقات الدروس بالجامع الأزهر طوال الخمسة عشر عاما ، التى قضاها بين جدرانه ، منتقلا من حلقة إلى أخرى ، ومن عمود الى آخر ومن كتاب مبسط إلى كتاب آخر أكثر طولا وعمقا وكما تعرف على كتب العلوم المختلفة المتداولة داخل الجامع الأزهر ، فانه تعرف على طائفة من مشايخه أحبوه لما امتاز به من قدرة على البحث والتحصيل ، فأوسعوا له من مجلسهم ، وفتحوا له صدورهم ، وحدثوه عن أساتذتهم المرموقين ، وعن دعوات الإصلاح والتجديد فى الجامع الأزهر .

ومن مشايخ المرصفى ، الشيخ الشربينى ، الذى كان يجالسه الساعات بحثا فى اللغة وأسرارها ، ومنهم الشيخ المبلط ، والشيخ عبد الهادى نجا

= وفى سنة ١٣١٤هـ تقرر ألا يدخل الإمتحان إلا لمن قضى بالأزهر ثنتى عشرة سنة متصلة، وتلقى به العلوم المقررة ، ويعين شيخ الجامع المواضيع التى سيجرى الإمتحان فيها للطالب قبل الإمتحان بثمانية أيام على الأقل .

(١) راجع العلوم والكتب المشهورة بالأزهر فى التمهيد .

الأبيارى ، تلميذ المفكر الشيخ محمد عيــاد الطنطاوى ، تلميــذ الشيخ حسن العطار .

والشيخ عبد الهادى نجا الأبيارى يميل إلى الأدب ، بينما شيخه الشربينى يميل إلى اللغــة فاجتمع لدى التلميذ أهم المناهل فى اللغة والأدب ، وعرف منهما دواوين الأدب وأسرار اللغة .

وسـيد بن على . إذا كان قد صرف كل اهتمامه فى طلب العلم بالجامع الأزهر أبان الخمس عشرة سـنة الأولى فى طلب العلم ، فيجب ألا نغفل من ثقافته جانبا آخر ، يتمثل فيما كان يهب على مصر عامة من نسمات الحضـارة والتقدم ، فقد كان لهذه النسمات أثر كبير فى تثقيف المجتمع كله بثقافات جديدة ، و نخص بالذكر ما أحدثته البعثات الى أوربا ، والصحف المصرية التى عنيت بنشر الثقافة والأدب ، ثم مدرسة دار العلوم وأساتذتها الذين نحوا فى التأليف الأدبى واللغوى نحوا جديدا . . فشيخنا لم يـكن منغلقا على نفسه، بل اطلع على الصحف ، وقرأ فى (روضة المدارس) ما نشره الشيخ حسين المرصفى ، من مقالات أدبية ، كان يلقيها طلبته بمدرسة دار العلوم (الوسيلة الأدبية) ثم (الكلم الثمان) .

كذلك يجب أن نعرف أن الفترة التى كان فيها (سيد بن على) طالبا بالجامع الأزهر،كانت فترة اصلاح ونهوض للجامع الأزهر ، وفيها جاء جمال الدين الأفغانى) ؛ إلى مصر ، وبحث عن أنسب مكان لبذر دعوته ، فلم يجـد غير الجامع الأزهر وطلبته ، واستمع اليه (سيد بن على) مع الشـيخ محمد عبده [١] وكثيرمن طلاب الجامع الأزهر، أثناء وفادته الأولى١٨٦٩والثانية ١٨٧١ م كما اهتز مثل أقرانه بما كان ينشره جمال الديــن الأفغانى ، ومحمد عبـده فى

---

(١) ولد بمحلة نصر . بحيرة ١٨٤٩ وتوفى ١٩٠٥ م .

مجلتهما « العروة الوثقى » وأعجب بالشيخ محمد عبده ، وبما عرف به من حسن الفهم ، وجمال البيان ، وجراءة القول » .

ونتيجة لهذه الثقافة العامة ، التي اشترك فيها « سيد بن علي » مع أقرانه من أبناء الجامع الأزهر ، ثم مع أبناء مصر بعامة ، وجدنا أنه انفعل بالثورة العرابية ، فسار في مقدمة ركب الثائرين ، المنادين بأن مصر للمصريين .

والمرحلة الثانية من ثقافة « سيد بن علي » « تبتديء بعد تخرجه من الجامع الأزهر واشتغاله بالتدريس فيه ، وهو في هذه المرحلة يبدو ناقما على كتب الأزهر ، المليئة بالحواشي والتقريرات ، وهو يسمي طريقة التأليف وطريقة التدريس القائمة آنذاك « بالفنقلة » ويعني بها «إن قال فلان كذا ، قلت كذا» ، وهو يبدي ألمه لكثرة ما أخذت منه هذه المؤلفات العقيمة من وقت وجهد ، حتى يقول أثناء درسه لتلامذته : «لقد أضعت شبابي في علوم هؤلاء الناس» .

فصار قريبا إلى قلب «سيد بن علي» في هذه المرحلة أن يزود طلبته ونفسه بزاد لم يدرسه قبل ذلك في حلقات الجامع الأزهر .

وكانت دعوات الاصلاح في الجامع الأزهر قد آتت ثمارها ، ورأى الشيخ محمد عبده الفرصة سانحة بعد توليه عضوية مجلس إدارة الأزهر ، لإصلاح الدروس فيه ، بأسلوب وروح القرآن الكريم ، فبحث عن نبهاء ذلك المعهد للاضطلاع بدرس الأدب فيه ، فوجد الشيخ «سيد بن علي» « فوكل إليه درس الأدب واللغة بالجامع الأزهر ، فصار على الشيخ « سيد بن علي » منذ ذلك الوقت ، أن يتناول أمهات الكتب الأدبية واللغوية ، فقرأ الكامل للمبرد ، وحماسة أبي تمام ، وأمالي أبي علي القالي ، والبيان للجاحظ ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، والأغاني لأبي فرج الأصفهاني ، كما حفظ من دواوين الشعراء ، واهتم بشعراء اللصوص قائلا : إن لسان هؤلاء لم تشبه شائبة ، لأنهم لم يتصلوا بالعجم ، ولم تفسد ملكاتهم ، وكان يوصي تلامذته بحفظ الشعر ، قائلا : تعلموا

الشعر فإن لم تكونوا شعراء تكونوا لغويين ، وهو يهتم بشعراء الجاهلية وصدر الإسلام .

ونظرة إلى مكتبته التى تركها بعد وفاته تعطينا صورة حية لثقافة المرصفى فى هـــذه المرحلة ، فإن لسيد بن على مكتبة حية مازالت موجودة بجامعة الاسكندرية ، فاروق الأول سابقا ، وتقع أرقامها العامة بين رقمى ٥٦٨٧ ؛ ١٥٩١١ ، كما نجد فى قسم المخطوطات بالمكتبة مخطوطات كتبها لنفسه ، وأرقامها تقع بين رقمى ٧٦٦ ، ٩٨١ ، وإذا استعرضنا هذه المكتبة وجدنا بينها دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، ففيها ديوان النابغة الذبيانى ؛ وزياد بن معاوية ، وديوان ابن خفاجه الأندلسى ، وديوان الهذليين ، وديوان امرىء القيس .

كما نجد مخطوطات لأساتذته ، طرفة البديع فى نظم أنواع البديع للشيخ عبد الهادى نجا الأبيارى ، ومنها حاشية الشربينى على بهجة الماوردى .

كما نجد بين هذه الكتب ، المعاجم اللغوية ، والغرائب والمبهمات ، والدخيل فى كلام العرب ، كما نجد كتب تراجم الرجال والتعريف بهم ، إلى جانب كتب التفسير والفقه ، وأصول الفقه ، والحديث ، وتاريخ الجهمية والمعتزلة ، وتراث الفلاسفة ، وما ألفه أبناء قريته كالشيخ حسين المرصفى ، والشيخ زين المرصفى ؛ ومنها مؤلفات للتحقيق والتصويب ، مثل مخطوطة محمد بن حبيب ، ومحمد ابن يعقوب الفيروزبادى ، وابن الأثير والجزرى ، والأول يتناول أسماء المغتالين من الأشراف فى الجاهلية والإسلام ، وأسماء من قتل من الشعراء ، وأسماء من غلبت كنيته على اسمه ، وكنى الشعراء وألقابهم ، والثانى يتناول من نسب إلى غير أبيه ؛ والثالث فى الآباء والأمهات ، كذلك نجد أمهات كتب النحو والأدب .

والناظر فى مؤلفات هذه المكتبة ، يخرج بفكرة تامة عن ثقافة المرصفى ؛ ويستطيع أن يقرر بأن المرصفى قد تفتح بعد تخرجه على عالم جديد ، فتثقف

بما يحتاج إليه ، وتزود بزاد جديد من التراث العربى ، فقد نيطت إليه مهمة بعث التراث فى الأزهر ، وتدريسه بمنهج يفيد الطالب الأزهرى ، ولا يجعله يتوه بين الحواشى والسطور .

وقد عاش « سيد بن على » طوال السنوات التى عاشها بعد تخرجه من الجامع الأزهر بين عالم الكتب يمتع بروائعها ناظريه ، ويأخذ منها ما يحتاج إليه لخدمة « الكامل » ، وخدمة دروسه فى الجامع الأزهر ، وإذا كانت الفترة الأولى من ثقافته قد امتدت خمسة عشر عاما قضاها بين حلقات الجامع الأزهر فإنه فى هذه الفترة قد عاش لبعث جواهر الأدب من التراث العربى ، وقد امتدت منذ تخرجه ١٣١٠هـ إلى أن اختاره ربه لجواره ١٣٤٩هـ وهى فترة تقترب من الأربعين سنة .

إجازة الشيخ الشربيني لتلميذه

سيد بن علي المرصفي — ١٣١٠هـ — ١٨٩٢م

بسم الله الرحمن الرحيم :

الحمد لله الرقيب الشاهد ، على ماأبلغه للغائب الشاهد ، وبصره بما رعاه ، إلى أن أداه كما وعاه ، بدراية مسترسله ، ورواية متسلسلة ، والصلاة الدائمة الوصلة ، والسلام المستتبع كلما ذكر مثله ، على السيد الصدوق ، والسند المصدوق ، الواسطة العظمى ، التي من وردها لا يظما ، وعلى آله وصحبه حملة آثاره ، وحزبه نقلة أخباره ، أما بعد ـ فلما كان مما تناقله الأكابر ، وتداوله كابر عن كابر بتصريح الإيراد ، وصحيح الإسناد ، وسارت به الركبان ، فى كل زمان . وتواترت وتيرته ، وتأثرت سيرته ، وتطاول له الفرقدان ، وتواصل به المشرقان ، مواصلة المدد ، باتصال السند ، فإن مما ينفر منه الطبع ويأباه ، ألا يعرف الإنسان أباه ، وبها يخرج من شرذمة الدعاة ، ويدرج فى زمرة الوعاة ، ويؤمن لفظه وخطه ، ويؤمل حفظه وضبطه ، وتثق الرواة عنه بما رواه ، طلب منى الإمام الكامل ، والهمام الفاضل ، اللوذعى الأريب ، والألمعى الأديب ، ولدنا « الشيخ سيد على المرصفى » إجازة ليتصل بسند سادتى سنده ، ولا ينفصل عن مددهم مدده ، فأجبته وإن لم أكن لذلك أهلا ، رجاء أن ينشر العلم وأنال من الله فضلا ، وأنجو فى القيامة مما للكاتمين من الضرر ، فقلت : أجزته بما تجوز لى روايته ، أو تصح عنى درايته ، من كل حديث وأثر ، ومن فروع وأصول ، ومنقول ومعقول ، وفنون اللطائف والعبر ، كما أخذته عن الأئمة السادة ، والأكابر القادة ، مسددى العزائم فى استخراج الدرر ، ومنهم أستاذنا العلامة الشيخ السقا عن شيخه الفهامة ثعليب عن شيخه الشهاب أحمد الملوى وشيخه أحمد الجوهرى عن شيخهما عبد الله ابن سالم وعن شيخه أحمد بن محمود الجزايرى عن شيخه على بن عبد القادر

ابن الأمين عن شيخه أحمد الجوهري عن شيخه عبد الله بن سالم المذكور ، وعن شيخه الشيخ محمد صالح البخاري عن شيخه رفيع الدين القندهاوي عن الشريف الادريني عن عبد الله بن سالم وعن شيخه محمد الأمير عن والده الشيخ الكبير عن أشياخه الذين حوى ذكرهم ثبته الشهير ومنهم خاتمة المحققين أستاذنا الذهبي عن شيخه وأستاذه الشمس الأمير عن الأستاذ ابن عبد الله بدر الدين سيد بن محمد الحفني عن شيخه الشيخ محمد البديري عن شيخه ابن عبد الغني البنا النقشبندي عن شيخه الشيخ أحمد بن عجيل اليمني عن شيخه الشيخ تاج الدين الهندي عن شيخه الشيخ عبد الرحمن حاجي عن شيخه الحافظ علي عن شيخه الشيخ محمود استقرازي ومنهم غير من ذكر رحم الله الجميع فسانيدهم مسانيدي فما أكرمها من نسبة هذا وأوصى المجاز بالتحلي بالديانة والتحري مع الأمانة . وفقه الله وإيانا لما يحب ويرضى .

سنة عشر وثلثمائة وألف هجرية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وأزكى التحية .

الفقير إليه سبحانه وتعالى
عبد الرحمن الشربيني
خادم العلم بالأزهر

الفصل الثاني

الوظائف التي شغلها

التدريس بالجامع الأزهر – تصحيح الكتب – في هيئة كبار العلماء – وفاته – ملامح شخصيته .

بعد أن حصل الشيخ « سيد بن علي » على شهادة الإجازه عام ١٣١٠هـ على شيخة الشربيني ، عمل مدرسا بمدرسة « عباس باشا الابتدائية » ببولاق ، فكان يقوم فيها بتدريس اللغة العربية ، وأطلع في هذه الأثناء على نظم التدريس بالمدارس ، وأعجب بما تقوم عليه من نظام وتنسيق ، وإن كان مافيها من علم يبدو ضحلا بجانب ما فى الأزهر فقال : « ذهبنا إلى المدارس فوجدناها نظاما بلا علم ، وجئنا إلى الأزهر فوجدناه علما بلا نظام » ، ثم عمل بالتدريس بمدرسة السلحدار الابتدائية .

ولما تقدم لامتحان الشهادة العالمية وحصل عليها من الدرجة الأولى منحه الشيخ الأنبابي شيخ الجامع الأزهر ، مرتب التدريس بالجامع الأزهر على أن يلقي درسا بين المغرب والعشاء في جامع الزاهد بجهة باب البحر ، فيجمع بينه وبين التدريس بتلك المدارس .

وظل يعمل بمدرسة « عباس باشا الابتدائية » ببولاق ، إلى أن حضر ذات يوم متأخرا عن موعده بعض الوقت ، فاستدعاه الناظر ، فسأله عن أسباب تأخره ، وحثه على عدم تكرار مثل ذلك مستقبلا ، فكان جواب الشيخ على ناظره ، أن قدم له استقالته ، وأصبح منذ ذلك الوقت يعطي كل وقته وجهده للأزهر .

ومرت سنتان على عمل الشيخ « سيد بن علي » « بالتدريس ، بمدرسة

« عباس باشا الابتدائية ، ثم جامع الزاهد ، إلى أن مرض الشيخ « الإنبابى » وجاء إلى وكالة الأزهر « الشيخ حسونه النواوى » كما انضم إلى مجلس إدارته « الشيخ محمد عبده » عام ١٨٩٥م — ١٣١٣هـ ، ومع إصلاح الأزهر وإدخال العلوم الحديثة فيه ، طلب الأستاذ الإمام من ديوان الأوقاف مبلغا لترقية التعليم فى علوم اللغة العربية ، فأجيب هذا الطلب ، وقدر مبلغ مائة جنيه سنويا لهذا الغرض .

وخص الشيخ محمد عبده نبهاء الجامع الأزهر ، ليعهد بتدريس الكامل للمبرد إلى أحدهم , وكان « سيد بن على » قد اشتهر بالتمكن من الأدب العربى وسعة الاطلاع على علوم اللغة العربيه ، فعهد إليه بتدريس ذلك الكتاب مع ذخيرة من التراث العربى كالحماسة لأبى تمام ، والأمالى لأبى على القالى وغيرها .

وقد زيد مرتبه جنيهين عن غيره من المدرسين .

مرتب الشيخ سيد بن على المرصفى

لقد تقاضى فى مرحلته الأولى من الأزهر جنيها ونصفا مرتب صاحب الدرجة الأولى الممتازة ، ثم منح جنيهين آخرين لقيامه بتدريس اللغة والأدب فى عهد الإمام محمد عبده والشيخ حسونة النواوى « وكان من أصحاب الدرجة الأولى فكان يتقاضى جنيها ونصف جنيه لذلك ، وكان الأستاذ الإمام قد كلفه درس الأدب فكان يتقاضى لذلك جنيهين ، وكان يتنحى أن يقبض راتبه أول الشهر . ويكره أن يختلط بالعلماء وهم يتهافتون على « المباشر » ليتقاضوا منه رواتبهم ، فكان يدفع خاتمه إلى تلميذ من خاصته ليقبض له هذا الراتب الضئيل فى الضحى ويؤديه إليه بعد الظهر »[١] .

---

(١) الإيام ج٢ ص٢٦٦ ولعل طه حسين يقصد تزاحم الطلاب والموظفين بالأزهر على المباشر .

وفى المرحلة الثانية قبل ترقيته إلى هيئة كبار العلماء أطلعت على كراسة ميزانية المعـــاهد الدينية بمحفوظات الأزهر لسنة ١٩٢٤ — ١٩٢٥م فوجدت مايلى :

مدرسو القسم الثانوى :

٣ ـ سيد على المرصفى مدرس الراتب احتياطى ٥٪ الاحتياطى عن المدة السابقة

الراتب	احتياطى	٥٪	الاحتياطى عن المدة السابقة
جنيه	مليم جنيه	مليم	مليم جنيه
٢١	١٫٠٥٠	٠٦٠ ر.	١٫٥٣٥

جملة المستقطع	الصافى	الجملة
مليم جنيه	مليم جنيه	مليم جنيه
٢٫٦٤٥	١٨٫٣٥٥	١٨٫٣٥٥

نقل إلى الهيئة من ٦ أكتوبر ١٩٢٤م :

كذلك تصفحت كراسة الميزانية لهيئة كبار العلماء ١٩٢٨م : ١٩٢٩م فوجدت مايلى :

هيئة كبار العلماء ١٩٢٨ : ١٩٢٩م

حضرات أصحاب الفضيلة	المذهب	المرتب
١ ـ الشيخ محمد مصطفى المراغى	ح	٣٦
٢ ـ الشيخ عبد الرحمن قراعة	ح	٣٦
٣ ـ الشيخ / محمد بخيت	ح	٣٦
٤ ـ الشيخ / محمد شاكر	ح	٣٦
٥ ـ الشيخ / محمد أحمد الطوخى	ح	٣٦
٦ ـ الشيخ / أحمد الدليتانى	ح	٣٦
٧ ـ الشيخ / محمود حمود	ح	٣٦
٨ ـ الشيخ / عبد الرحمن عليش	ح	٣٦

حضرات أصحاب الفضيلة	المذهب	المرتب
٩ – الشيخ / أحمد هريدى	ح	٣٦
١٠ – « عبد المجيد سليم	ح	٣٦

عين فى ١٦ يناير ١٩٢٩ بأمر ملكى :

حضرات أصحاب الفضيلة	المذهب	المرتب
١ – الشيخ / أحمد نصر	م	٣٦
٢ – « محمد حسنين العدوى	م	٣٦
٣ – « دسوقى العربى	م	٣٦
٤ – « محمود إبراهيم السمالوطى	م	٣٦
٥ – « يوسف أحمد نصر الدجوى	م	٣٦
٦ – « إبراهيم بصيلة	م	٣٦
١ – الشيخ / محمد النجدى	ش	٣٦
٢ – « عبد المعطى الشرشيمى	ش	٣٦
٣ – « مصطفى الهبياوى	ش	٣٦
٤ – « يوسف شلبى الشبراخيتى	ش	٣٦
٥ – « سيد على المرصفى	ش	٣٦
٦ – « محمد الحلبى	ش	٣٦
٧ – « حسين دبا	ش	٣٦
٨ – « محمد أحمد الظواهرى	ش	٣٦
١ الشيخ / محمد سبيع الذهبى	حنبلى	٣٦

وكان درس (الشيخ سيد بن على) يلقى فى الضحى بالرواق العباسى وكان الطلاب يحرصون على أن يحضروا هذا الدرس ، فهو أثر جديد من آثار الإصلاح ، التى أرادها الشيخ محمد عبده وغيره من المصلحين ، فكان يحميه من دعاة الجمود ، وكان يقربه منه ، ويرى فيه آمال الإصلاح وتدريس اللغة والأدب بأسلوب عصرى جديد .

وكانت حلقة درس الأدب فى الرواق العباسى بالجامع الأزهر (مهرجانا يضم الأدباء والشعراء على اختلاف بيئاتهم وألوانهم فلم تكن مقصورة على الأزهريين فحسب ، بل كانت ندوة يؤمها عشاق الأدب جميعا . . . وقد بلغت الصلة بينه وبين تلامذته وعشاقه حدا غريبا، فهم لا يقنعون بما انتفعوا به فى دروسهم ولكنهم يصحبونه إلى منزله فلا يزالون فى حديث أدبى موصول ودراسة طريفة ممتعة .. (١)

وقد بدأت دروسه بشرح حماسة أبى تمام ، وتنسيقها ، وتبويبها تبويبا جديدا ، ودراسة نصوصها دراسة مفيدة للطالب . موضحا جمال العبارة وحسن الاستعارة ، ولطف الإشارة ، ثم اهتم بكتاب الكامل للمبرد ، فاتسم درسه بالشجاعة والحرية فى النقد والشرح والتحليل .

(نقد حر للشاعر أولا ، وللراوى ثانيا ، وللشرح بعد ذلك ، وللغويين على اختلافهم بعد أولئك وهؤلاء ، ثم امتحان للذوق ورياضة له على تعرف الجمال ، فى الشعر أو النثر ، فى المعنى جملة وتفصيلا ، وفى الوزن والقافية وفى مكان الكلمة بين أخواتها ، ثم اختبار للذوق الحديث فى هذه البيئة التى كان يلقى فيها الدروس ، وموازنة بين غلظة الذوق الأزهرى ، ورقة الذوق القديم . وبين كلال العقل الأزهرى ، ونفاذ العقل القديم . (٢)

---

(١) ص ٤٠٠ الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة . محمد كامل الفقى طبعة ثانية ١٩٦٥ م

(٢) ص ١٦٢ جـ ٢ . الأيام طه حسين . دار المعارف ١٩٥٢ م .

وقد جرت عليه هذه الحرية كثيرا من المتاعب والمشاكل ، حتى أخبره «الشيخ حسونه النواوى » شيخ الجامع الأزهر ، ذات يوم ، بعدم قراءة درس الكامل للمبرد ، ونقله من الرواق العباسى إلى عمود فى داخل الجامع الأزهر ، وكلفه بقراءة كتاب المغنى لابن هشام فى النحو .

وكانت مقدرة الشيخ سيد بن على فى دراسة النصوص الأدبية ونقدها ، مقدرة فائقة ، تناول فقه اللغة ، والتذوق الأدبى ، ورواية القصيدة كاملة ، ونسبتها لقائلها ، والأخبار المتعلقة بها ، وقد بلغ به التمكن من رواية الشعر حدا ، جعله ينبه تلامذته قائلا : إن أبا تمام اختار من هذه القصيدة هذه الأبيات ، وترك ماهو أجود منها وأكثر روعة .

وسوف نرى تصويباته لصاحبى الحماسة والكامل فى الباب الثانى إن شاء الله ، وسنعرف من خلالها مقدار تمكنه من علوم اللغة ، ورواية الشعر ، ومعرفة الأخبار ، والأنساب والتذوق الأدبى السليم .

وقد برز الشيخ « سيد بن على » فى الجامع الأزهر ، وحلقات الدروس من حوله تبدىء وتعيد فى دراسة حواشى وتقريرات ، ومتون وشروح فى علوم الشريعة ، وعلوم اللسان ، فلا تزيد على أن تعيد المكرور المألوف ، وأكثره قد تاه فى بحر من المؤخذات اللفظية ، والاعتراضات ، وتكلف الاحتمال البعيد وتعسف الرد الناشز ، فكان « المرصفى » ينظر إلى زملائه فى دهشه ، ويعجب لهذا العكوف على دراسة الخلافات اللفظية ، والتشقيقات الفرضية ، ويتألم لما يراهم فيه من انصراف عن الأدب العربى ، وأساليبه الفصيحة ، وآثار المتقدمين من الأخباريين والرواة .

وانفرد « سيد بن على » فى دراسة الأدب العربى ، والوقوف على أخباره ومروياته ، واستطاع أن يرسى بدرسه دعامة قوية داخل الجامع الأزهر ، طالما نادى بإرسائها زعماء الاصلاح ، كما استطاع أن يفسح للأدب مجالا فى الجامع الأزهر ، بعد أن كان الحديث ينساق إليه استطرادا .

وقد تخرج على يديه كثير من الأدباء ، والمحققين ، والشعراء ، وأنتجت حلقة درسه « أسرار الحماسة » ١٣٣٠هـ — ١٩١٢م ، كما أنتجت كتاب « رغبة الآمل من كتاب الكامل » ١٣٤٦هـ — ١٩٢٧م ، كما أنتجت شرحه للأمالى ، وللعقد الفريد .

وقد عمل « سيد بن على » بالتدريس الجامع الأزهر إلى آخر أيام حياته فأعطى لدرس الأدب جهده ووجـــدانه ، وتعلق به تلامذته فأكبروه ، واعترفوا له بالفضل والمكانة ، ولما أنشئت الجامعة ١٩٠٨م « استضافت بين أساتذتها من رجال الأزهر محمد المهدى ، ومحمد الخضر ، والسيد بن على المرصفى »[1] .

وفى عام ١٣٣١هـ — ١٩١٣م اشتغل الشيخ « سيد بن على » بالتصحيح بدار الكتب المصرية فصحح كتاب أساس البلاغة للزمخشرى ، والطراز فى البلاغة ، ونسخ بخطه الجميل بعض الكتب والمخطوطات التى أراد اقتناءها لنفسه[2] .

ولما عين الشاعر العالم « الشيخ عبد الرحمن قراعة » مديرا المعاهد الدينية بالأزهر ، سعى جاهدا لمنح « الشيخ سيد بن على المرصفى » عضوية هيئة كبار العلماء . وفى اليوم السادس من أكتوبر لعام أربعة وعشرين وتسعمائة وألف من الميلاد ، تم « للشيخ سيد بن على المرصفى » عضوية هيئة كبار العلماء بالجامع الأزهر ، وظل بها سنواته الأخيرة من حياته ، قريبا من ست سنوات وأربعة أشهر .

وفى هذه المرحلة الأخيرة من حياته ، نرى أن هذا الشيخ الذى كان

(١) ص ١٤٣ . قصة الأزهر . عبد العزيز دسوقى . دار الهلال . يناير ١٩٧٣ م .

(٢) انظر مخطوطات المرصفى بمكتبة الاسكندرية .

بالأمس مثالا للثورة والنقد والحرية ، نراه ينضوى بحكم السنين إلى صفوف المحافظين فآثر الصمت على الكلام ولا سيما إذا عرضت عليه مشكلة يكون إظهار رأيه فيها مخالفا لرأى الجماعة .

وقد واجه قبل أن تكتمل سنته الأولى فى هيئة كبار العلماء ، محاكمة الجماعة لتلميذه وصديقه « على عبد الرازق » فقضت عليه بالحرمان من لقب « العالمية » وفصله من منصب القضاء ، لأنه أخرج كتابه « الإسلام وأصول الحكم » وجاء حكم الهيئة بالإجماع ، وكان ينتظر من الشيخ أن يدافع عن تلميذه ، والواقع أن الظروف كانت سيئة ، ولم يستطع الشيخ « أبو الفضل الجيزاوى » نفسه شيخ الجامع الأزهر ، أن يدافع عن الشيخ على ، مع أنه كان من أكثر الناس احتراما لأسرة عبد الرازق .

وقد عاتب الشيخ سيد بن على بعض تلامذته على موقفه هذا من تلميذه الشيخ على فقال : الشيخ على رجل فاضل ، ولكن قلبه أحمق[1] .

فقد بدت على الشيخ « سيد المرصفى » فى هذه الفترة ، حكمته ، ورزانته وابتعاده عن الانفعال والحدة ، وآراؤه السديدة ، وفكرته الناضجة .

وقد أتيح للشيخ « سيد المرصفى » قبيل هذه المرحلة من حياته أن يبدى رأيه فى طريقة التعليم فى الجامع الأزهر والمعاهد الدينية ، فظهر من خلال مقالته فى ذلك دعوته الجادة لإصلاح الكتب المقروءة بالجامع الأزهر ، وطريقة تدريسها ، فأبدى رأيه فى حرية وشجاعة مبينا أن المرء حر فيما يرى ، ولشيخ الجامع الحرية فى أن يأخذ برأيه ، أولا يأخذ به . يقول المرصفى مقالته التى كلف بإعدادها :

---

(١) ص٦٤ ج١ . البدائع . زكى مبارك . طبعة ثانية ١٩٣٥م .

امتثالا لما[1] كلفتنا به إدارة المعهد الكبير الأزهر الشريف من ذكر ما يبدو لنا من الانتقاد على ماتيك التعاليم الموسومة بالنظام الأزهرى، فنقول مع العلم بأن المرء حر فيما يبديه، والأمر ما ترون لا ما يرى:

أرى أن المدرسة الأولى المسماة بالقسم الأول هى الأساس للمدرسة الثانية والثانية أساس للثالثة، وهلم جرا إلى أن تكتمل عدة السنين النظامية التى تكون نتيجتها نوال الشهادة العالمية وهى المطلب الأسمى والمقصد الأسنى، حتى إذا جازها طالب كان الناس إماما يرجع إليه فى دينهم ودنياهم.

ولقد رأيت - مع الأسف الشديد - من طلبة العلم الذين نقلتهم أساتذتهم بما امتحنوا به فيما بينهم ما لم أره من صغار المكاتب الابتدائية.

رأيت حينما عرضت على دفاتر الطلبة، وهم أكثر من مائة وخمسين طالبا أن أكثرهم لا يحسن وضع الحروف الأبجدية، مرة يكتب هاء التأنيث تاء مفتوحة. وتاء التأنيث هاء مربوطة، ومرة يكتب المعتل بالواو ياء، والمعتل بالياء ألفا ونحو ذلك، مما يستطلع منه على قلة الاعتناء بفن الإملاء.

وقد رأيت من هذا العدد الجم قلة المعرفة بقواعد النحو والصرف، يكتب مرة الفعل المسند إلى ألف المثنى المؤنث بالياء وحقه التاء، ومرة يجمع الفعل لفاعل مفرد، وأخرى يعبر بمصدر المجرد يحسبه مصدر المزيد، ومصدر المزيد يحسبه مصدر المجرد، على أنهم أجمعين لا يحفظون كلمة لغوية فى نثر ولا فى نظم فمثل هذه المدرسة تكون أساسا لما بعدها.

الذى أراه لإصلاح هذه المدرسة - لو أن رجالا مرشدين يحضون على العلم ما استطاعوا - أن يفرض على السنة الأولى حفظ، كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ، حتى يعرف التلميذ شيئا من صفات الإنسان الممدوحة والمذمومة، ويعلم كذلك ما فى الحيوان من خيل وإبل، ويستطلع على السحاب وأنواعه

---

(١) أنظر مسودة هذه المذكرة بخط سيد المرصفى بملحق رسالة الماجستير للمؤلف.

والنبات وأصنافه إلى غير ذلك مما ذكرصاحب الكتاب، وفى أثناء ذلك يكلف الأستاذ، بعد بيان المعانى - إن استطاع - أن يأتى بشاهد على الكلمة، حتى ترسخ فى فكر التلميذ، ويعلم مكانها من التركيب.

وفى السنة الثانية: أن يفرض عليها حفظ (الألفاظ الكتابية لأبى عيسى الهمذانى) ويدرب التلميذ على عدة تراكيب فى المعنى الواحد بأفعال وأسماء كثيرة.

وعلى السنة الثالثة والرابعة: حفظ (فقه اللغة للثعالبى) وعلى الأستاذ بيان كلماته على ما شرحنا فى السنة الأولى.

وفى السنة الخامسة: حفظ شيء من (ديوان الحماسة) وعلى الأستاذ بيان معانيه بأبسط عبارة مع المحافظة فى نطقه على اللسان العربى، من غير تعقيد نبت بين ماضغيه من تلك الحواشى.

وتكلف التلاميذ، ماعدا السنة الأولى بإنشاء موضوعات صغيرة، ليتدربوا على الكتابة، وعلى الأستاذ فى إصلاحها بإبدال كلمة مكان كلمة لو استطاع وكان غزير المادة.

وليس هذا بكثير فيما أراه فى تقويم الناشئة الأزهرية، التى يراد منها أن تكون أئمة المستقبل.

وأرى أن تؤلف لجنة فى نهاية السنة الخامسة، لم يكن فيها أستاذ من مدرسى ذلك القسم، لامتحان النقل، لم يشترك معهم فى الرأى أستاذ منهم، ولا ملاحظ خشية للمحاباة، التى تضر التلميذ، وتضر رجال التعليم فى المستقبل

أما المرحلة الثانية المسماة بالقسم الثانوى، فليس فى أولى سنيها انتقاء سوى ما خصصه[1] (فى تدريسه) وهو كتاب (العقد الفريد) لتعليم اللغة

---

(١) كان الشيخ سيد مايزال أستاذا للقسم الثانوى إبان إعداده هذه المذكرة.

والأدب .. والذي أراه أن هذا الكتاب لم تعده أرباب الصناعة من الكتب المعتبرة في اللغة والأدب ، وذلك أن صاحبه إنما وضعه مثال كشكول جمع فيه بين الغث والسمين ، والردىء والجيد على أن غثه ورديئه أكثر من سمينه وجيده ، إن لم نقل إنه ضعيف الرواية ، سخيف العبارة .

ذكر في كتابه شيئاً من حروب الجاهلية ، قد خالف في أكثرها مؤرخي الوقائع العربية ، فهو يخبط فيها خبط عشواء .

ذكر في كتابه أنساب العرب . وأطال فيه ، ولم يعلم صدقه من كذبه إلا من كان له دراية في فن النسب ، على أنه لا مساس له بفن الأدب .

ذكر في كتابه فن العروض والقوافي ، بعبارة مغلقة ، ونظم في أوتاده ، وأسبابه قصيداً ، تثقل على النفس قراءتها ، وهذا فن وضع فيه مؤلفات كثيرة ما بين مطول ومختصر . وهل مثل هذا يعد من اللغة والأدب ؟ .

ذكر في كتابة أصناف الأطعمة والفواكه وما زال يطبخ فيها حتى احترقت .

حشا كتابه بذكر تاريخ الملوك والخلفاء ، وصنع فيه قصائد من شعره البارد السمج الذي تمتغص به المعد ، وهذا فن وضع الناس فيه كتباً كثيرة وهل تاريخ الملوك له مساس باللغة .

هذا وإني لأعجب من شيئين : أولها : اختيار هذا الكتاب ، على تحريفه وتبديل كلماته .

والثاني : تكليف طائفة من علماء الأزهر ، قضوا مدة أعمارهم في الفناقل والاستشكالات ، وتخطئة الصواب ، وغير ذلك مما هو معلوم لديكم أن يدرسوا هذا الكتاب ، على ما فيه من التحريف والخطأ وكذب الرواية وهم حديثو عهد بالادب لا يعلمون .

وكان الذي ينبغي قبل إصدار الأمر بمطالعته أن تعقد لجنة ممن له ذكر في

الأدب لإصلاح هذا الكتاب ـ لو فرضنا أنه من كتب الأدب المعتبرة حتى لا يقال : إنهم حملوا الناس على جهالة فعلموا ضلالة.

وفى النفس أشياء كثيرة تدور حول التعليم والإدارة لا أحب أن أضيع فيها نفيس وقتى ، وفى هذا كفاية » . توقيع سيد المرصفى .

ولقد نرى فى هذه الآراء التى نادى بها « سيد بن على » لإصلاح « النظام الأزهرى » خلاصة العناصر الجوهرية للإصلاح ، ومنها :

اختيار الكتاب الذى ينمى قدرة التلميذ . ويساعد فكره على النضوج بعيدا عن الحواشى والتعقيدات .

ثم اختيار الأستاذ القادر على تدريسه الكتاب ، الذى يستطيع الاستشهاد على المعنى بما يحفظ من جيد الشعر العربى ، كى ترسخ المعانى والأساليب فى فكر التلميذ . شارحا المعانى فى أبسط عبارة ، مبتعدا عن الفنقلة والاستشكالات اللغوية . . ثم واجب التلميذ بحفظ ما كلف به من موضوعات أدبية ولغوية ، وإعداده للمواضيع الانشائية ، يستعمل خلالها ما حفظ من نظم و نثر ، متمرسا بذلك على الأساليب العربية الفصيحة .

ويشير (سيد بن على المرصفى) إلى الكتب التى تنفع الطالب الأزهري فى مرحلته الأولى ، موضحا أن أسلوب التدريس للكتاب ، وقدرة الأستاذ ، ومشاركة الطالب ، ونوع الكتاب كل ذلك حلقات متصلة يجب أن تتوافر لإصلاح التعليم بالجامع الأزهر ومعاهده ، ومن هذه الكتب المهمة لإعداد الطالب نجد كتاب (الألفاظ الكتابية لأبى عيسى الهمذانى) وكتاب (فقه اللغة للثعالبى) و كتاب (ديوان الحماسة لأبى تمام) .

وفى المرحلة الثانوية يوجه انتقاداته الهامة على كتاب (العقد الفريد لابن عبد ربه) ، وقد قام المرصفى بتدريس هذا الكتاب بهذه المرحلة ، ولذا نجد أن نقده إياه نقد الفاحص الخبير الذى قضى فى صحبته بضع سنين .

وقد وجه نقده هذا الكتاب من ناحيتي العبارة، والمضمون، فهو من الناحية الأولى سخيف العبارة، صنع فيه مؤلفه قصائد من شعره البارد تتناول تاريخ الملوك والخلفاء، كما ذكر في أوتاد العروض وأسبابه تثقل على النفس قراءتها.

ومن الناحية الثانية يرى أن موضوعات الكتاب لا صلة لها بالأدب، ولا تماثل نظيراتها من المؤلفات في التاريخ.

ويعجب المرصفي لاختيار هذا الكتاب لما فيه من تحريف وتبديل، ثم اختيار جماعة لتدريسه ليس لها صلة بالادب، فقد قضوا أعمارهم في المناقل والاستشكالات، وإننا نرى المرصفي في نقده هذا ومطالبته بإصلاح حالة التعليم بالمرحلة الاولى والثانية، يحرص أن يعلن رأيه — ما دام قد طلب منه ذلك — في حرية وصراحة، مبينا بذلك حرصه الشديد على إصلاح حالته، وغيرته على أبناء الجامع الأزهر، وآراء المرصفي لإصلاح نظام التعليم في الأزهر، تستمد جذورها من المصلحين، الذين التقى بهم، وأمدوه بنضج أفكارهم، ومنهم صديقه الشيخ محمد عبده، وكان صديقه الشاعر (عبد الرحمن قراعة) يسترشد برأيه حينما كان مديرا للمعاهد، وربما سار معه ورافقه في جولاته بالمعاهد للوقوف على مدى صلاحية نظام التعليم بالمعاهد الازهرية للوقوف على الأداء ووصف العلاج الناجع والمفيد.

وقد كانت نظرة « الشيخ سيد المرصفي » ثاقبة حين أمر بعرض دفاتر الطلبة عليه قبل أن يصدر حكمه، وهم أكثر من مائة وخمسين طالبا، ليدون ملحوظاته عليها، ثم يفكر بعد ذلك فيما يمكن من علاج.

وفي هيئة كبار العلماء، اتسع للأدب كرسي بها، وأعطى لصاحبه قدره من الإجلال والتكريم، واتصل به كل من يتصل بالأدب من شعراء وأدباء ولغويين، فعرفه رجال الأدب والفكر، وعرفه رجال السياسة فاتصل بتسليم

باشا ، والتقى بجمع ادريس راغب باشا اللغوى [١] ، واشترك مع أعضا المجمع فى أعمالهم .

(١) تأسس هـذا المجمع فى خريف ١٩٢١ ، وكان من دواعى تأسيسه ، ترقى اللغة العربية ، وإحياء ماتدعو اليه الحاجة ، خصوصا ما إندثر من مفردات اللغة ، وجمع المواد اللازمة لوضع معجم حسن الترتيب ، شـــامل للألفاظ المدونة فى المعاجم المتـداولة ، ووضع كلمات للمسميات الحديثة ، والمصطلحات العلمية والفنية ونحوها مما تقتضيه حالة العمران وانتشار الحضارة

وفى جلسه ٨ ديسمبر ١٩٢٢ تألفت لجان المجمع ، واشترك فى عملها د سيدبن على ، وكان الإجتماع فى بيت ادريس راغب ، ثم فى المكتبة النورية بدرب الجماميز، وكان يعاضدذلك المجمع العلماء والمستشرقون وتلقى فيه المحاضرات عن اللغة وآدابها .

وقد نشرت صورة تذكارية لأعضاء هذا المجمع فى مجلة المصور فى العدد رقم ٣٦ الصادر فى ١٩ يونيو ١٩٢٥ ، وقد ظهرفيها الشيخ سيد المرصفى جالسا عن يمين ادريس راغب باشا ، ومحمد رشيد رضا عن يساره - أنظر الصورة بالصفحة التالية .

مجمع ادريس راغب

١٩٢١ - ١٩٢٥

فى عدد ٣٦ من مجلة المصور التى صدرت فى يوم الجمعة ١٩ من يونيو عام ١٩٢٥ نشرت صورة لمجمع إدريس راغب على غلافه ، كما وضحت الأسماء التى جاءت وهم : الجلوس «من اليمين» الأساتذة : على حامد أفندى ، رفيع مشكى أفندى ، نور الدين مصطفى بك ، السيد رشيد رضا ، عطوفة أدريس راغب باشا ، الشيخ سيد على المرصفى ، ابراهيم رمزى بك ، محمد أمين واصف بك صالح جودت بك .

الوقوف «من اليمين» : الأساتذة ، عبد الله أمين أفندى ، الشيخ محمد على الدسوقى ، صادق عنبر أفندى ، محمد كامل حجاج أفندى ، عبد القادر فؤاد المناسترلى أفندى ، الشيخ أحمد حسن الزيات ، عبد الفتاح عبادة أفندى ، يوسف أحمد أفندى ، الشيخ عمرو .



وفـاته :

بين أعمدة الجامع الأزهر ، وخارجه ، ظل (سيد بن على) يقوم بواجب اللغة والأدب ، فيقول بحسن أدبه ، وعذب حديثه ، ناشرا عطره نافحا أريجه والشيخوخة تتقدم اليه بآلامها وأسقامها ، فيجد فى الأدب شكواه وسلواه ، فينشد من أبياته ، ويقول من قصائده . ويعيش مع الأدب متعته الروحية . ويأتى اليه تلامذته فينشط معهم .ويشغل بحديث الأدب واللغة ويظل الجميع فى لقاء أدبى موصول .

وفى أحد الأيام . وبينما الشيخ يداعب حفيده ابن بنته . أحس بأن الولد سيقع من فوق الكرسى على الأرض . وأراد أن يبعده عن هذا الخطر . فخارت قواه هـــو . ووقع على الأرض فانكسرت ساقه وكان ذلك فى أخريات أيامه .

ولم يستطع بعد هذا الحادث أن يذهب إلى الجامع الأزهر لإلقاء دروسه فجلس فى بيته رقم٢ بشارع قاضى البهار بالخرنفش . وانتقل اليه طلابه يتلقون عليه دروس الأدب واللغة .

وفى مغرب الثلاثاء ٢٢ من رمضان ١٣٤٩ هـ الموافق ١٠ من فبراير سنة ١٩٣١ م اختاره الله لجواره . تاركا زوجه (شلبية) التى توفيت بعده . بعشر سنين . وأولاده . محمد صديق . ومحمود . وإبراهيم . وإبنته نفوسه .

وقد شيعت جنازته من داره بالخرنفش . الى حيث صـــلى عليه بالجامع الأزهر . ثم سار ركبه إلى مثواه الأخير . تتقدمه وفود العلماء وطلابه . ورجال مصر وعظماؤها . وفى قرافة المجاورين [1] وورى التراب مبكيا عليـه من أنصار اللغة والأدب .

---

(١) قد انتقل رفاته أخيرا إلى جبانة الامام الشافعي فى مقبرة جديدة أعدها له أحفاده .

وقد نعته صحف مصر فى أعدادهـا الصادرة فى ١٢ فبراير حتى اليوم الثامن عشر منه فقالت جريدة الشورى فى عددها رقم ٢١٣ :

(الشيخ سيد على المرصفى) من هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف ، وأستاذ اللغة الذى خرج عـــددا لا يحصى من أفاضل الكتاب والمنشئين والأدباء ، وافاه القدر المحتوم بعد عمر طويل قضاه فى خدمة اللغة والأدب ، والبحث والتحقيق ، وهو صاحب (أسرار الحماسة) و (رغبة الآمل من كتاب الكامل) و (شرح نهج البلاغة) وغيرها من التحقيقات الأدبية واللغوية والتاريخية ، عدا الكتب الأدبية التى كان يشرحها فى حلقات دروسه فى الأزهر الشريف (كأمالى الثعالبى) وغيره .

وجاء فى مقال بجريدة (المقطم) الصادرة يوم الخميس ١٢ من فبراير :

(وقد اعتكف الفقيد من سنوات فى داره بشارع قاضى البهار بالخرنفش بجوار دار آل البكرى ، بسبب شيخوخته ، ولكن ولاة الأمر بالأزهر والمعاهد الدينية ، أشفقوا على طلاب الأدب من أن يحرموا تعاليم الفقيد ؛ فسمحوا له بالتزام داره على أن يعقد حلقات دروس الأدب لطلابه فى منزله وظل كذلك يفيض على الطلاب من بحر علمه الفياض إلى أن وافته المنية مأسوفا عليه من آله وذويه ، وجميع الذين نهلوا من منهله العذب ، سواء فى ذلك الأدباء فى مصر وسورية وسائر بلاد الشرق العربى .

كما نعته مجلة اللطائف المصورة بتاريخ [1] ١٢ من فبراير سنة ١٩٣١ ، فى عبارة موجزة .

---

(١) ذكر الزركلى فى الأعلام جـ ٣ ص ٢١٧ أن تاريخ ذلك ١٩ يونيو ١٩٢٥ م والصحيح ما ذكرت وأن التاريخ الذى ذكره الزركلى لعله عنى به المصور ، فقد صدر فى التاريخ الذى ذكره ، وفى صدره صورة مجمع أدريس راغب باشا ، وبين أعضائه الشيخ سيد المرصفى .

وفى جريدة الأهرام بتاريخ ١٣ من فبراير ، تصدرت صورة الشيخ سيد المرصفى الصفحة الأولى ، وأبنه فى حديث الصيام محمد الغنيمى التفتازانى وقد جاء فى حديثه ما يلى : (إن شيخنا الذى واريناه التراب بالأمس ليس بالمجهول فيتعرف وجه عظمته بين هذه السطور ، ولا بالمغمور فأحاول أن أجرى باسمه إلى الذكر المنشود، ولكنه شيخ كل كاتب وأديب من المصريين الخلص فى هذا الجيل ، إن لم يكن بالذات فالبواسطة . . إيه مولانا الشيخ سيد بن على المرصفى ، شهد الله لقد كنت معدوم المثال بين من عرفناهم ، فقد أعددت نفسك وعقلك للسمو على النفوس والعقول، وكنت ذا روح سامية تكاد حين تحلق تنتقل فى مدارج الوحى ، مشعة من نورها القوى على نفوس طلبتك المتخيرين ، كنت مولاى مرسلا ، لا تتعمل ولا تتصنع ، تكره التعمل والتصنع ، صريحا الى حد لم يكن يطيقه إلا الصرحاء .

وعلم زكى مبارك وهو فى باريس وفاة أستاذه فرثاه بمقالة ذكرها فى البدائع ، وفيها قال :

ايتها النفس أجملى جزعا   إن الذى تحذرين قد وقعا

مات الشيخ المرصفى قبل أن أبلل أكفانه بدموعى، ودون أن أحمل نعشه إلى مقره الأخير .

أيها الرجل الذى عرفت بفضله أسرار اللغة العربية ، واستطاعت بفضله أن أرفع رأسى بين أساتذة الأدب وحملة الأقلام ، أيها الرجل ، أنا مدين لك بكل شىء فى حياتى اللغوية والأدبية . . لست وحدى تلميذك أيها الشيخ الجليل ، فهناك مئات انتفعوا بعلمك وأدبك ، ولكننى الرجل الوحيد الذى بكى لموتك فى حرارة دونها بكاء الأطفال ، وكاد نعيك يقض مضجعه فى هدآت الليل ، وينسيه معانى الحياة فى مدينة الحياة .

هـذا بعض ما جاء فى نعى الشيخ وتأبينه ، وتلك نفثات قلوب مكلومة بفراق الشيخ محزونة لوداعه .

وبعد .. فإن الإنسان بعد موته يصير ذكرى، يتحدث بها كل من تصله به صلة ، أو تربطه به رابطة من قريب أو من بعيد ، فما الذكريات التى لاتنسى لهذا الشيخ؟وما السمات البارزة فى خلقه؟وماملامح شخصيته التى ينفرد بها الشيخ سيد بن على المرصفى .. ؟

ملامح من شخصية « سيد بن على المرصفى »

إذا أردنا أن نعطى ملامح من شخصية (سيد بن على) فإن أول ما يتبادر إلى الفكر عن هذا الرجل أنه صاحب كتابى (رغبة الآمل من كتاب الكامل) و (أسرار الحماسة) لأنه قام بتدريسهما مع غيرهما من كتب اللغة والأدب فى الجامع الأزهر ، فبرز فيها صاحب منهج جديد لتدريس الأدب فى الجامع الأزهر ، وأوسع للأدب كرسيا فى هيئة كبار العلماء ، بعد أن كان نافلة يساق الحديث إليه استطرادا .. وقد ظهرت بقية الصفات التى سنذكرها من خلال تدريسه ، وحياته بين طلابه ومريديه ، ومن هذه الصفات الموضحة لملامح شخصيته نجد :

عزة نفسه وترفعه عن الصغائر ، وطلبه دائما لمعالى الأمور ، وقد رأى أن الطريق الذى يحقق له ذلك فى طلب اللغة والأدب ، فبلغ فيهما الدرجة العالية ، كى يحقق لنفسه العزة ، ويبلغ معالى الأمور ، إنه لا يرضى بالذل ولو عاش فى جنات تغرد طيورها ..

يمين صدق مياه الذل لا أرد   لو طير عزى فى جناتها غرد
لاه عن الزهو للعلياء منجرد[1]

وهو فى أحواله الاجتماعية ومعاملاته المالية نراه (يترفع عما كان ينغمس فيه كثير من الناس من ألوان السعاية والنميمة والكيد والتقرب للرؤساء . وكان يستحى أن يقبض راتبه أول الشهر ، ويكره أن يختلط بالموظفين وهم يتهافتون على (المباشر) ليتقاضوا منه رواتبهم ، فكان يدفع خاتمه

---

(١) الدر الذى انسجم على لامية العجم . سيد على المرصفى . مطبعة بولاق ١٣١٢ هـ .

إلى تلميذ من خاصته ليقبض له(١) .

واعتزاز (سيد بن على) بنفسه لم يكن مجرد كبر وخيلاء ، بل إنه تجرد للعلياء متخذا لذلك سلاح العلم والأدب ، فحفظ كثيرا من أشعار العرب ، وخبر الأساليب وفقه أسرار نظم الكلام ، حتى تمت عنده ملكته النقدية التى تعتمد على ذوقه ورهافة حسه، فسايرته فى شروحه ودروسه ، فى إنشائه وأشعاره . وظهر من خلال كل ذلك (سيد بن على) أصح من عرفته مصر فقها فى اللغة ، وأسلم النقاد تذوقا للأدب ، وأكثر الرواة معرفة وحفظا لشعر الجاهلية وصدر الإسلام فلا غرو بعد هذا أن نرى الرجل معتزاً بنفسه ، مبتعدا بها عن مواطن الضعة والهوان ، .

كذلك كان من صفات (سيد بن على) وملامحه الشخصية :

الوقار ، والتواضع ، والقناعة ، وحب الآل والولد ..

فكان المرصفى (صورة الوقار والهيبة ، لأنه اعتز بنفسه ، وبعد بها عن صغائر الأمور . (ولكنه كان أديبا أيضا ، ومعنى ذلك أنه كان يصطنع وقار العلماء إذا لقى الناس ، أو جلس للتعليم فى الأزهر ، فإذا خلا إلى أصدقائه وخاصتهم عاش معهم عيشة الأديب ، فتحدث فى حرية مطلقة عن كل إنسان وعن كل موضوع ، وروى لخاصته من شعر القدماء ونثرهم وسيرتهم ما يثبت أنهم كانوا أحرارا مثله يقولون فى كل شىء ، وفى كل إنسان لا متنطعين ولا متحفظين كما كان يقول(٢) .

وكان الرجل متواضعا ، وإنسانا مرسلا . لا يتصنع ولا يتكلف ، فكان يقوم بنفسه بإعداد الطعام لوالدته الكبيرة ، ويجلس لإطعامها ، وقد تأخر مرة عن بعض تلامذته أثناء زيارتهم له فاعتذر لهم فى صراحة : (كنت أعشى

---

(١) ص ١٦٤ جـ ٢ . الأيام . طه حسين . دار المعارف بمصر ١٩٥٢م .

(٢) ص ١٦٤ جـ ٢ . الأيام . طه حسين . دار المعارف ١٩٥٢م .

أمى . .) وكان قنوعا ، راضى الناس مما أعطاه الله . يحس من يتحدث إليه أنه من أيسر الناس حالا ، رغم ما يعانيه من فقر وضيق ، فالقناعة صفة السادة الأماجد ، وهى ملك يسمو بعزة النفس ، لا بما يملك من جند ومال .

إن القناعة ملك قد سما دولا بعزة المجد لا بالجند حازولا
فاقنع إذا رمت تحكى سادة أولا[1]

والمرصفى يحب آله وذويه ، ويعمل جاهدا رغم ضيق يده ومرتبه الضئيل ، من أجل تعليمهم تعليما ممتازا ، والبلوغ بهم اعلى الدرجات ، انه (يعلم ابنه تعليما ممتازا ، ويرعى غيره من أبنائه الذين كانوا يطلبون العلم فى الأزهر رعاية حسنة ، ويدلل ابنته تدليلا مؤثرا[2] .

وكذلك نجد من ملامح شخصية (سيد بن على) :

شعوره بالغربة ، وعدم ثقته بخل أو صديق . .

وشعور هذا الرجل بالغربة له أسبابه ودواعيه ، فقد نشأ أديبا مطبوعا ، بين قوم ينظرون إلى الأدب على أنه حكايات تقال ، أو شعر يتفكه به ، لا يتعرضون له بالدراسة الواعية ، ولا ينهلون من منهله العذب ، ليقفوا على أساليب العرب الفصحاء ، ويتعرفوا على لطيف إشاراتهم ، وحسن استعاراتهم وبليغ تشبيهاتهم ، وإذا كان القدماء قد ضربوا أكباد الإبل للوقوف على مثل ذلك فما بال علماء الأزهر اليوم كسالى أدعياء ، لقد حقدوا على المرصفى مكانته ، وقاوموا حلقة درسه فى الأدب ، وتقولوا عليه وعلى تلاميذه ، لأنه درس الأدب فى حرية ، مشجعا تلاميذه على ممارستها . .

لقد مرت أثناء إعداد تلاميذه لدرس الكامل عبارة المبرد : (وبما كفرت

---

(١) اللهو الذى أنسجم على لامية العجم (سيد المرصفى) مطبعة بولاق سنة ١٣١٢ هـ

(٢) ص ١٦٤ جـ ٢ . الأيام . طه حسين . دار المعارف ١٩٥٢ م

الفقهاء به الحجاج قوله والناس يطوفون بقبر النبي ومنبره: إنما يطوفون برمة وأعواد » ..

وأنكر طه حسين أن يكون فى كلام الحجاج مايكفى لتكفيره ، وقال : لقد أساء الحجاج أدبه وتعبيره .. « وتناقل الأزهريون هذه المقالة ، واتهموا طه حسين بالمروق عن الدين ، ونسبوا مروقه لأستاذه « سيد بن على » حين أن الشيخ وتلميذه لم يقصدا الإساءة إلى الرسول الكريم ، فقد كان الشيخ من أقرب الناس إلى ربه ، وكانت له لحظات يقضيها أسير الخشوع لروعة القرآن ، وكان إذا تعرض لذكر النبي قال : سيدنا رسول الله ، وكانت كلمة « سيدنا » حية فى نفسه حياة قوية .

وقد نصح بالحذر من الصداقة وتقلبها ، والأيام وتداولها فقال :

عاشر صديقك واحذر من تقلبه ... ولا يروقك منه برق خلبه
ولا تكن واثقا من صفو مشربه ... أعدى عدوك أدنى من وثقت به
فهم مناهل لا تصفو مشاربها
وإن صفت غص بالأحزان واردها

ويقول :

دنياك إياك ترجو أن تحاولها ... فلست تأمن فى حال تحولها

وقد بعد المرصفي عن الأزهريين الجامدين ، وانتقدهم فى حرية وصراحة ، ولم يصادق إلا من رأى فيه خلاله وصفاته ، ومن كان فيه ثورته وتحرره من كل قيد ، وداعية إلى الاصطلاح والتقدم ، وشاعرا وأديبا ، وباحثا لغويا ، واتخذ من كتب التراث الأدبي خير صحبة يقضى معها نفيس وقته ، فأغنى نفسه عن كل خل وصديق ، فكنت تراه فى بيته بين كتبه ، باحثا عن لفظة أو شاهد لمعناها ، أو منقبا عن قصيدة عند أصحابها ، أو محققا نسبة شعر لقائله ، أو غير ذلك مما احتوت عليه بحوثه ، وقامت به شروحه ودروسه .

وكان من ملامح شخصية (سيد بن على) :

خفة روحه ، وميله للدعابة والمفاكهة :

فكان يتبسط فى الحديث مع تلامذته ، فيزيل ما بينه وبينهم من الفوارق ، ويشعر الجميع بروح الشيخ الأديب تمتزج من مشاعرهم وخواطرهم ، وكان حاضر النكتة طريف النادرة ، وقد أثر عنه من ذلك العذب السائغ ، ومنه (حين كان مصححا بدار الكتب طلب منه (السيد محمد البلاوى) كتاب (تهذيب اللغة) للأزهرى فقال : (تريد تهذى باللغة ؟)

ولعل هذه النكتة وفدت عليه من قول الأول :

لاتعرضن على الرواة قصيدة   ما لم تبالغ قبـل فى تهذيبها
فإذا عرضت الشعر غير مهذب   عدوه منك وساوسا تهذى بها

وقال لأصحابه يوما : كانوا يقولون إن البلاغة فى طبع المصريين، أتدرون أن المنطق فى طبعهم أيضا ؟ قيل وكيف ذلك ؟ قال : لقيتنى فتاة فسألتنى نشوقا .. هى كونت فى نفسها قياسا ، كأنها قالت : هذا شيخ ، وكل شيخ يستنشق ، فهذا يستنشق[1] . وجلس ثلاثة من الطلاب المغاربة يوما فى حوش بيت الشيخ ، فسألت ابنته نفوسه عن رأيه فيهم فأجابها بقوله : أما السيد أمين فهو حبل من مسد ، وأما محمود فهو سوءة البلد ، وأما عبده فهو مغص المعد .

وقد دعى مرة إلى مأدبة ملكية فى عهد الملك فؤاد ، وأخذ رجال القصر يحثونه على أن ينال نصيبه من الأكل فقال: إنها مأدبة ملوك لا مأدبة علف[2].

---

(١) ص ٤٠٠ ومابعدها . الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية . محمد كامل الفقى ، ١٩٦٥ .

(٢) المرصفى فى هذا متأثر بأستاذه عبد الهادى نجا الابيارى القائل :

* موائد الأمرا شرف لا علف فاظفر لاتكن فيهما *

وهو من قصيدة تزيد على ثلثمائة بيت بعنوان : (نور القريحة فى حسن النصيحة .

ومن ملامح شخصية (سيد بن على) وصفاته التى اعتز بها . ووصف بها نفسه :

محب اللغة والأدب ، ونصير اللغة والأدب .

فقد أثبت الصفة الأولى على غلاف كتابة الأول (أسرار الحماسة) وأثبت صفته الثانية على غلاف مؤلفه الثانى (رغبة الآمل من كتاب الكامل) وهذا الترتيب التاريخى لهاتين الصفتين يوضح لنا أن (سيد بن على) نشأ محبا للغة والأدب ، يطرب لرقة الحديث ، وتستميله عذوبة الأدب واللغة الفصحى ، ولذا فقد جالسهما جلسة المحب ، يناجيهما نجوى العاشق المستهام ..

وسار فى حبه مخلصا أمينا ، فأخذ يرشف من رحيق منهلها العذب ، بينما هى تعطيه ماتملك من أسرار وطوايا وأخبار ، فأغنت فكره ولبه ، وأثرت عقله ووجدانه ..

وبعد أن قطع مع محبوبته هذه الرحلة الموفقة ، لم يقنع من الغنيمة بالأياب ، بل صار عالى الكلمة قوى الحجة فكلما رأى بعض الكاتبين أو الشارحين أو رواة الأدب يقول عن الأدب واللغة بغير علم أو تثبت ، تصدى مدافعا نصيرا للغة والأدب ، وذائدا عن حياضهما .

فإذا شاهدنا فى (أسرار الحماسة) بداية الصحبة والوصال والحب للغة والأدب ، فإننا نرى فى (رغبة الآمل) الدفاع عن اللغة والأدب ، ونصرتهما من التحريف والضلال ، فكان دفاعا مجيدا حفظ للغة أصالتها ، وللأدب رونقه وبهاءه .

هذا و (لسيد بن على) ملامح وسمات خلقية ، فهو يبدو بين الطول والقصر ، نحيل الجسم ، ذو صوت خفيض شجى ، يأسر قلب سامعه ، يجلس فترى فيه صورة الوقار والهيبة[1] . ذو شارب يلبس العمامة والجبة والقفطان

---

(١) انظر صورة الشيخ فى جريدة الأهرام ١٣ فبراير ١٩٢١ ، وصورته بالمجمع اللغوى ص ٥٧ .

وهو معنى بمظهره، ليس ضريرا بل إنه حاد البصر[1]، ومما يروى عنه أنه نسخ لشيخه (الشربيني) بعض أجزاء كتاب (البخاري) على ضوء القمر ، وكان خطه جميلا فكتب ناسخا لنفسه كثيرا من الكتب والمخطوطات النادرة .

وبعد أن وقفنا على تلك الملامح من شخصية (سيد بن علي المرصفي) فإنه ليجدر بنا أن نعرج على مؤلفاته ، كي تكتمل بها ملامح شخصيته ، وتبرز من خلالها متكاملة الملامح واضحة السمات .

وسأبدأ بعون الله وتوفيقه — في الفصل التالي بإعطاء فكرة مبسطة عن هذه المؤلفات ، لإبراز الخطوط العريضة فيها ، والله الموفق والمستعان .

---

(١) سها بعض الكاتبين فاختلط عليه الأمر بينه وبين حسين المرصفي صاحب الوسيلة الذي كان ضريرا ومنهم جمال الدين الرمادي في كتابه (من أعلام الأدب المعاصر) ص ٥ . دار الفكر .

الفصل الثالث

مؤلفات « سيد بن على »

١ مؤلفاته فى النظم :

(ا) القصيدة المرصفية .

(ب) تحفة العهد الجديد فى الفقه والتوحيد .

(ج) الدر الذى انسجم على لامية العجم .

(د) من أشعاره فى المناسبات .

٢ - مؤلفاته الدراسية :

(أ) أسرار الحماسة .

(ب) رغبة الآمل من كتاب الكامل .

٣ - مؤلفات شخصية :

(أ) كراسته فى الألفاظ العربية .

(ب) هوامش وتعليقات.

إن مؤلفات « سيد بن على » ناظما ودارسا ، هى مرآة تجلو معالم فكره، وتسبر أغوار شخصيته ، وتبرز أبعاده فى عالم اللغة والأدب .

ومؤلفات المرصفى فى النظم تنحصر فيما بين أيدينا،وهو شىء قليل بالنسبة لما خلفه ، وضاع مع الأيام كثير ، فمن هذا الذى ضاع ولم أستطع العثور عليه ، ديوان مخطوط يجمع طائفة ضخمة من شعره الذى قاله فى مختلف

الأغراض ، ولعلنا قد نجد به قصيدته التي سماها « ثامنة المعلقات » يمدح بها الشيخ « الشربيني » حين تولى مشيخة الجامع الأزهر ، بعد الشيخ « حسونة النواوي » ، وقد عارض فيها قصيدة طرفة بن العبد ، أو لعلنا كنا قد وجدنا به قصيدته المرصفية في مدح حامي حمى الديار المصرية أحمد عرابي باشا ، وغير ذلك من شعره في مرحلة الشباب الذي يتدفق حماسة وانفعالا ، وينساب عاطفة ووجدانا .

إن الذي بين أيدينا من نظم « سيد بن علي المرصفي » ينحصر في مؤلفه في الفقه والتوحيد أسماه « تحفة العهد الجديد » وتخميسه « الدر الذي أنسجم على لامية العجم » ، إلى جانب ثلاثة عشر بيتا من أخريات قصيدته المرصفية ، وأبيات قليلة من نظمه في المناسبات ، وسأتحدث عن كل واحدة منها وفق ترتيب نظمها وتاريخ نشرها ، فأول مايطالعنا من نظم «سيد بن علي» في مرحلته الأولى من شبابه نجد :

القصيدة المرصفية :

وقد بدأ « سيد بن علي » حياته الأدبية ، شاعرا يتأجج حماسة ووطنية ، اشترك في الثورة العرابية بقصيدته التي تدعو المصريين للثورة والاتحاد ضد الغزاة المستعمرين،وتقع قصيدته في سبعة وسبعين بيتا،طبعت بمطبعة بولاق في ٢٦ شوال ١٢٩٩ هـ سبتمبر ١٨٨٢ ، وقد جاء في آخرها :

يا آل مصر تنبهوا فمن الذي	يرضى بذل في الخليقة أنكد
يا آل مصر علمتموا ماحل في	هند وتونس من بلاء سرمد
هذا وللمولى الكريم نمد أيدينا	لنصر جيوشنا يتأيد
يا ربنا ، يا ربنا ، يا ربنا	عجل بنصر المؤمنين وأنجد
يا ربنا غوثا لحزبك إنه	يرجوك في فتح قريب المورد(١)

(١) ص ١٣٨ الحسين المرصفي-محمد عبد الجواد : دار المعارف ١٩٥٢م .

وقد اختار « المرصفى » لقصيدته موسيقى : بحر الكامل لقربه من العاطفة والانفعال ، كما اختار لقافيته حرف الدال وجعل الأبيات الأحد عشر الأخيرة من القصيدة كلها تضرع وابتهال لله ، أن ينصر جيش مصر ، وأن يهزم أعداء البلاد .

وقد كرر فى هذه الأبيات لفظ « يا ربنا » تسع مرات ، فكان فى جؤاره وطلب الغوث والمدد من الله ، منفعلا بإحساسه وكيانه مع أهل مصر ، فهو فى أبياته صورة صادقة لما كان عليه أهل البلاد ، من حب للبذل والتضحية من أجل الوطن وركون لله فى كشف الغمة عن البلاد .

وإذا لاحظنا هذه البداية الشعرية من بدايات المرصفى ، نجد ميوله الدينية وتأثره بدلائل الخيرات وبردة البوصيرى ، فحينما نقرأ قول المرصفى :

يا ربنا بمحمد وبصحبه رد البغاة ومن علينا يعتدى
يامن يجيب دعاء مضطر أجب داعيك من أضحى لبابك يغتدى

نذكر « دالية » دلائل الخيرات ومنها :

بمحمد وببنته وببعلها وبابنيهما الحسنين أعلام الهدى
نور بفضلك يا إلهى قلوبنا يا خير من بسط الأنام له يدا

وقد استعمل « المرصفى » فى هذه البدايات الشعرية ، ألفاظا أحوجته إليها قافيته ، فجاءت أضخم مما يحتاج المقام ، ومن ذلك قافيته « بلاء سرمدى » . كما استعمل المصدر الأقل شيوعا مثل قوله « بتأبد » والأكثر فيه « تأبيد » ، ثم نجد ذكره لكلمات لم ينطق فيها ببعض الحروف حتى توافق الوزن العروضى ، وذلك مثل قوله :

يا ربنا اقطع دابر الكفار من خضعوا لغير جناب عزك الأمجد

والإملاء العروضى للشطر الثانى : خضعوا لغى رجنا بعز كلمجد . وعلى أى حال فتلك هى بدايات المرصفى ، والبدايات غالبا مايقع فيها من هذه المآخذ التى تقل كلما أكثر الشاعر من نظمه وشعره

وثانية مؤلفات المرصفى الشعرية كانت :

(١) تحفة العصر الجديد فى الفقه والتوحيد :

على مذهب الإمام الشافعى :

وإذا بدا لا تستقلوا حجمه   وحياتكم فيه الكثير الطيب

وقد جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمدا يوافى نعمه ويكافىء زيده أما بعد فقد اطلعت على هذه الحديقة فإذا هى روضة يانعة أنيقة قد جمعت ما تفرق فى الأسفار المونقة بالثمار والأزهار فلله در ناظمها من علامة كامل همام الفقير الحقير مصطفى عز

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على نبيه أما بعد فقد أمعنت النظر فى هذه القصيدة الغراء فإذا هى تحفة العصر الجديد والعقد الفريد حسن وقعها جليل نفعها نفع الله بها المسلمين ورفع قدر ناظمها فى العالمين الفقير لله تعالى عبد الرحمن الشربينى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد فقد اطلعت على هذه الرسالة فوجدتها حسنة التأليف جامعة بين العقائد والفقه المنيف لازمة للمستفيد والمبتدى والمعيد نفع الله بها المسلمين آمين . الفقير إليه تعالى حسن المرصفى .

الطبعة الأولى بالمطبعة الشرقية سنة ١٣٠٩هـ حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الله

بسم الله الرحمن الرحيم

أقسام الحكم العقلى :

الحمد لله ذى الإحسان والكرم   ثم الصلاة على المبعوث للأمم

محمد المصطفى الهادى بسنته   والآل والصحب والأتباع كلهم

وبعد معرفة الإنسان خالقه فرض عليه بشرط العقل والحلم
وإن للعقل حكما قسموه إلى اسـ تحالة وجواز مع وجـوبهم
وفى الشريعة أوصاف الإله أتت عشرين واجبة فى حسن منتظم
وجوده وبقاء دام مع قدم كذا خلاف لكل الحادثات نمى
وأنه واحد فى الذات جل علا وفى الصفات وفى الأفعال فى القدم
كذا القيام بنفس ليس مفتقرا إلى سواه بلا شك ولا وهم
حياته والكلام السمع مع بصر إرادة قدرة مع علمه العمم
وكون ربى عليما قادرا وكذا حيا سميعا بصيرا صادق الكلم

ما يستحيل عليه تعالى :

كذا مريدا وأما المستحيل أتى عشرين أيضا فخذها وفق ذكرهم
فأول عدم ثم الفناء تما ثل الحوادث حاشا بارىء النسم
حدوثه وافتقار عجز قدرته فقد الإرادة مع جهل ومع صمم
ويستحيل ممات مع تعدده كذا العمى وتعالى الله عن بكم
صفات أكوانه بالضد قد علمت فافهم عقائد دين الرشد والحكم
وانسب اليه كمالات تليق به وانف النقائص عنه غير محتشم

ما يجوز فى حقه تعالى :

وجائز وهو فعل الممكنات كما يجوز ترك لهذا الفعل فاستقم

ما يجب للرسل :

هذا وفى حق رسل الله قد وجبت أمانة مع تبليغ وصدقهم

ما يستحيل :

ويستحيل عليهم كتم ما أمروا من الرسالة مع كذب بشرعهم

ما يجوز :

واحكم جوازا بأعراض تناسبهم لا كالمنفر طبعا من بلاغهم

واذكر شهادة إسلام فقد جمعت ... معنى العقائد فى نزر من الكلم
ويا أخا الرشد نق القلب من حسد ... واطرح رياء وإصرارا على اللمم
وطهر النفس على الله يقبلها ... من المعاصى وخف من زلة القدم
واتبع شريعة مولانا كما وردت ... واحفظ فؤادك من غل ومن ظلم
ولنذكر الآن شيئا من شريعته ... قدر الضرورى فاحفظه بضبطهم

فروض الوضوء :

فللوضوء فروض ستة ذكرت ... فى مذهب الشافعى السيد العلم
فنية مع غسل الوجه قد قرنت ... بغسل أول جـــزء منه لا ترم
والوجه من آخر اللحيين مرتقيا ... لمنبت الشعر من رأس به رفهم
كلا الذراعين فاغسله لمرفقه ... وبعد ذا مسح بعض الرأس فاغتنم
وغسله قدميه من أصابعه ... إلى الكعوب ورتب حسب نظمهم

سنن الوضوء :

وسن تسمية ثم الســواك له ... وغسل كفيه غسل الحاذق الفهم
وقرروا قبل الاستنشاق مضمضة ... ومسح أذنيه مع تجديد مائهم
ومسحه لجميع الرأس منتدب ... كذاك تثليث أفعال من الحكم
وسن تخليل كث الذقن مع بلل ... كذا الأصابع من كف ومن قدم
ثم الولاء وتقديم اليمين على ... يسراه مع دلكه واختم بذكرهم

نواقض الوضوء :

واسمع نواقض بالضبط قد حصرت ... فى أربع نظمت فى سلك عدهم
خروج غير منى كان من قبل ... أو كان من دبر فاحفظ لنصحهم
وفقد عقل وفى معناه قد ذكروا ... اغما وسكرا أعاد الحس كالعدم
والنوم إلا لدى تمكين مقعدة ... رأوه كالصحو فاستمسك بحكمهم
ومس فرج ببطن الكف مع عدم ... لحائل شرطوا من آدميهم

واللمس لامرأة لا محـــرم وأتى نقض الملامس والملموس عنه نمى
عن الشافعى

الاستنجاء :

واستنج لا من منى بالمياه كذا بجامد طاهر من غير محترم

موجب الغسل :

وموجب الغسل حيض والنفاس كذا والوطء فى أى فرج كان فاستقم
ولادة مع موت قد أتى وكذا ك خارج من منى لو لمحتلم

فروض الغسل :

وفرضه نية مع بدئه قرنت كذاك تعميم جسم من مياههم

سنن الغسل :

وسن للغسل تقديم الوضوء كذا ذلك وتسمية فاتبع لفعلهم
كذاك تخليل ما بالرأس من شعر ولحية كثفت أولا فلا تهم
وقدموا أيمن الشقين من بدن على اليسار كفعل فى وضوئهم

التيمم :

ومن تيمم فليلزم تجدده لكل فرض ولا يلزم لنفلهم
ونقل ترب لوجه فرضه وكذا إلى اليدين وقصد حسب فقههم
وامسح به الوجه ولتلصق يديك به وانو استباحة فرض وفق أمرهم

شروط التيمم :

وثم ترتيبه مثل الوضوء أتى وللتراب اشترط طهرا كأنهم

أسباب التيمم :

أسباب فقد ماء طاهر وإذا ما احتاجه لظماه أو لمحترم
أو كان برد ولا شىء يسخنه أو خاف مع مرض من شدة الألم

سنن التيمم :

وسن تسمية ثم الولاء وتقـ ـديم اليمين وتخفيف لتربهم

كذا بأول نقل نوع خاتمـــة أما بثانيه أوجب وفـق قولهم
كذاك تقدم أعلى وجهه وقضى من قد تيمم من برد بنصهم

موجبات الصلاة : --

وموجبات الصلاة العقل واحدها ثم البلوغ مع الإسلام فاعتصم
وعلمه بدخـول الوقت مشترط كظن مجتهد من قبلة الحرم
كذا السلامة من حيض ومشبهه وشرط صحتها الآتى من الكلم

شروط صحة الصلاة : --

طهارة الثوب والأبدان من دنس مع المكان وستر العورة التزم

عدد الصلاة المفروضة : --

ثم الصلاة التى بالنص قد وجبت خمس وما تم من حصر لتفلهم
ظهر وعصر تليه مغرب وكذا الـ ـعشاء والصبح فاحفظه بلا سأم
فالظهر أربع ركعـات وعاقبه نظـيره والعشا فافهم لعـــدهم
ومغرب بثـــلاث صليت أبدا والصبح ثنتان والتفريق عن حكم

أركان الصلاة : --

أركانها نيـة فى فرضها وكـذا فى نفلهـا حسب التعيين فالتزم
ثم القيام ولكن عند قـدرته وليس ركنا أتى فى النفل فاغتنم
كـذاك تكبيرة والشرع عينها بالله أكبر لاتبدل بذكرهم
وسورة الحمد أى أم الكتاب أتت بشرط تجويدها والحفظ عن وهم
وحذروا من قصير المد واجتنبوا تبديل دال بزاى عند نطقهم

عدد الطمأنينات : --

وخذ طمأنينة فى أربع نظمت والكل من جملة الأركان فاعتصم

ركوعها بانحنا والاعتدال إلى حد القيام ووضع فى سجودهم
من اليدين كذاك الركبتان معا والجزء من جبهة مع أول القدم
بين السجودين قد جاء الجلوس كذا
تشهد مع أخير من جلوسهم
ثم الصلاة على المختار يتبعها تسليمة وبذا الترتيب فاختتم

أبعاض الصلاة : —

هذا وأبعاضها عشرون قد وردت خذها بأحسن عقد صيغ من كلم
تشهد أول فيه الصلاة على محمد خير رسل الله والأمم
وفى الأخير على آل وضم لها جلوس كل أتى فى ضمن ذكرهم
واقنت بثانية فى الصبح معتدلا وذاك ورب اهدنى حسب اختيارهم
واقنت بركعة وتر فى الصيام إذا مافر من رمضان النصف فاغتنم
واختم قنوتك دوما بالصلاة على خير الورى مع سلام هاطل الديم
كذاك للآل والأصحاب قاطبة وهذه ستة عدت بنظمهم

سجود السهو : —

ثم القيام لكل قد أتى ومتى سهوت عن بعضها فاسجد لسهوهم

السنن التابعة للصلاة المفروضة : —

وخذ رواتب قد جاءت مؤكدة للفرض تابعة عشرا بضبطهم
فسنة الظهر قبلا ركعتان وبعـ ـده وللصبح قبلا فاستمع كلمى
ثنتان بعد العشا والوتر واحدة ومغرب بعدها ثنتين فالتزم

مبطلات الصلاة : —

هذا ويبطلها الأحداث أو عمل بكثرة مع عمد من كلامهم
وردة وكذا كشف لعورته نجاسة حدثت أثنا صلاتهم

ثم انحراف أتى عن سمت قبلته   بصدره مبطل حسب اتفاقهم

مايلزم الميت : -

واذكر فروضا على الأحياء أربعة
غسلا ودفنا وتكفينا لمحترم

صلاة الجنازة : -

كذا الصلاة عليه حسبما أمرت   به الشريعة فاتبع نص شرعهم
أركانها نية لاشك يتبعها   قيام ذى قدرة ياطيب الشيم
وبعد ذا فليكبر أربعا عددت   وبعد ثالثة يدعو لميتهم
وبعد أولى وإن يهمل فثانية   يأتى بفاتحة القرآن والحكم
مع الصلاة على الهادى الشفيع لنا   فى كل هول من الأهوال مقتحم
فإن أتم من التكبير عدته   هنالكم فليسلم غير محتشم

الصوم وما يلزمه : -

ونية الصوم ليلا فرضه وكذا الـ   امساك عن مفطر فى كل يومهم
كذاك ترك جماع واستقاءته   وشرطه العقل مع إسلام ملتزم
ثم السلامة من حيض لصائمة   ومن نفاس جميع اليوم فاعتصم
وفى شروط وجوب أو إطاقته   للصوم حتما وهذا آخر الكلم
ثم الصلاة على الهادى وعترته   والحمد لله فى بدء ومختتم
واختم بخير . إله العالمين وجد   لنا بحسن الرضا يامولى النعم
وامنح بجودك فى الدارين منزلة   للوالدين وخير الناس فى الأمم
والعبد سيد يرجو منك مغفرة   لما جناه من الأوزار واللمم
بجاه خير نبي أنت مرسله   مع الهدى رحمة للناس كلهم
فليس لى ملجأ أرجو توسطه   فيما أردت سوى المبعوث بالحكم
وأنت أرفق ممن كان يشفق بى   تجيرنى من أليم الضر والضرم

إليك يبسط كف فى تضرعه ... لعل يمنح بالإحسان والكرم
وقد رجوت دعاء أستدين به ... من فضل سامعها أو قارىء بفم

وقد أرخ تمام طبعها النبيه الأديب حضرة طه أفندى أحمد من كتبة المحكمة الأهلية قال : —

أسلاف حان أم شمائل اغيد ... أم غادة هيفاء ذات تأود
أم روضة غناء طيب نسيمها ... للروح قد أهدى الند اندى
أم نيرات الافق قد صيغت لنا ... عقدا بديع نظامه لم يعهد
أم ذى محاسن سطرت بصحيفه ال ... خد النقى لها النواظر تفتدى
أم ذى أويقات الصفا والدهر من ... كدر صفا ووفى الحبيب بموعدى
أم تحفة العهد الجديد قد انجلت ... تزهو بأنوار الهدى للمهتدى
أم ذى نتائج فكرة قد أهديت ... من سيد سند على أمجد
أهدى فوائد بل فرائد لؤلؤ ... تزرى القلائد فى نحور الخرد
لما بحسن "الطبع" تم كما لها ... وبدت تتيه بحسنها المتفرد
هام "يراع بها" فقال مؤرخا ... ومن اللطائف تحفة من سيد
٩٦ ١١١ ٨٨٨ ٩٠ ٧٤
سنه ١٣٠٩

وكان تمام طبعها الرائق وحسن وضعها الفائق بالمطبعة العامرة الشرقية سنة ألف وثلثمائة وتسعة مضت من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية مالاح بدر تمام وفاح مسك ختام آمين .

التخميس

المسمى بالدر الذى انسجم على لامية العجم .

تأليف حضرة الشيخ سيد على المرصفى - الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق مصر سنة ١٣١٢ هـ . من مطبعة بولاق بيانا ومضاف فى ٦ نوفبر سنة ١٨٩٥ م ، ١٣١٢ هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدا لمن حلى أولى الألباب بالحكمة وفصل الخطاب ، وصلاة وسلاما على من أوتى جوامع الكلم وبعث ليتمم مكارم الأخلاق فعلم ما علم وعلى آله وصحبه وعترته وحزبه فرسان البراعة فى ميدان اليراعة .

« وبعد » فهذا تخميس حلينا به جيد لامية الوزير الكاتب مؤيد الدين الحسين ابن على الطغرائى رحمه الله قياما بواجب الأدب وأخذا بنصرة لغة العرب وامتثالا لإشارة أعزائى الأخوان من بنى الإحسان وما هو إلا خطرات فكر نزهته فى روض اليراع لجنى من أدبه الغض ما استطاع سميته بالدر الذى انسجم على لامية العجم متخليا عن وصمة الخائل متحليا بحكمة القائل :

وما أعجبتنى قط دعوى عريضة ولو قام فى تصديقها ألف شاهد

* * *

نزاهة النفس أغنتنى عن الدول وفكرتى أكسبتنى حكمة الأول

وآينى وذوو الألباب تشهد لى « أصالة الرأى صانتنى عن الخطل

وحلية الفضل زانتنى لدى العطل »

مجدى تعزز حتى اعتز بى وطنى   وتاه كبرا على بغداد أو عدن
لا أبتغى غيره والعز ينشدنى   « فيم الاقامة بالزوراء لاسكنى
بها ولا ناقتى فيها ولاجملى »

يمين صدق مياه الذل لا أرد   لوطير عزى فى جناتها غرد
لاه عن الزهو للعلياء منجرد
« ناء عن الأهل صفر الكف منفرد
كالسيف عرى متناه عن الخلل »

لم يصب عقلى بمان اللحظ من يمنى   ولا سبانى غصن البان من يزن
ولا أنست بخل من بنى زمنى   « فلا صديق إليه مشتكى حزنى
ولا أنيس إليه منتهى جذلى »

لم أرض إلا على العلياء منزلتى
لو كدرت صفو عيشى كاس نازلتى
ولم أقل جزعا من هجر قاتلتى   (طال اغترابى حتى حن راحلتى
ورحلها وقرا العسالة الذبل)

يلوم قومى سعيى لتشنيء بما   أبقى لذكرى شأنا فى العلا رسما
ولم أبال ولو مج الفؤاد دما   (وضج من لغب نضوى وعج لما
ألقى ركابى ولج الركب فى عذلى)

مهما أكن لمعالى المجد منتبها   موفيا بسداد دين مطلبها
لازلت أدأب فى تحصيل مكسبها   (أريد بسطة كف أستعين بها
على قضاء حقوق للعلا قبلى)

أسعى وفكرى إلى العلياء يتبعنى   مخاطرا خاطرى والنفس تولعنى
أصبو لنيل المنى والحظ يمنعنى   (والدهر يعكس آمالى ويقنعنى
من الغنيمة بعد الكد بالقفل)

وورب ليل بشعر الغيد متصل   وصلته بفؤاد هائم وجـــل
مع ذى نشاط أديب أروع غزل
(وذى شطاط كصدر الرمح معتقل
بمثله غير هياب ولا وكل)

زاهى الوجاهة حر الفكر قد بهجت   به النباهة والألباب قـــد لهجت
سمح البداهة روض للنهى أرجت   (حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت
بشدة البأس منه رقة الغزل)

لكن بى لاعجا يحمى بحرقته   حمى المنام فلم أهنأ برقدته
حتى إذا مال من أهوى لغفوته
(طردت سرح الكرى عن ورد مقلته
والليل أغرى سوام النوم بالمقل)

إليك شكوى غريم بالهوى نصب   مسهد الجفن طول الليل منتحب
مابين منتبه يسرى ومنتهب
(والركب ميل على الأكوار من طرب
صاح وآخر من خمر الكرى ثمل)

وجدى أطار كرى جفنى فأسهرنى   ولامع البرق بالأشجان أذكرنى
وقد حسبتك لى خلا لتعذرنى   (فقلت أدعوك للجلى لتنصرنى
وأنت تخذلنى فى الحادث الجلل)

فنون وجدى لأفكارى مسامرة   تجدبى ومطايا الشوق سائرة
لأى معنى وعين الحب ناظرة   (تنام عنى وعين النجم ساهرة
وتستحيل وصبغ الليل لم يحل)

هلا ترق لقلبى فى تقلبه   نحو الحمى هائما شوقا لمطلبه
إنى غويت محبا بالجمال بهى   (فهل تعين على غى هممت به
والغى يزجر أحيانا عن الفشل)

لا أكذب الله برت في الهوى قسمي   إني اتخذت هوى الغيداء من قسمي
وحق عهد الهوى العذري من قدم   (إني أريد طروق الحي من إضم
وقد حماه رماة من بني ثعل)

سادات مجد شموس في كواكبه   منيرة أمراء في مواكبه
أسد يصونون صبا من مناقبه
(يحمون بالبيض والسمر اللدان به
سود الغدائر حمر الحلي والحلل)

أغث فديتك صبا هائما دنفا   واسعف مشوقا لبانات النقا ألفا
إني عهدتك بالإقدام متصفا   (فسر بنا في زمام الليل معتسفا
فنفحة الطيب تهدينا إلى الحلل)

نجائب العزم بالأشواق ناهضة   نحو الحمى وعيون البرق وامضة
وإن وصلت ومافي الركب نابضة
(فالحب حيث العدا والأسد رابضة
حول الكناس لها غاب من الأسل)

أرواحنا بهوى الغزلان مابقيت   تشكو من الوجد والتبريح مالقيت
فسر بنا بنفوس طالما شقيت   (نؤم ناشئة بالجزع قد سقيت
نصالها بمياه الغنج والكحل)

حي من الأسد تحمي في مضاربها   بيض الظباء تلاهت في ملاعبها
سود الشعور توارت في غياهبها   (قد زاد طيب أحاديث الكرام بها
ما بالكرائم من جبن ومن بخل)

من الكواكب ذات الدل في غيد   ومن أماثل أمجاد ذوات يد
لقيت مالم أكن ألقاه من أحد   (تبيت نار الجوى منهن في كبد
ونار القرى منهم على القلل)

بيض المواضى بحور فى مواهبها سحر الكعاب بحور من كواعبها
بأسدها وظباء من ربائبها (يقتلن أنضاء حب لاحراك بها
وينحرون كرام الخيل والابل)

عرب يجودون إيثارا بقوتهم وكم أذاقوا عداهم كأس موتهم
فهم أساة المعالى من نعوتهم (يشفى لديغ العوالى فى بيوتهم
بنهلة من غدير الخمر والعسل)

غناء المرصفى :

إنى هويت بوادى الجزع غانية بوجنتيها أرى الجنات دانية
فهل ألم بها للعطف ثانية (لعـــل إلمامة بالجزع ثانية
يدب منها نسيم البرء فى عللى)

لا أرهب الأسد والألحاظ قد شرعت
من الجفون وأسباب الردى جمعت
أهوى المنايا وروحى بالمنى واحت
(لا أكره الطعنة النجلاء قد شفعت
برشقة من نبال الأعين النجل)

ولا أحاذر من قومى تهددنى يوم الوغى ودواعى الوجد توجدنى
ولا أخاف الرماح السمر توعدنى (ولا أهاب الصفاح البيض تسعدنى
باللمح من خلل الأستار والكلل)

لا أبرح الدهر للعليا أحاولها ولو تعز لأسباب وسائلها
ولا أذل الفرسان أنازلها (ولا أخـــل بغزلان أغازلها
ولو دهتنى أسود الغيل بالغيل)

العزم نيل المعالى من مطالبه والجد للجد قد يسمو بطالبه
وفى السآمة داء لابليت به (حب السلامة يثنى عزم صاحبه
عن المعالى ويغرى المرء بالكسل)

خض غمار الردى لاترهبن غرقا وحز فخار العلا مافى الحياة بقا
إن البقاء محال سوقه نفقا (فإن جنحت إليه فاتخذ نفقا
فى الأرض أو سلما فى الجو فاعتزل)

إن كنت ترغب من دنياك نيل علا وسوددا فوق هامات النجوم علا
عان الصعاب وأما إن جزعت فلا (ودع غمار العلا للمقدمين على
ركوبها واقتنع منهن بالبلل)

حث المطى إلى الهيجا معنعنة وفى جدال المنايا فاركبن عنة
لاترتضى عيشة بالذل هينـــة (يرضى الذليل بخفض العيش مسكنة
والعز عند رسيم الأينق الذلل)

وواصل اليعملات النجب جائلة ولامعات الرماح السمر صائلة
ودونك البيض بالآمال كافلة (فادرأ بها فى نحور البيد جافلة
معارضات مثانى اللجم بالجدل)

فالعز حيث ركاب العزم سائقة والمجد حيث مطايا الجد شائقة
إن المنى فى وجوه البيد بارقة (إن العلا حدثتنى وهى صادقة
فيما تحدث أن العز فى النقل)

ما كان للبدر بالأنوار فضل ثنا حتى تكامل نورا بالسرى وسنا
لان فى شعف المثوى بليغ عنـا (لو أن فى شرف المأوى بلوغ منى
لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل)

لو أن مجدى بجدى شمله اجتمعا والأمر والنهى قد صارا إلى معا
لكن أرى الحظ للجهال متبعا « أهبت بالحظ لو ناديت مستمعا
والحظ عنى بالجهال فى شغل »

قوم غدا الدهر بالنعمى يخصصهم جهلا وما كان بالبؤسى يغصصهم
قد طال منى لعين الدهر لحصهم (لعله إن بدا فضلى ونقصهم
لعينه نام عنهم أو تنبه لى)

لا زلت بالنفس للعلياء أخطبها ولو توالت ببؤس العيش أخطبها
أحاول الشمس بالأهوال أقربها (أعلل النفس بالآمال أرقبها
ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل)

مالى سوى الفضل بالعرفان منزلة بنيلها عن رغيد العيش مذهلة
من لى بها وصروف الدهر مقتلة (لا أرتضى العيش والأيام مقبلة
فكيف أرضى وقد ولت على عجل)

نفسى الأبية قد مالت بشيمتها عن الدنايا وملت زهو سيمتها
ومذ تعالت بجـــد فى عزيمتها (غالى بنفسى عرفانى بقيمتها
فصنتها عن رخيص القدر مبتذل)

المرء إن رمت تبلو كنه مخبره بأصغريه تجـــده لا بمنظره
والشيء عادته يلهى بمظهره « وعادة النصل أن يزهى بجوهره
وليس يعمل إلا فى يدى بطل »

لما ترفعت قدرا عن بنى الزمن تركت دولتهم ما كان أحزمنى
لكن دهرى بالأوغاد الزمنى (ما كنت أوثر أن يمتد بى زمنى
حتى أرى دولة الأوغاد والسفل)

قوم تركب من جهل بسيطهم وقد تجسم من جبن نشيطهم
مذ أخرتنى أقدار تحوطهم (تقدمتنى أناس كان شوطهم
وراء خطوى لو أمشى على مهل)

إنى أحدث عن دهرى ولا حرج أعيا البيان وصدرى ضيق حرج
أضاعنى وسمـــت بالخامل الدرج (هذا جزاء امرىء أقرانه درجوا
من قبله فتمنى فسحة الأجل)

تظاهروا وطوانى عنهم أدب علوتهم ودنت بى عنهم رتب
كأننى التبر دون الترب محتجب (فإن علانى من دونى فلا عجب
لى أسوة بانحطاط الشمس عن زحل)

مادمت من حادثات الدهر فى غير   فليس من حيلة تغنى ولا حذر
إن الأمور بنا تجرى على قدر   (فاصبر لها غير محتال ولا ضجر
فى حادثات الدهر مايغنى عن الحيل)

عاشر صديقك واحذر من تقلبه   ولا يروقك منه برق خلبه
ولا تكن واثقا من صفو مشربه   (أعدى عدوك أدنى من وثقت به
فحاشر الناس واصحبهم على دخل)

فهم مناهل لاتصفو مواردها   وإن صفت غص بالأحزان واردها
وإن ترم حكمة ما أنت واجدها   (فإنما رجل الدنيا وواحدها
من لايعول فى الدنيا على رجل)

كم آية لصروف الدهر موجزة   قد أحكمت وهى فى الأيام منجزة
فاحذر فظنك فيها السوء معجزة   (وحسن ظنك بالأيام معجزة
فظن شرا وكن منها على وجل)

الناس بالخلف فى الأقوال قد درجت   بعد الوفاء وفى غدر لها اندرجت
والنفس فيهم إذا أملتها فرجت   (غاض الوفاء وفاض الغدر وانفرجت
مسافة الخلف بين القول والعمل)

عوج عن الرشد لاينفك قلبهم   يهوى الضلال ويأبى العدل لبهم
قد زان صدقك شان يستريبهم   (وشان صدقك عند الناس كذبهم
وهل يطابق معوج بمعتدل)

وفا العهود غدا من متعباتهم   والغدر بالعهد من أسنى هباتهم
فلا يهون صحوا من سباتهم   (وإن كان ينجع شىء فى ثباتهم
على العهود فسبق السيف للعذل)

إن كان من عيشك الماضى صفا صدر   واليوم شاب صفاه بالأسى قدر
فتلك دنياك عقبى أمرها هدر   (يا واردا سؤر عيش كله كدر
أنفقت صفوك فى أيامك الأول)

فما طلابك أمرا عز مطلبه ... وما الذى بعدما أنفقت تطلبه
إن الأمانى بحر هال مركبه ... (فيم اقتحامك لج البحر تركبه
وأنت تكفيك منه مصة الوشل)

إن القناعة ملك قد سما دولا ... بعزة المجد لا بالجند حاز ولا
فاقنع إذا رمت تحكى سادة أزلا ... (ملك القناعة لا يخشى عليه ولا
يحتاج فيه إلى الأنصار والخول)

دنياك إياك ترجو أن تحاولها ... فلست تأمن فى حال تحولها
أبعد ما عاينت عيناك زائلها ... (ترجو البقاء بدار لا ثبات لها
فهل سمعت بظل غير منتقل)

فكن لنصحى هديت الرشد متبعا ... وكن بصمتك من دنياك مقتنعا
يامن غدا بخطوب الدهر مضطلعا ... (ويا خبيرا على الأسرار مطلعا
أصمت ففى الصمت منجاة عن الزلل)

ويا بصيرا بحال الدهر أهله ... للأمر أهل النهى حتى تأمله
إن رشحوك بما استوضحت مشكله ... (قد رشحوك لأمر إن فطنت له
فار بأبنفسك أن ترعى مع الهمل)

وللمرصفى بعد ذلك أشعار قالها فى المناسبات المختلفة ، وقد جمعها فى ديوانه، ومنها ماقاله فى مدح الخديو « عباس الثانى » :

سل النجم عن جفنى محبك والكرى ... كفى شاهدا من سائل الدمع ماجرى
جرى فوق خدى ناحل رق جلده ... فأمسى ولا صبر لديه فيصبرا

ومن شعره قصيدته التى سماها « ثامنة المعلقات » هنأ بها الشيخ الشربينى حين تولى مشيخة الأزهر وقد عارض بها معلقة طرفة بن العبد ، فقال المرصفى فى مطلعها :

ملاك العلا فى غرة ملكت يدى ... أمن شأن مثلى فى العزازة أن يدى
أبت عزمتى أن آخذ الحمد هينا ... بغير سنان أو لسان محدد

إلى أن قال :

أمرت العلا أرخ : بسامى كماله تبنأت الدنيا ودين محمد(١)

(١٣٢٢ ﻫ)

ومما قاله فى وصف عرس :

أهـذه أنجـم تزهو على الأنس أم ذى بدور بدت من مطلع الأنس

أم ذى محاسن أنوار تنظمها أيدى السرور تملى بهجة العرس

لله ليلة أنس فى ملاحتها وحسن بهجتها أقصى منى النفس

يريك منظرها من لطف رونقها روضا تنسور زهـرا طيب الغرس

أعجب بها ليلة ماراءها أحد إلا تكشف عنه شقوة النحس

أقارن البـدر فيهـا وهـو مكتمل فى دارة العز والإيناس بالشمس

وقال فى تقريظ كتاب « دليل الكاتب » للشيخ حسن شهاب :

لله حسن مؤلف فى وضعه صور الحروف كفاية للطالب

يهدى إلى طرق الكتابة رسمه ياحبذا الهادى « دليل الكاتب »

---

(١) قال الشيخ الشربينى حين قرأ قصيدة المرصفى كما قرأ غيرها من القصائد: علقوا قصيدة المرصفى فوق رأسى .

وقد قال الشيخ الفقى فى كتابه « الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة» إن هذه القصيدة قيلت للشيخ الانبابى ولكن يحول دون ذلك التاريخ الذى أرخت به ١٣٢٢ والشيخ الانبابى تولى ١٣٠٥ ﻫ ، كذلك يؤيد مانقول بأن طه حسين ذكر فى الأيام ص ١٦٧ ج ٢ مايفيد بأن المرصفى قال قصيدة لشيخه الشربينى لتهنئته حين تولى مشيخة الأزهر وقد عارض بها معلقة طرفة بن العبد ولذلك سماها ثامنة المعلقات وما ورد فى هـذه القصيدة يوافق معلقة طرفة وزنا وقافية .

وقال حين غاب عنه صديقه الأديب[1] :

تحجب البدر يا للناس عن نظرى ... هل عارف فيكم بالعين والأثر
ردوا على فقلبى فى هـواه مضى ... وخلف الجفن للتسهيد والسهر
يا شىء مالى فما أدرى تحجبه ... أسا حربى وشى أم رمية القدر

والمرصفى لم يطبع من قصائده غير الثلاثة الأولى ، أما شعر المناسبات فقد اكتفى فيه بإملائه على تلامذته ، أو بإلقائه فى هذه المناسبة .

وديوان المرصفى لم يطبع ، ولعله أوصى بعدم نشره — مثل غيره من شعراء الأزهر الذين يحافظون على أن يكون طابعهم دائما الوقار والجلال ، وحديثهم نقى عفيف وشعرهم يدعو لنصرة الدين ومكارم الأخلاق .

والشعر عند المرصفى لم يكن غايته ، وإنما قرأ الشعر وحفظه وحاكاه ، ليتمرس على أساليب العرب، ويقف على أسرار فصاحتها وبلاغتها ،واستطاع أن يصل إلى غايته ، ويحقق هدفه . وكانت دروسه فى الجامع الأزهر ، ثم شروحه للأدب واللغة هى ثمرته المرجوة التى أراد أن يرشد الناس إليها لينتفعوا بها ، ويتغذوا على طيب غذائها .

وقد رأينا من هذه الشروح مؤلفه الأول (أسرار الحماسة) ومؤلفه الثانى: (رغبة الآمل من كتاب الكامل) . كما رأينا من مؤلفاته الشخصية صفحات من كراسته التى جمـــع فيها الغريب من ألفاظ اللغة العربية ، كما أطلعت على تهميشات على بعض الكتب التى قرأها .

وهذا قليل من تراث (سيد بن على) الذى خلفه ، فقد عرفنا أنه إلى جانب ماتقدم ، قـد شرح الأمالى لأبى على القالى ، والعقد الفريد لابن عبـد ربه ،

---

(١) لعله طه أفندى الذى أرخ تحفة العصر الجديد، واشترك معه بتخميس (بث الشجن) حيث جمعه مع تخميس المرصفى .

وأراجيز رؤبة والعجاج ، وأسرار البلاغة ، ونهج البلاغة ، كما أن له تعليقات على لسان العرب . والمفصل ، وغير ذلك .. وعذرى فى عدم تناول هذه الشروح أنها لم تطبع ، ولم أعثر عليها فى مكتبته الخاصة بجامعة الاسكندرية ، وسأقوم بعرض ما وصلت إليه من هذه المؤلفات عرضا موجزا يتضح من خلاله جوانبه وأبعاده ، وشكله وموضوعه .

فأول مؤلفات (سيد بن على) الدراسية نجد (أسرار الحماسة) وقد برزت الحماسة[1] على يديه فى ثوب جديد ، بما أضفى عليها من روحه وفكره ، وترقيه بها نحو التذوق الأدبى ، والترتيب الزمنى .

وحين عمد إليها بالدراسة رأى أن ديوان الحماسة (قد عبثت أيدى رواته بجمعه ، فوضعوه على غير وضعه ، فمنهم من ابتدأه بشعر قيس بن الخطيم الأنصارى ، ومنهم من افتتحه بشعر قريط بن أنيف العنبرى ، على أنهم كثيرا مايفرقون بين أشعار القبائل ويذكرون الأواخر أثناء أشعار الأوائل ، وربما فرقوا بين كلمتين قيلتا فى حادثة واحدة لشاعر ، وباعدوا بين أنساب العمائر وأحساب العشائر ..)[2] .

لقد وجد المرصفى بحماسة أبى تمام حين عمد لشرحها مايلى :

١ — عبث أيدى الرواة بجمع أبى تمام ، فقدموا فيه وأخروا ، وابتدأه كل واحد بما رأى ، فاختلفوا فى جمعه وترتيبه ، حتى جعلوا من ديوانه دواوين تختلف ترتيبا ووضعا .

٢ — تفريق الرواة بعد أبى تمام بين أشعار القبائل . وذكر أشعار المتأخرين أثناء أشعار المتقدمين ، بل إنهم ربما فرقوا بين كلمتين قيلتا فى حادثة واحدة .

(١) جمعها أبو تمام حبيب بن أوس الطائى المولود سنة ١٩٠ هـ بقرية (جاسم) من أعمال حوران بالشام ، وتوفى بالموصل ٢٢٨ هـ .
(٢) مقدمة أسرار الحماسة للمرصفى .

٣ — باعدوا بين أنساب العمائر ، وأحساب العشائر .

٤ — كذلك وجد المرصفي أن أبا تمام كثيرا ما كان يعتمد على ذوقه ، فأحيانا يقدم ويؤخر في أبيات النصوص ، وأحيانا يبدل بعض كلمات العرب بكلماته ، وربما حذف ماتحتاج إليه المعنى فيختل المبنى .

٥ — كما نظر المرصفي إلى الذين شرحوا ديوان الحماسة من السابقين ، من أمثال (الخطيب التبريزي) ، (المرزوقي) فوجد أنهم كثيرا مايخلطون في أوضاع اللغة ولا يتنبهون ، ويخطئون في بيان مايقصده أدباء الشعر ومايشعرون . ملئوا كتبهم بصناعة الأعراب والبناء ، وتحقيق مانحاه ابن خروف أوانتحاه الفراء .

فأقام خطته للنهوض بالحماسة ، وإعطائها بعض مافقدته من رونق وجمال . ورأى أن تقسم أشعار الحماسة إلى : موضوعات أدبية ، وشعراء الوقائع الجاهلية والإسلام ، وقام بترتيب وتنسيق ودراسة الجزء الأول من الحماسة الذي يتناول الموضوعات الأدبية وتم طبعه عام ١٢٣٠هـ — ١٩١٢م بعنوان (أسرار الحماسة) وقد جاءت موضوعاته الأدبية مرتبة كما يلي :

النصيحة ـ الأناة ـ مضاء العزيمة ـ شرف الآباء ـ الحث على السعي ـ احتمال الشدائد ـ في القدرة على التخلص من الشدائد ـ التسلي عن الشدائد ـ من هانت عليه الشدائد ـ احتمال مكاره العشق ـ عدم المبالاة ـ المداراة ـ التهكم والتعريض ـ الوعيد ـ الاعتذار ـ الوفاء والغدر ـ كرم الجوار ـ من لم يحمد الجوار ـ ماقيل في بني الأعمام ـ ماقيل في الولد ـ من أحب ولده ـ من أساءه ولده ـ من رضي الإقامة مع الجهد لضعف بناته ـ من وصف ابن زوجه ـ البسالة ونزاهة الأعراض ـ الشجاعة والعزة ـ الشجاعة والكرم ـ حسن الخلق وكرم الشجاعة ـ مدح ذوي الشجاعة .

وقد راعى في كل هذه الموضوعات التنسيق بينها بحيث لايبعد موضوع

عن مكانه ، حتى بدت كلها كسلسلة متصلة الحلقات يسلم كل موضوع منها إلى الذى يليه ، كما راعى فى شعراء كل موضوع من هذه الموضوعات ، أن يقدم الشاعر الجاهلى على الشاعر الإسلامى ، والأموى على العباسى .

والمرصفى بهذا الترتيب والتنسيق قد عاون طالب الأدب على أخذ طلبته التى يحتاجها من الشعر والأدب ، وهيأ له قطوف الأدب دانية يأخذ منها فى سهولة ويسر ، قائلا له : (فنصيحة لك ، طالب الأدب من كلام العرب ، أن تحفظ جملة صالحة من منشآت نثارهم ومختارات أشعارهم ، لتكون عــدة لك فى الإنشاء فيما تشاء .

وحسبك من الشعر ما اختاره أبو تمام من شعر العرب الجاهليين والمخضرمين والمحدثين المولدين ، وقد قالت فيه رواة الأدب : إنه فى اختياره أحسن منه فى أشعاره[1] .

والمرصفى فى دراسته للحماسة ، رأيناه يقوم بتصويب ما أخطأ فيه أبو تمام ، من تقديم أو تأخير أو تحريف ، كما قام بتصويب لبعض الشراح السابقين ، كما أرسى دعائم منهجه فى نسبة النص لقائله والتعريف به ومناسبة النص ، والتذوق الأدبى ، وغير ذلك من دعائم منهجه الدراسى الذى سيقوم عليه بحثنا فى الباب الثانى إن شاء الله .

والجزء الثانى من الحماسة الذى وسمه المرصفى بشعراء الواقع الجاهلية والإسلام ، لم نعثر عليه لا مطبوعا ولا مخطوطا ، ولعل المرصفى قد انشغل عنه بكتابه الثانى (رغبة الآمل من كتاب الكامل) . ولكن يجب أن نعرف أن (سيد بن على المرصفى) قد اهتم بحماستى أبى تمام ، الكبرى والصغرى وقد رأينا مدى عنايته بالحماسة الكبرى ، فيما قام بتدريسه وشرحه فى الجامع الأزهر ، فطبع هذا الجزء لطلاب الأزهر . وتظهر عنايته بالحماسة الصغرى لأبى تمام

---

(١) مقدمة أسرار الحماسة للمرصفى .

من مخطوطة لهـــا بمكتبة المرصفى بجامعة الاسكندرية رقم ٩٧١ ، كتبها المرصفى بخطه الجميل لنفسه ، وقد أطلعت عليها ، ورأيت فيها قول المرصفى بعد البسملة :

هذا باب الحماسة الصغرى وهو كتاب الوحشيات ، اختاره أبو تمام حبيب ابن أوس الطائى رحمه الله ، بعد اختياره كتاب الحماسة الكبرى ، ولم يروه ، ولكن وجد مكتوبا فى مسودة بخطه مترجما بكتاب الوحشيات .

ونجد بهذه الحماسة الصغرى ، باب المراثى ، وباب الأدب ، وباب النسيب ، وباب السماحة والأضياف ، وباب الصفات ، وباب المشيب ، وباب الملح ، وباب مذمة النساء .

وكتب المرصفى فى آخرها : تم كتاب الوحشيات وهو الحماسة الصغرى ، على يد كاتبه لنفسه سيد بن على المرصفى لطف الله به ، وغفر لوالديه .

وإذا كان (سيد بن على) قد خطا أولى خطواته فى مؤلفه الأول (أسرار الحماسة) فإنه فى مؤلفه الثانى قد اتسعت دائرة فكره فبلغ فيه ما أراده له من دراسة وتحقيق ونقد وتصويب وتذوق للأدب ووقوف على أسرار اللغة .

رغبة الآمل من كتاب الكامل :

إنه المؤلف الثانى الذى أذاع صيت صاحبه ، وشهر به بين أبناء عصره فقيل صاحب رغبة الآمل ، كما قيل لنصير اللغة سيد المرصفى ، وقد طبع فى ثمانية مجلدات ، ظهر المجلد الأول منها عام ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٧ م ، والجزء الثامن عام ١٣٤٩ هـ — ١٩٣٠ م وينتهى كل من هذه الأجزاء بفهرسين أولهما للكامل ، والآخر لرغبة الآمل .

وقد قدم المرصفى لمؤلفه هذا بمقدمة ، تحدث فيها عن قيمة الأدب التى تدفع

صاحبها إلى سلوك طريقه، والبحث عن مناهله ، فذكر أن من أحسن الخيرة وأنفس الذخيرة، أدب يتوسل به لإدراك مجد ونيل سؤدد، وشرف منصب .

بين رياضه وغدرانه تظهر أشرعة الحجة الواضحة ، والحجة البليغة ، والحكمة الهادية ، والبيان الفصيح .. ومن أراد هـذا الأدب فعليه أن يطلبه من لسان العرب فى مرسل مجازاته ، وحسن تشبيهاته ، وبلاغة استعاراته ، وملاسة كناياته ، ولطافة إشاراته ، (ولقد كان علماء هذا اللسان فيما سلف ـ وهم أعلى الأئمة كعبا ، وأسماهم نبلا ، وأصفاهم فكرا،وأبعدهم نظرا ـ يقتفون معالمه ، ويقتصون آثاره ، يضربون أكباد الإبل فى حرة القيظ ،وقرة الشتاء، لاتفتر عزيمتهم ـ ولاتضعف همتهم من الجد فى طلبه ، والتمسك بسببه ، حتى صاروا فى سماء الأدب كواكب الاهتداء وأعلام السرى) .

والمرصفى فى مقدمته يوضح متى بدأفى تدريس كتاب الكامل للمبرد بالجامع الأزهر ، وأثر هذه الفترة لإنشاء كتابه (رغبة الآمـل من كتاب الكامل) وأهم مايمتاز به مؤلفه فيقول :

(وقد سبرنا غور فكره.وقصصنا بعيد أثره ، أيام مطالعتى كتابه بالأزهر الشريف ، فى عهد الإمام العليم ، والفيلسوف الحكيم . أستاذ مصره فى عصره (محمـد عبده) غفر الله له . وكان قـد خص نبهاء ذلك المعهد الكبير فوقع اختياره على ، وسلم زمامه إلى . . فاحببنا أن نبين للناس مافيه بحسن التنبيه ، فى شرح لطيف ، لايمل مطالعه . ولايسأم سامعه . وقد أسميته (رغبة الآمل من كتاب الكامل) مهتما فيه ببيان ماحاد فيه أبو العباس عن سنن الصواب، من خطأ فى الرواية . وخطل فى الدراية(ولا ينبئك مثل خبير) هذا وقدأردنا إذا ذكر أبو العباس شاهـدا من شعر العرب أن نورد قصيدته ، مع ضبط كلماتها ، وبيان مبهماتها) .

وكتاب الكامل لأبى العباس المبرد،صورة من التأليف تحمل طابع عصره

إذ يميل إلى الاستطراد ، والانتقال من قضية إلى أخرى لأدنى ملابسة، ودوره فى النصوص الأدبية يتعدى الجمع والاختيار إلى الشرح اللغوى والتصويب النحوى ، وتتبع دلالات اللفظ الواحد عند جمهرة الأدباء والشعراء .

وكل مافيه ثقافة عربية خالصة ، ليس فيه من ألوان الثقافات الأجنبية مانجده عند الجاحظ مثلا ، وما ذلك إلا لأن المبرد عربي من اليمن من قبيلة أزد ، ومن أجل هذا كان حديثه عن أذواء اليمن فى الإسلام فى باب خاص ، استعرض فيه تاريخهم .

وكتاب الكامل يحتوى على كثير من الأدب الذى عبر عن الصراعات المختلفة بعد مقتل الخليفة (عثمان بن عفان) ، فيه حديث مفصل عن الخوارج، فقد أورد من مواقفهم ومواقعهم ما يجعل من كتاب الكامل أوفى وأصح مرجع لتاريخهم ملتزما فى تاريخهم موقف الاعتدال غير متحيز لأحد .

وهذا الكتاب أفضل مايشير بدراسته مرب عارف لتعليم النحو : واللغة عن طريق الأدب ، من خلال النصوص الجيدة ، وفيه تعرض المبرد لعدد من مسائل البلاغة ، وعقد للشعراء المولدين بابا، اختار فيه مااستحسنه من شعرهم وقريبا من آخر الكتاب . أحس أن قارئه يبدو فى النهاية متعبا فى رحلة طالت بين جد القول وروائع الشعر ، فاستأنى به شيئا ، وأنشأ له بابا اختار مادته من موضوع محبب إلى القلوب ، فكان عن العشق والهوى والغرام ، والنساء والوصل والهجر .

وقد شرح الكامل للمبرد قبل المرصفى عدد كثير من الأندلسيين(١) .

وكتاب الكامل معدود من الكتب المعتبرة عند أرباب الصناعة ورجال الأدب ، وكانت صحبة (سيد بن على)له منذ اصطفاه الإمام محمد عبده لتدريسه بالجامع الأزهر عام ١٨٩٥ إلى أن أتم طبعه ١٩٣٠ طيلة ست وثلاثين عاما ،

---

(١) ص ١٨٢ دراسة فى مصادر الأدب - طاهر مكى . دار المعارف ١٩٦٨م .

وقد اتصل خلال هذه الفترة بالكثير من الكتب الأدبية واللغوية والتاريخية وغيرها من الكتب كى يحقق أخباره ، ويكمل مانقص من مروياته ، وينبه على أغاليطه ، حتى صار أعرف الناس بسقطات صاحبه ، وأخبرهم بعثرات جنانه ، ولاينبئك مثل خبير . وقد ساير المرصفى صاحبه متخذا سبيله فى أسلوب الاستطراد من روايته لأبيات جيدة فى الأدب إلى الوقوف عند أحد ألفاظها إلى تتبعها عند جمهرة من الأدباء والشعراء إلى البحث عن فقه أحد الألفاظ والوقوف على تصريفه وإعرابه وسار معه فى شرح المعانى المستغلقة، ثم الحديث عن السرقات الشعرية ، والبحوث البلاغية ، وسار معه مع تاريخ الخوارج وما وقع من صراعات بعد مقتل الخليفة « عثمان بن عفان » وقد رأينا « سيد بن على » من خلال هذه الرحلة يبدو واضحا جليا بمنهجه الذى سار به فى التعريف بقائل النصوص وفى التقديم للنص وإكمال الناقص من القصائد والمرويات ، وتصويب مايقع فيه أبو العباس من خطأ فى الرواية أو خطل فى الدراية وسنرى منهجه متكاملا فى الباب الثانى بمشيئة الله تعالى .

وقد ألف « أبو القاسم على بن حمزة البصرى » ت ٣٧٥ هـ — ٩٨٥ م كتابه « التنبيهات على أغاليط الرواة » نبه فيه على الأخطاء الواردة فى عدد من المؤلفات من بينها « الكامل للمبرد » وأخذ على المبرد ماعده أخطاء فى تفسير عدد من الكلمات، وفى رواية أبيات من الشعر ونسبته لقائله أو شرحه وأغاليط تتصل بالنحو والتاريخ ، وقد أطلع المرصفى على هذه التنبيهات ، ووقف منها موقف الحيدة ، فأنصف المبرد من خصومه إذا كان الصواب فى جانبه ، ومال عليه بالتصويب إذا حاد عن طريقه .

وشرح المرصفى فى « رغبة الآمل » فى ذيل الصفحات يستغرق ثلث الصفحة ، وأحيانا نصفها وآونة أكثر من ذلك ، مع ضبط كثير من كلمات المتن « أما التحقيق والتدقيق فى الشرح والتفسير فحدث عنه ولا حرج ، وللشارح

ملاحظات كثيرة على المؤلف وتعليقات غاية فى الجودة والإصابة[1] » .

وقد قامت على صفحات مجلة الرسالة فى سنتها التاسعة ١٩٤١ م خصومة أدبية ، بين السباعى بيومى الأستاذ بدار العلوم ، وبين زكى مبارك تلميذ المرصفى وسنقوم بعرضها فى الصفحات التالية .

(١) ص ٣٨٣ ج ١٠ مجلة المجمع العلمى العربى .

الهجوم الآثم على الشيخ سيد المرصفى

للاستاذ زكى مبارك — الرسالة العدد ٢٩٨ السنة التاسعة .

« فى العدد ٢٩١ نشرت الرسالة كلمة بإمضاء محمد فهيم عبية جاء فيها إن الأستاذ السباعى بيومى وصف الشيخ المرصفى بكثير من الأخلاق الذميمة كالغل والحقد والحسد وسطحية البحث والتطاول الذميم « وإنه » حكم بأن أخلاقه ذهبت بفضله كما تذهب الريح العصوف بسحيق التراب » . وفى العدد ٣٠٢ نشرت الرسالة ردا بامضاء عبدالرحمن أيوب مع كلمة من الأستاذ السباعى بيومى تشهد بأنه أقر ما جاء بذلك الرد . وهو يلخص فى أن الأستاذ السباعى حكم بأن الشيخ المرصفى « كان يملكه الغرور » وإن الأستاذ السباعى فى حديثه عن المبرد وما يتصل به إنما يصدر فى ذلك عن دراسة بعيدة الآمد « وإن كتابه ظهر فى سنة ١٩٢٣ م على حين لم يظهر كتاب الشيخ المرصفى إلا فى سنة ١٩٣٠ وإن فهارس كتاب الشيخ المرصفى وعناوينه سرقت من كتاب الأستاذ السباعى . وإن المرصفى لم يكن أستاذ السباعى .

وفى العدد نفسه ٣٩٢ نشرت لى الرسالة « كلمة عتاب موجهة إلى الأستاذ السباعى بيومى . وقد جاء فى تلك الكلمة إن الأستاذ تحدث عن أخلاق الشيخ المرصفى بما لا يليق . « فإن كان ذلك الكلام لم يقع منك فانفه فى العدد المقبل . وإن كان وقع منك فسارع إلى الاعتذار إبقاء على ما بينى وبينك من وداد ، فما استطيع السكوت عن رجل يتعرض لأخلاق الشيخ المرصفى بسوء — ولو كان من أعز الأصدقاء » .

ثم لقينى صديق عزيز فقال : لم يرضنى تحديك للاستاذ السباعى بيومى . فقد كان يتفق فى أحيان كثيرة أن يجعل مقالاتك من موضوعات الدرس بدار العلوم وذلك من شواهد الإعجاب ،

وعندئذ رجعت إلى نفسى فحفظت للأستاذ هذا الفضل .وآثرت الصمت.
ولكن الأديب على محمد حسن كتب إلى خلاصة ماتجنى به السباعى على المرصفى
وأكد أنه قال :

« أنا أحذركم من قراءة كتاب المرصفى فإن فيه من الخطأ أكثر مما يتوهم
أن يكون فى كتاب الكامل من الخطأ.وأنا أدعوكم مرة أخرى إلى إساءة الظن
بهذا الرجل . فقد كان ممتلئا غرورا » وأكد هذا الأديب أن الأستاذ لسباعى
لن ينكر ذلك الكلام « وقد كان الحضور كثيرين من أساتذة وطلاب »..
ومع هذا فقد كان فى النية أن أسكت عن الأستاذ السباعى لأنه صديق. ولأن
هجومه لن يقلل مركز الشيخ المرصفى وهو ارزن من الجبال ولأن الأقدار
قضت بأن يكون الأستاذ السباعى من زملاء الأستاذ محمد هاشم عطيه والأستاذ
أحمد زكى صفوت . وهذه الزمالة تمنحه عندى طوائف من الحقوق . ثم ماذا؟
ثم رأيت أنه ليس من الصعب أن أدفع الشر عن تاريخ الشيخ المرصفى وأن
أقدم فى الوقت نفسه خدمة أدبية للأستاذ السباعى ولن يخدم الأستاذ السباعى
وهو صديق إلا بجذبه إلى صفحات الرسالة فى أسلوب رفيق ، لايغض من
مركزه بين تلاميذه بمدرسة دار العلوم .

وإنما نصصت على الأسلوب الرفيق لأن أكثر الأدباء يفرون من وجهه
بحجة أنى لا ألقاهم إلا بقلم تطير عن أسلاته شظايا الشراسة والعنف .

وقد استجاب الأستاذ السباعى لهذه الدعوة . وأعلن على صفحات الرسالة
أن فى الخصومات الأدبية مجالا واسعا للبحث والتدقيق .

ومادام الأمر كذلك فأنا أقدم الحقائق الآتية :

أولا : قضى الشيخ المرصفى شبابه فى خدمة كتاب الكامل للمبرد. وظفر
من ذلك الجهاد بكتاب اسمه : « رغبة الأمل فى شرح الكامل » وقضى الاستاذ
السباعى بيومى شبابه فى خدمة كتاب الكامل للمبرد . وظفر من ذلك الجهاد

بكتاب اسمه : «تهذيب الكامل» . فماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة أن يكون الفرق بين « رغبة الآمل » و«تهذيب الكامل» كالفرق بين المرصفي والسباعي . وهو بون شاسع جدا بحيث يعجز عن اجتيازه نوابغ الطيارين من الانجليز والألمان ، ولو كانوا أقدر من بعض الناس على التحليق في جواء الادعاء .

ثانيا : أعلن الأستاذ السباعي أن كتاب الشيخ المرصفي ظهر في سنة ١٩٣٠ والصواب أنه ظهر سنة ١٩٢٧ وليس لهذا التاريخ أهمية . وإنما الأهمية للتاريخ الذي أخذ فيه الشيخ المرصفي يشرح الكامل . وهو تاريخ يرجع إلى أكثر من أربعين سنة يوم أوصاه الشيخ محمد عبده بتدريس « الكامل » لطلاب الأدب من الأزهريين .. ففي ذلك العهد ثار الشيخ الشنقيطي وطلب ألغاء ذلك الدرس وكان مفهوما عنده أن المبرد أكبر من أن يتسامى إلى تقده رجل من المحدثين ، ولكن الشيخ محمد عبده تلطف فأرسل الشيخ إبراهيم عامر إلى الشيخ الشنقيطي ومعه ملزمة من شرح الشيخ المرصفي . فدهش الشيخ الشنقيطي وسارع إلى الاعتذار . ثم صارح الشيخ محمد عبده بأن المرصفي لا يقل علما بأسرار اللغة عن المبرد .

ثالثا : كان كتاب « رغبة الآمل » كاملا من جميع الجوانب حتى الفهارس سنة ١٩١٥ وقد رأيته بعيني في ذلك العهد ورآه معي الشيخ الرفكلوني طيب الله ثراه .

ولن أنسى ما حييت تلك العبارة الشعرية التي صرخ بها الشيخ المرصفي وهو يقدم إلينا شرحه على كتاب المبرد . لن أنساها أبدا . فقد قال شيخنا العظيم وهو يخاطب المبرد : « الله على أيامك « يابطل .. » والكتاب الذي كان كمل من جميع نواحيه حتى الفهارس قبل سنة ١٩١٥ هو الكتاب الذي سرقت بعض فهارسه من كتاب ظهر في أواخر سنة ١٩٢٣م » .

رابعا : لم يكن الشيخ المرصفي يطلع على شيء من مؤلفات المعاصرين . فكيف اختص الأستاذ السباعي بتلك العناية ؟ تلك والله إحدى الأعاجيب !! .

خامسا : كان الشيخ المرصفى أول رجل تسامى إلى نقد مؤلفات الأكابر من القدماء . وكان أول رجل أقر «كرسى الأدب» فى الأزهر الشريف . وكان أول رجل جعل للأديب مكانا بين جماعة كبار العلماء . فكان بتلك الصفات أوحد عصره بلا جدال . فماذا صنع الأستاذ السباعى فى دار العلوم ولن يكون إلا الرابع أو الخامس بين أساتذة تلك الدار . مع التسامح الشديد؟

سادسا : برأ الأستاذ السباعى نفسه وطهر تاريخه من التلمذة للشيخ سيد المرصفى . فأين هو من تلاميذ الشيخ المرصفى وكان منهم محمد إبراهيم هلال ومحمود زناتى وأحمد حسن الزيات ، وعلى عبد الرازق وطه حسين ؟ .

سابعا : ترك الشيخ المرصفى ذخيرة عظيمة منها : شرح الكامل ، وشرح الأمالى ، وشرح الحماسة ، وشرح العقد الفريد، وشرح أراجيز رؤبة وأراجيز العجاج ، ومنها التعقيب على لسان العرب، والنص على أغلاط صاحب المفصل والكشاف : فماذا صنع الأستاذ السباعى، وكان عمره موقوفا على نقل نصوص الكامل من مكان إلى مكان ؟ .

ثامنا : أثر المرصفى فى عصره أبلغ التأثير ، فكان الرجل يتشرف بالانتساب إليه . كما صنعت حين رثيته يوم وصل نعيه وأنا طالب فى جامعة باريس ، فكم طالبا يسرهم أن يقولوا : أنهم تلاميذ السباعى بيومى .

تاسعا : كان تلاميذ المرصفى يقيدون جميع ماينطق به ، ولو عن طريق المزاح ، وقد قيدت من كلامه ثلاثين كراسا ، فأين ماقيد تلاميذ السباعى من كلامه البليغ ؟

عاشرا : دخلت مؤلفات الشيخ المرصفى على القلوب بدون استئذان ، ولم يدخل كتاب الأستاذ السباعى دار العلوم إلا بعد أن صار أستاذا بتلك الدار، وبعد أن مات الشيخ علام .

وفى الصيحفة ١٧٥ من مجلة الرسالة فى سنتها التاسعة جاء فيها مايلى : إلى الدكتور زكى مبارك :

خصومة أدبية للأستاذ السباعى بيومى

أولى الكلمتين

وعدت حضرات القراء فى عدد الرسالة الأخير أنى سأنشر فى عدديها المقبلين كلمتين اثنتين أتوجه فيهما بالحديث إلى صديقى الدكتور زكى مبارك. وهذه أولى الكلمتين , وهى كما رسمت حين وعدت ترمى إلى تقرير الموضوع الأصيل الذى من أجله كتب الدكتور .

ألقيت محاضرة بمدرج على مبارك باشا فى دار العلوم عن « أسلوب المبرد فى كامله » وعقب انتهائى منها طلب أحد مستمعيها من طلاب كلية اللغة العربية السماح له بكلمة. فاجبته إلى ماطلب . وكانت كلمته أربعة أسئلة ألقاها ، رمى المبرد فى رابعها بالغرور والادعاء وأنه كان لايتحرى إذا أجاب . فرأيت الموقف يقضى على أن أرد عليه . وفعلا رددت . وكانت إجابتى عن السؤال الأخير تتلخص فى نفى تلك الصفات الذميمة عن المبرد نفيا قاطعا ، استدللت عليه بأمور ، منها أن من شأن من لايتحرز فى أجابته ألا يمسك إذا لم يتثبت ، وإنما يرمى بالقول جزافا ، ويخترع الإجابات اختراعا ، وعهدنا بالمبرد أنه غير ذلك ، فقد رأينا فى كامله إذا عرض له مالا يعرفه اعترف بذلك ، خضوعا لتلك الكلمة الجامعة التى لاينزل على حكمها إلا الثقات الاعلام ، وهى « من قال لا أدرى فقد أجاب » ثم أخرجت من الكامل شاهدا على ذلك أسمعته الحاضرين ، ومنها أن من خالط قلبه الغرور وتملكه الإدعاء لم يك فى مقدوره أن يخفى ذلك فى مصنفاته ، بل لابد أن يفضحه أسلوبه : ومهما تكن عند امرىء من خليقة .. وإن خالها تخفى على الناس تعلم . وليس فى كامل المبرد

على كثرة كسبه فيه ونسجه حول أصوله ، ماينفى عنه صفة التواضع العلمى أو يلقى على أبحاثه ولو ظلا صغيرا من الكبرياء والادعاء .. ودعما لهذا الاستدلال الأخير فى أن أسلوب الكاتب يشف عن خلائقه قلت للسائل — وقد ذكر أنه استقى ذلك من شرح الشيخ المرصفى على الكامل - إن مؤلفات المرصفى هى التى تنم عن خلق الغرور والادعاء فيه ، كما يعلم ذلك من أطلع على هذا الشرح ومقدمته ، وكذلك من أطلع على مثلهما فيما عمله بديوان الحماسة، وقلت : إنه لتأصل هذا الخلق فيه كان شديد التحامل على المبرد والتشهير به فيما يظن أن المبرد أخطأ فيه ، ثم قلت : وكم كنا نتمنى للشيخ المرصفى أن يجرد عليه من غروره . ويسبل على تآليفه ثوبا ضافيا من التواضع والاعتدال ، حتى يكون ذلك أبين لفضله وأدل على نبله وأخيرا قلت : ولا يبعد أن تكون البيئة العلمية التى عاش فيها المبرد قد تقولت عليه ماتقولت حسدا وبغيا ، فإن علماء عهده ما كانوا يعهدون من علمائهم إمامة فى اللغة إلا فى ناحية واحدة منها كناحية قولها أو ناحية مفرداتها أو ناحية آدابها ، ولكن المبرد كان إماما ذا آراء فى هذه النواحى الثلاث جميعا ، فهم بما كانوا يتقولون عليه إنما يريدون انتقاصه شفاء لما دب فى صدورهم عليه من حقد وحسد . ولقد خفت أن يهجس فى نفوس السامعين تنزيه قلوب هؤلاء العلماء من رذيلة الحسد ، فاتبعت ماسبق بقولى لحضراتهم : ولا تستبعدن الحسد على العلماء ، فإن طبيعته أن يكون أقرب إلى الأدنين منه إلى الاباعد ، وأسرع إلى قلوب العلماء منه إلى قلوب الجهال، وإذا شئتم مزيدا فى معرفة هذه الطبيعة ـ طبيعة الحسد ـ فاقرءوا رسالة الجاحظ فيه ، وهى أكثر من اثنتى عشر صفحة .

وذلك ما قررته فى أجابتى عن السؤال الأخير . بعد الذى قررته فى الإجابة عن الثلاثة قبله ، وما كان أشده عجبا وأبعده غرابة أن تطوى صحيفة الإجابات الثلاثة وقد سلخت فيها نحو الساعة ، ثم تشوه هذه الإجابة الأخيرة تشويها يمسخها مسخا ، وإذا أنا أمام الواصل إلى منها كالذى يستمع إلى الآية (يأيها

الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة .. ، دون ذكر هذه الجمل الحالية بعدها (وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون) فقد قال هـذا الواصـل أنني وصفت الشيخ المرصفى) بكثير من الأخلاق الذميمة كالحقد والغل والحسد وسطحية البحث والتطاول الذميم (وأنني تعديت ذلك إلى) تجريح صوائف العلماء على اختلاف مهمتهم وحكمت بأن طبائع الحسد والحقد لا تجد لها مراحا خصيبا كالذي تجد من قلوب العلماء) .

وازحمتاه للأخبار من رواتها . فما كان منى عن الشيخ المرصفى علم الله إلا أسفى على ما خالط مؤلفاته من غرور وادعاء وتطاول على المبرد فى أسلوب غير حميد ومازلت معتقدا هذا رضى الدكتور أم سخط ، وواثقا أن كثيرا من أهل العصر يعلمونه علمى ، ويعرفون كيف يستدلون عليه استدلالى ، وكم كنت كما قلت فى إجابتى أتمنى خلو مؤلفات المرصفى من غروره . حتى لا يذهب هذا الغرور بفضله ، وما كان منى عن العلماء ـ شهد الله ـ إلا أنهم فى بيئة المبرد حسدوه تنوع ثقافته وتعدد إمامته . وإن هذا الحسد لم يك من شأن علمهم أن يبعده عنهم ، لأن الحسد كما يقولون موكل بالأدنى . وهو كما ذكر الجاحظ فى رسالة الحسد : (قد صار فى العلماء أكثر منه فى الجهال ، ودب فى الصالحين أكثر منه فى الفاسقين) وأنا بهـذا الرأى لازلت ولن أزال أدين . وافق الدكتور أم خالف .

وجاء فى الصحيفة : ١٩٩ من الرسالة لسنتها التاسعة مايلى :

ليحكم رجال الأدب . . السباعى بيومى يستر جنايته على المبرد بجنايته على المرصفى للدكتور زكى مبارك :

عرف قراء (الرسالة) : أن الأستاذ السباعى توعدنى بمقالتين خطيرتين : الأولى فى تحديد ماقال فى الشيخ المرصفى ، والثانية فى دفع النظرية التى نهبها من كتاب النثر الفنى . وما كان يرجو أن انتظر إلى أن يفرغ من المقالتين المرتقبتين ، لعلنى اعتبر فلا أجترىء عليه ، وقد شاع أنى من كبار المجترئين .

وقد نشر مقالته الأولى، فعرفنا أنه يصر على اتهام الشيخ سيد على المرصفى بالغرور ، ولم يبق إلا أن ينشر مقالته الثانية ، وهى مقالة عرفنا مضمونها سقدما، فهو سيثبت أنه لم يسرق من كتاب (النثر الفنى) وإنما سرق منه مؤلف (النثر الفنى) فكان حاله حال اللص الذى رأى صاحب الدار يمشى من بعد فصاح (مين اللى ماشى هناك) . وأنا لن انتظر إلى أن يفرغ الأستاذ من تحبير مقالته الثانية ، فما كان أول باحث سرق من كتاب (النثر الفنى) ، ولن يكون آخر باحث يسرق من كتاب (النثر الفنى) فقد كتمت سرقته من كتابى أربع سنين ، لأنى أشعر بالارتياح كلما تذكرت أن عندى ذخائر يتطلع إليها الناهضون من الفضلاء .

لن انتظر ، لن انتظر ، فليواجهنى إن استطاع : وأنا ماض إليه بقلم أمضى من السيف واعنف من القضاء ، ولن أتركه بعافية أو يعترف بأنه يستر جنايته على المبرد بجنايته على المرصفى .. ولكن كيف جنى على المبرد وقد قضى شبابه فى خدمة كتاب (الكامل) ؟ تلك هى النقطة كما يقول لافونتين .. اسمعوا كلمة الحق أيها الناس .

المبرد دان اللغة والأدب والنحو والتصريف والتاريخ الإسلامى بكتاب نفيس اسمه (الكامل) وهذا الكتاب قد شرق وغرب فانتقل من يد إلى يد ومن بلد إلى بلد على اختلاف الأجيال . وبذلك تعرض للتصحيف والتحريف ، وإذا كان من الواجب الا يتقدم لنشره من أبناء العرب غير من يملك القدرة على اصلاح ما أفسدت تلك الأجيال . فهل يكون السباعى هو المصلح المنشود وما قال أحد بأن الله وهبه نعمة الذوق الأدبى ، وهى نعمة سامية لا يظفر بها من كل جيل غير آحاد ؟ .

كان المصلح المنشود لكتاب الكامل هو شيخنا العظيم (سيد بن على المرصفى)، الذى قضى عمره عشرين سنة وهو يراوح المبرد ويغاديه بالنظر الثاقب والفهم

العميق ، ولكن المرصفى مات وصار من حق كل باغ أن يتقول عليه كيف شاء ، ولو كان فى منزلة السباعى بيومى وهو كما وصف نفسه أستاذ بدار العلوم .

هل سمعتم أشياء من أقوال الدكتور طه حسين ؟

أتعب الدكتور طه نفسه فى النيل من (دار العلوم) فكان يقول : هى مدرسة عاقر ، ومن الواجب أن تغلق بدون تسويف .. فهل غضب السباعى بيومى وهو (أستاذ بدار العلوم) كما ذيل اسمه وهو يحاورنى بمجلة الرسالة الغراء ؟ وكيف يغضب والدكتور طه رجل يضر وينفع . وهو يملك المحو والإثبات فى أعضاء بعض اللجان بوزارة المعارف ، والسباعى يطمع فى أن يعين عضوا باللجنة التى تنقل كتاب (هانوتو) عن الفرنسية إلى العربية ؟ . أما الشيخ المرصفى فهو اليوم جسد هامد لا يملك دفع الضر عن سمعته ولو صدر عن باغ فى منزلة السباعى بيومى . الشيخ المرصفى مات وشبع من الموت ، وهو اليوم لا يملك دفع عادية الذئاب . . مات المرصفى ثم مات . . ولكن تلاميذه أحياء ، والويل كل الويل لمن يتعرض لشيخنا العظيم بكلمة سوء : ولو كان من أعز الأصدقاء أيشتم المرصفى فى مصر وهو قريع الزمخشرى والمبرد ؟ ألم يكف المرصفى أن يعيش غريبا ويموت غريبا ؟ لم يوجد فى الأزهر من يدرك قيمة الشيخ سيد المرصفى غير الشيخ محمد عبده . وبموت (الأستاذ الامام) أصبح المرصفى من الغرباء .

وقد عرف المصريون قيمة الشيخ محمد عبده بعد الموت ، فكيف يجهلون قيمة الشيخ سيد المرصفى بعد الموت ؟ .

السباعى بيومى هو الذى أراد الإعلان عن نفسه بالقدح فى الشيخ المرصفى فليدفع ثمن ذلك الإعلان بلا إمهال .

ولكن كيف يدفع ذلك الثمن ؟ إلى رجال الأدب العربى أسوق الحديث :

أخرج السباعى كتابا سماه (تهذيب الكامل) فى جزأين أولهما فى المنثور وثانيهما فى المنظوم ومعنى ذلك أنه قدم وأخر فى نصوص الكامل ليقع المنثور فى جانب والمنظوم فى جانب ، فهل يرى القراء أن هذا عمل مطلوب ؟ وهل يرون أن المبرد كان يعز عليه أن يصنف كتابه على هذا الوضع لو أراد؟ المبرد راوح بين المنثور والمنظوم لحكمة تعليمية، هى نقل الذهن من فن إلى فن ليبعد عنه السآمة والملل ، وقد أضاع السباعى تلك الحكمة التعليمية بصنيعه الجميل ، والفرق بين الكامل وتهذيب الكامل هو الفرق بين روح المبرد وروح السباعى ، وأنت حين تقرأ الكامل تواجه روحا لطيفاً هو روح أبى العباس — طيب الله ثراه — وقد كان مثلا رائعا فى صباحة الوجه ولطافة الروح ، وحين تقرأ تهذيب الكامل تواجه روح السباعى بيومى ، وهو روح السباعى بيومى بلا نزاع ولا جدال .

ومهما يكن من شىء فقد استطاع السباعى أن يطارد المرصفى . المرصفى شارح الكامل ، المرصفى الذى أقام البراهين على أن مصر وجد فيها رجل يصاول المبرد ويمشى إليه مشى البازل إلى البازل فى شراسة وكبرياء . . استطاع السباعى أن يحرم على شرح المرصفى دخول (دار العلوم) ليجهل طلبة تلك الدار (أسرار كتاب الكامل) وليجهلوا مبلغ أستاذهم السباعى من (العلم) بما وقع فى (الكامل) من تحريف وتصحيف . .

وفى الصحيفة ٢٠٠ من الرسالة لسنتها التاسعة قال زكى مبارك :

ماذا أريد أن أقول ؟

أنا أريد النص على الأغلاط التى عجز عن إدراكها ذهن السباعى . وفطن لها عقل المرصفى ، وهى أغلاط ستؤذى السباعى أعنف الإيذاء لأنها ستقنعه بأن ثناء الدكتور طه حسين على صنيعه فى كتاب خدمة الكامل لن ينجيه من عذاب النقد الأدبى ، وهو عذاب أليم . . . واستطرد زكى مبارك حديثه قائلا :

لقد لامني الناصحون على ما اقترفت من التنازل إلى مساجلة بعض الناس فهل تعرف كيف كان جوابي ؟ لقد أجبت بأن الأدب كالعلم ، والعالم يشرح جسم الضفدعة كما يشرح جسم الإنسان . . . ليس لك غير نقل نصوص (الكامل) من مكان الى مكان ، فهل فهمت أسرار (الكامل) ؟ وهل (هذبت) أو (شذبت) تلك الغابة الشجراء ؟ . . وما أنت والكامل أيها المفضال ؟ . . الأمر فى ذلك لشيخنا العظيم سيد بن على المرصفى . الشيخ الذى ربانا على الصراحة والصدق والأخلاص ، وهو المنافس الأعظم للأساتذة الأماجد : محمد المهدى ومحمد الخضرى وإسماعيل رأفت ومنصور فهمى وأحمد ضيف وطه حسين . . . أما بعد فقد آن للأستاذ السباعى أن يقرأ ما يرضيه . وعليه أن يجيب إن كان يملك الجواب ، وهيهات ثم هيهات .

١ — فى تهذيب الكامل ج ٢ ص ٢٦١ قال الأخطل :

نازعتهم طيب الراح الشمول وقد
صاح الدجاج وحانت وقعة السارى

ولم يلتفت السباعى إلى التحريف فى (نازعتهم) وقد التفت إليه المرصفى فنص على أن الصواب (نازعته) لأن الأخطل يقول قبل هذا البيت :

وشارب مربح بالكأس نادمنى   لا بالحصور ولا فيها بسوار

٢ — فى تهذيب الكامل ج ١ ص ٢٨ ورد قول الشاعر :

إذا ما حقب جال شددناه بتقصير

وهنا أتعب السباعى نفسه فأثبت فى الهامش نقلا عن المضاف إلى المتن أن هذا الشاعر هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وهذا خطأ ظاهر ، وإنما الشعر ليزيد بن ضبة الثقفى يمدح الوليد بن يزيد ، وقد أفضت إليه الخلافة انظر تحقيق الشيخ المرصفى ج ١ ص ١٠١ من رغبة الآمل فى شرح الكامل وعذر الأستاذ السباعى أنه غير مسئول عن التحقيق . لأنه استاذ بدار العلوم ..

٣ — فى تهذيب الكامل ج ٢ ص ٣٠٧ قال المبرد : روى لنا أن رجلا من الصالحين كان عند إبراهيم بن هشام فأنشد إبراهيم قول الشاعر :

إذا أتت فينا لمن ينهاك عاصية   وإذا اجتر إليكم سادرا رسنى

فقام ذلك الرجل فرمى بشق ردائه واقبل يسحبه حتى خرج من المجلس ثم رجع على تلك الحال فجلس . فقال له هشام مابك ؟ فقال أنى كنت سمعت هذا الشعر فاستحسنته فآليت ألا أسمعه إلا جررت ردائى كما سحب هذا الرجل رسنه .

والشاهد فى كلمة « رجل من الصالحين » فقد أشق الأستاذ السباعى نفسه بالنص فى الهامش على أنه ابن أبى عتيق ، نقلا عما أضيف إلى متن الكامل ، فهل سمع أحد أن بن أبى عتيق كان يعد من الصالحين ، ومساعداته لعمر ابن أبى ربيعة تشهد بأنه كان من أهل الخلاعة والمجون؟ لا يطلب من السباعى فهم هذه الدقائق ، فلنرض تحقيق الشيخ المرصفى وقد نقل أن ذلك الرجل الصالح هو أبو عبيدة بن عمار بن ياسر « رغبة الأمل ج ١ ص ١٥٥ » .

٤ — فى تهذيب الكامل ج ٢ ص ٣٠٨ قال الشاعر :

فقلت له تجنب كل شىء   يعاب عليك إن الحر حر

ثم قال المبرد فى التعقيب على هذا البيت : فهذا كلام ليس فيه فضل عن معناه ، وقوله « إن الحر حر » إنما تأويله أن الحر على الأخلاق التى عهدت فى الأحرار ، ومثل ذلك « أنا أبو النجم وشعرى شعرى » أى شعرى كما بلغك وكما كنت تعهد ، وكذلك قولهم : « الناس الناس » أى الناس كما كنت تعهدهم . وتعقيب المبرد سديد ، ولكن الأستاذ السباعى ينقل فى الهامش أن من هذا قول الله عز وجل « فغشيهم من أليم ماغشيهم » بدون أن يدرك أن الأخفش الذى نقل عنه قد أخطأ الفهم فالآية ليست مما اتحد فيه المبتدأ والخبر لفظا وإنما هو موصول أسند إليه فعل وجعل مثله صلة ، للمبالغة فى التهويل « رغبة

الآمل ج ١ ص ١٥٥ ، وكان المأمول ألا تغيب هذه المسألة البسيطة عن ذهن أستاذ بدار العلوم .

٥ — فى تهذيب الكامل ج ٥ ص ٢٠٩ : تكلم المبرد عن الخيل المحبوكة الأصلاب فقال : « المحبوك الذى فيه طرائق ، يقال لطرائق الماء حبك واحدها حباك ، وبهذا سها المبرد سهوا لم يفطن له السباعى : فقد فسر الكلمة بما لا يراد منها فى تركيبها ، والصواب أن يقول : فالمحبوك الذى أحكم خلقه ، من حبكت الثوب إذا أحكمت نسجه ، يريد أن أصلاب الخيل موثقة مدمجة ثم يقول : والمحبوك أيضا الذى فيه طرائق » رغبة الآمل ج١ص ١٦١ ، وهو كتاب المرصفى المحكوم عليه بالغرور والادعاء . .

٦ — فى تهذيب الكامل ج ٢ ص ٢١٢ أنشد المبرد قول حاتم الطائى :

إن الكريم من تلفت حوله وإن اللئيم دائم الطرف أقود

وقد غير المبرد لفظ البيت وروايته بدون أن يتنبه السباعى لذلك الصواب :

فمنهم جواد قد تلفت حوله ومنهم لئيم دائم الطرف أقود

لأن حاتما يقول قبل هذا البيت :

كذاك أمور الناس راض دنية وسام إلى فرع العلا متورد

راجع (رغبة الآمل ج ١ ص ١٧٧ .

٧ - فى تهذيب الكامل ج ٢ ص ٣١٢ ورد قول الأشهب ابن رميلة :

أسود شرى لاقت أسود خفية تساقوا على حرد دماء الأساود

وقد تفضل الأستاذ السباعى فأثبت فى الهامش أن رميلة هى أم الشاعر ، ولم يتعب الأستاذ فى هذا التحقيق ، فقد نقله عما أضاف أبو الحسن إلى متن الكامل فكيف يجيب لو سأله أحد طلبة دار العلوم عن أبى هذا الشاعر وهو قد عرف أمه ، وجهل أباه ؟ .

الجواب عند الشيخ المرصفى « المغرور » فقد جاء فى رغبة الآمل ج ٤ ص ١٧٩ أن أبا هذا الشاعر هو ثور بن أبى الحارثه عبد الدار .

٨ — وفى تهذيب الكامل ج ٢ ص ٩٢ ورد قول ابن الإطنابة :

وإجشامى على المكروه نفسى وضربى هامة البطل المشيح

وسكت السباعى عن « الاطنابة » فلم نعرف أهو اسم الشاعر أم اسم أبيه، وإنما سكت السباعى لأنه لم يجد ماينقله عن أبى الحسن . فليعرف إن شاء أن الاطنابة هى أم الشاعر ، أما أبوه فهو عامر بن زيد مناة أحد أشراف الخزرج « رغبة الآمل ح ٢ ص ٢٣ » .

٩ — فى تهذيب الكامل ج ٢ ص ٣١٥ قال رجل من بنى عبس يخاطب عروة بن الورد :

لاتشتمنى يا ابن ورد فإننى تعود على مالى الحقوق العوائد
ومن يؤثر الحق النؤوب تكن به خصاصة جسم وهو طيان ماجد
وإنى امرؤ عافى أنائى شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

والسياق الذى أورده الأخفش وغفل عنه السباعى يوهم أن الأبيات الأربعة من شعر ذلك العبسى، والصواب أن العبسى لم يقل غير البيتين الأولين أما البيتان الأخيران فهما جواب عروة بن الورد ، وقد نقل الشيخ المرصفى « ج ١ ص ١٩٥ » أن عبد الملك بن مروان كان يحفظ لعروة الأبيات الأخيرة وثانيها هذا البيت :

أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى بجسمى شحوب الحق والحق جاهد

فإن ارتاب الأستاذ السباعى فى تصحيح الشيخ المرصفى فليرجع إلى ديوان الحماسة فى باب الأضياف والمديح ليرى هذه الأبيات الأخيرة منسوبة

إلى عروة بن الورد . والمفهوم أن ديوان الحماسة مما يحفظه الطلبة بمدرسة دار العلوم .. ثم أما بعد فهذا هو المنهاج الذى سنسلكه فى بيان فضل المرصفى .. المهم هو الصدق فى خدمة اللغة العربية وأنا بهذه الدراسات أخدم لغة العرب ..

وفى عدد الرسالة ٣٩٩ من مجلة الرسالة الصادرة فى ٢٤ فبراير ١٩٤١ فى الصحيفة ٢٠٣ جاء فيها ما يلى :

إلى الدكتور زكى مبارك .. خصومة أدبية ـ للأستاذ السباعى بيومى :

« معذرة ياصديقى الدكتور ، فقد حملنى ماظهر فى كلمتك السابقة من مخالفة الرفق الذى تطلبه قولا وتنبذه عملا أن أقسو عليك فى عبارة هذه الكلمة بعض القسوة ، ولدينا مزيد » .

كلمتى الثانية

ص ٢٨٨ .... وتقول إن المرصفى قضى شبابه فى خدمة الكامل ، وأننى قضيت شبابى فى خدمته كذلك ، وأنى لا أكاد أكذبك فى الأولى لأنك غير صادق فى الثانية قطعا ، فما قضيت فى تهذيب الكامل إلا ثلاث سنوات لا تستغرق شبابا ولا بعض شباب ، ثم تتظرف وتحكم بأن الفرق بين الرغبة والتهذيب كالفرق بين المرصفى والسباعى ، وإنه لحكم أعاد إلى ذاكرتى هذا البيت :

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

ثم تكذب ماقاله الطالب أيوب من أن كتاب المرصفى ظهر ١٩٣٠ وتقول إنه ظهر ١٩٢٧ فتكون سطحيا أمام طالب ، لأنك أخذت تاريخك من غلاف أول جزء فى الكتاب والطالب أخذه من غلاف آخر جزء منه ، فارجع إلى هذا الجزء رجوع الغافل الذى دل على أنه لم ير الكتاب . تجد عليه ١٩٣٠ وهو التاريخ الحق الذى لا يصبر فى مجال الاحتجاج سواه . على أنك شعرت

بتفاهة مالحظت لأن كتابى ظهر ١٩٢٣ فقلت ، وليس لهذا التاريخ أهمية ، ولكنك عدت فوقعت إذ زعمت أن شرح المرصفى يرجع إلى أكثر من أربعين سنة . وأنه كان كاملا من جميع الجوانب حتى الفهارس قبل سنة ١٩١٠ وأنك رأيته بعينى رأسك ورآه معك الشيخ الزنكلونى ، وما رأيك ياد كتور أن المرصفى نفسه يكذبك فى ذلك بعبارته المدونة فى آخر جزء من أجزاء الرغبة عن إتمامه الشرح فما بالك بالفهارس ، وهى بنصها ، وقد انتهى شرح كتاب الكامل والحمد لله ليلة ١١ رجب ١٣٤٠ من الهجره وهذه توافق ١٩٢٣[1] ، أى أن الشرح وحده دون الفهارس لم يتمه إلا سنة ١٩٢٣ لاقبل ١٩١٥ . أليست هذه العبارة تفهم بصريح العبارة أنك كذبت على عينى رأسك ، وإذا كان لنا أن نتركك حرا تكذب على نفسك أفلا نؤاخذك أن تكذب على غيرك ، ولكنك كنت لبقا إذ تخيرت هذا الغير ممن انتقلوا إلى جوار ربهم ، وأنا جد واثق أن الشيخ الزنكلونى لو أمتد به الأجل إلى حيث كتبت ما كتبت لأشهدت غيره من الأموات سامحك الله .

« أيها الناس يعجب الدكتور من أن الطالب أيوب لايستبعد على المرصفى أن يكون قد استعان فى كتابه الذى ظهر ١٩٣٠ بكتابى الذى ظهر ١٩٢٣ زاعما أن كتاب المرصفى كان كاملا من جميع نواحيه حتى الفهارس قبل ١٩١٥ بالرغم من تكذيب المرصفى له كما سبق ومؤيدا هذا الزعم بآخر حاط من قدر المرصفى إن كان حقا ، هو أن المرصفى لم يكن يطلع على شىء من مؤلفات المعاصرين فكيف اختص الأستاذ السباعى بتلك العناية ».

وفى الصحيفة ٢٩٠ من الرسالة يواصل السباعى بيومى قوله :

... والآن أقدم للجمهور شيئا من أشياء أعرفها للشيخ المرصفى برهانا واضحا على أن الذوق الأدبى كثيرا مافاته فى أبسط مظاهره ، ذلك الشىء هو

---

(١) الصحيح أنها توافق ١٩٢١ م .

أبيات جاء بها المبرد فى الهجاء الموجع فجعلها المرصفى فى شرحه من المدح البالغ ، ولو كان المبرد يعلم أن ذوقه إلى هذا الحد لأنقذه وصرح بأنها هجاء .

وهاهى الأبيات وتحتها شرح الشيخ من غير تعليق « ص ١٣٢ ج ٤ » قال أبو العباس المبرد : ومما يستحسن من شعر إسحاق - يريد ابن خلف - قوله فى الحسن بن سهل :

باب الأمير عراء مابه أحـــد ... إلا امرؤ واضع كفا على ذقن
قالت وقد أملت ما كنت آمله ... هذا الأمير ابن سهل حاتم اليمن
كفيتك الناس لاتلقى أخا طلب ... بفيء دارك يستعدى على الزمن
إن الرجاء الذى قد كنت آمله ... وضعته ورجاء الناس فى كمس
فى الله منه وجدوى كفه خلف
ليس السدى والندى فى راحة الحسن

وإلى القارئين كل ما قال الشيخ المرصفى فى شروحه بنصه وصورته ،قال: وقاه الله شر تلميذه الدكتور زكى مبارك - « فى الحسن بن سهل » بن عبد الله السرخسى وزير المأمون بعد أخيه الفضل بن سهل « باب الأمير » كأنه يريد أميرا غير الحسن « لاتلقى أخا طلب الخ » يريد إن استجديته أغناك فلا تجد غريما يطلبك . ليس السدى » يريد إلا رجاء السدى ، وهو ندى الليل «والندى» ندى النهار ، ضربهما مثلا لجوده ، وقد أخر هذا الاستثناء عن موضعه فثقل ... انتهى شرح الشيخ ، فما رأيك فيه ياد كتور إن كنت ممن وهبوا نعمة الذوق الأدبى ؟ وهل لاتزال مصرا على أن المرصفى قضى حياته يراوح المبرد ويغاديه بالنظر الثاقب والفهم العميق ؟.

أما إنى أتقول على المرصفى لأنه مات وشبع من الموت . وهذا لاينبغى فهى دعوى لو عمل بها فى الأدب ، لمات الأدب وشبع من الموت كما تقول ؟ :

« إذا كنت تلحن لى فى ذلك بأنك ، شتيم « فإننى ألحن لك بأنى بشر ابن عوانة » .

وفى العدد ٤٠١ ، مارس ١٩٤١ ص ٣٠٣ جاء فيه تحت عنوان : خصومة لاعداوة مايلى :

رأى جماعة من كبار المفتشين وهم الأساتذة جاد المولى بك ومحمد على مصطفى ومحمود محمد حمزة ومصطفى أمين وأحمد على عباس ، رأى هـؤلاء الأكابر بأخلاقهم وآدابهم أن أقف الجدال الذى أثرته فى وجه الأستاذ السباعى بيومى ، وحجتهم أنه وصل إلى درجات من العنف تؤذى كرامة المشتغلين بخدمة اللغة العربية . وأنا أجيب هذه الدعوة لأنها أول دعوة كريمة صدرت لكف الشر بينى وبين من أخاصمهم بقلمى لابقلبى ، فلم أسمع مثل هذا الصوت يوم خاصمت رجالا أعزاء لم يكن يسرنى أن يفصم القلم مابينى وبينهم من عهود ، وإنصافا لنفسى أقول : إنى كتبت وأنا أبتسم . فأنا قد أخاصم ولكن لاأعادى . فما استطاعت الدنيا بأحداثها القواتك أن تضيفنى إلى أرباب الضغائن والحقود ، وإلافاهى البواعث التى تفرض أن أخص الأستاذ السباعى بالعداء وهو صديق قديم؟ .

كان سبب الخلاف هو تبرئة الشيخ المرصفى من تهمة الغرور ، فما يكون الرجل مغرورا إلا حين يدعى مالا يملك ، والمرصفى من أقران المبرد ، وجهد المرصفى فى شرح الكامل قد يكون أعظم من جهد المبرد فى تأليف الكامل . وستعرف هذه الحقيقة يوم يقام فى هذه البلاد موازين صحيحة لأقدار المفكرين فى القديم والحديث ... أنا أديت واجبى فى صيانة سمعة الشيخ المرصفى ، فماذا صنع تلاميذ هذا الإمام الجليل وفيهم أحمد حسن الزيات ، ومحمود حسن زناتى وعلى عبد الرازق ، وطه حسين ؟ .

ولكن كيف يصنع أولئك الأساتذة فى البر بذلك الإمام الجليل . ؟

أنا أدعوهم إلى تأليف لجنة أدبية يكون عملها إنقاذ مؤلفات الشيخ المرصفى

من الضياع . وأخص بالعناية شرح المرصفي على « أمالي القالي » فقد أخذ من وقت شيخنا العظيم سبع سنين ، وهو لا يقل عظمة عن شرح الكامل ، وقد يفوقه في أشياء .

منذ نحو ثلاث وعشرين سنة وقف الخطباء والشعراء في المدرج الذي أنشأه الوزير علي مبارك باشا في ديوان المعارف بدرب الجماميز وقفوا يرثون الشيخ حمزة فتح الله ، وكان فيهم محمد الهراوي وعلي الجارم ومحمد الخضري . ثم وقف خطيب ختمت خطبته بالدمع فمن هو ذلك الخطيب ؟ هو الأستاذ الشيخ محمد المهدي بك ، أول أستاذ تلقيت عليه دروس الأدب بالجامعة المصرية ؟ فقد قال في خطبته إن جماعة من المستشرقين أرادوا أن يشتروا مخطوطات الشيخ حمزة فتح الله وأنه أجاب هذه المخطوطات ملك لوطني .

وقد بكى الشيخ المهدي فأبكاني حين فاه بهذا التصريح النبيل ، وأنا من جانبي أذكر أن الشيخ المرصفي كان يصلي العصر بالأزهر منذ نحو عشرين سنة وبجانبه رجل يترصده من جماعة الناشرين . فلما انتهى الشيخ من صلاته أقبل الناشر يقول : أرجو فضيلة الشيخ أن يبيعنا حق النشر لشرحه على الأمالي ، ومصر لا تخلو من عقوق إلا أن يتفضل أستاذنا الشيخ محمد مصطفى المراغي فيشتري هذا الشرح من الورثه قبل أن يضيع كما ضاعت مئات ألوف من آثار أصحاب الفضل بهذه البلاد ...

هذا وقد حاولت إثبات هذه المعركة الأدبية التي دارت بين زكي مبارك والسباعي بيومي حول سيد بن علي وكتابه الذي اقترن باسمه . وهو «رغبة الآمل» . وقد رأينا فيها جوانب قوة المرصفي . ومناحي اللمز فيه ، وقد كنت أوثر أن أكون مجرد عارض للآراء بدون ميل لأحدها بالترجيح والتأييد ، وترك كل رأي ليفصح عن نفسه ، عن قوته وضعفه ولكني رأيت من واجبي كباحث أن أبرز رأيي بصراحة ووضوح والوقوف إلى جانب الحق لإبرازه وجلاء صورته . وقد رأيت ما يلي :

١ — لقد برز كتاب « رغبة الآمل » عملاقا لم يستطع أن يطاوله شرح آخر على كتاب الكامل ، فلقد أفاد المرصفى بكل ما كتب حوله من شروح له سابقة ، أو تنبيهات على أغاليطه ، كما أفاد بطريقته الجديدة فى البحث والتحقيق . والتى كانت بذورها مع « أسرار الحماسة » فلما نمت واشتد عودها وبرز ثمرها كان هذا الكتاب فاستطاع بمنهجه فيه أن يفيد القارىء . وأن يأتى بشرح لا يسأم مطالعه ولا يمل قارئه . فأكمل فيه ما نقص حتى لا يحوج قارئه إلى كتب أخرى ، وقد قوم فيه ما أعوج ، وجاء به فى أدق صورة وأكمل بيان .

٢ — إذا تحدث البعض عن عجب المرصفى بنفسه ، ومخالفة للذوق فى مخاطبته للمبرد أحيانا ، ثم اغتراره بنفسه . فإن هذه الصفات تتعلق بنفسيته وسأتكلم عن ذلك فيما بعد ، بيد أن عجبه واختياله كانا بمقدار ما ملك من زمام العربية ، وترويضها للسير تحت ركابه فحين امتطى صهوتها عرته نشوة امتطاء الجياد من أمثاله ، فسار مختالا ، واختال تيها وعجبا ..

٣ — ولقد رأينا فى المعركة الأدبية ، من رمى المرصفى باختلاس فهارسه وتنظيمه ونرد على ذلك بأننا قد رأينا الفهارس والتنظيم والتبويب الدقيق يظهر فى أولى شروح المرصفى « أسرار الحماسة » فلا داعى لأن يدور حول ذلك كلام فالمرصفى قد نشأ على حب النظام وحسن التنظيم والتبويب ، وصار ذلك شأنه وديدنه فى كل ما يكتب ويقول .. ولقـــد رأينا فى ذلك السياق المغالطة التاريخية التى ذكرها السباعى بيومى حيث قال : إن « كتاب الكامل » قد ظهر فى عام ١٩٢٢ . وهذا لا شىء فيه ، ثم أضاف بأن المرصفى قد أتم شرح كتابه فى عام ١٣٤٠ ﻫ وزعم أنها توافق أواخر ١٩٢٣ ليبنى على هـذا إمكان إطلاع المرصفى على كتابه ليسرق منه فهارسه .. والحقيقة أن عام ١٣٤٠ﻫ يوافق ١٩٢١م مما يبطل أدعاء السباعى للسرقة من فهارسه ويؤكد أن المرصفى الذى نظم أسرار الحماسة وأبرز رغبة الآمل . لن يقف أمام فهارس السباعى بيومى أو غيره فهذا من أهون الأمور عنده . وذلك من أيسرها .

٤ — كذلك يلمز اللامزون لشرح المرصفي لأبيات إسحاق بن خلف والتى جاءت فى الجزء الرابع ص ١٣٢ من الرغبة وإننى أقول: لقد كان المرصفى طريقته ومناهجه فى الشرح والبيان لم يقف أمام المعنى المعجمى جامدا ، بل لقد كانت له نظرته للايضاح والبيان . فهو يستفيد من الحال المقول فيها الكلام كما يستفيد من سياق الكلام وخدمة بعضه لبعض ، كما أفاد من مجموع الكلام، مما جعله يحرص دائما فى شروحه على إيراد القصيدة بجملتها . ليتبين من كل ذلك مفهوم المعنى والمراد من الكلام .

وبعد ـ فإن لنا وقفه مـــع مؤلفات (سيد بن على) الشخصية ، ومنها مخطوطته التى كتب فيها كلمات غريبه عربية .

ومما أطلعت عليه كراسة بخط (سيد بن على المرصفى) وضع فى إطارها بخطه الرائع الجميل كلمات غريبة عربية ، ثم وضع داخل الصفحات شواهد من الشعر العربى المشتمل على هذه الكلمات منها إلى مراجع هـذه الأبيات ، وقد يكتب الكلمات فى الإطار ، ويدع مقابلها فارغا من الشواهد ، انتظارا للعثور عليه . . ومما كتبه :

الزرجون : قال أبو دهبل :

ثم ماشيتها إلى القبة الخضراء تمشى فى مرمر مسنون .

وقباب قد أسرجت وبيوت نظمت بالريحان والزرجون

الجفن : قال النمر التولبي (من مجموعة الثعالبى) :

ألم بصحبتى وهم هجود خيال طارق من أم حصن

ألم ترها تريك غداة بانت بملء العين من كرم وحسن

سقية بين أنهار ودور وزرع نابت وكروم جفن

لها ماتشتهى عسل مصفى إذا شاءت وحوارى بسمن[1]

---

(١) راجع الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة . محمد كامل الفقى ١٩٦٥م .

وقد يذكر البيت من الشعر فى كراسته . لأنه أصح الروايات ، ويذكر مصدره ، ومكانه فى هذا المصدر ، فمن ذلك ما أطلعت عليه فى الصحيفة السابعة من كراسته هذه : وقال متمم :

اقد كفنى المنهال تحت ردائه   فتى غير مبطان العشيات أروعا

ينظر جزء ٢ الكامل نمرة ٢٩٦ .

ولا برم تهدى النساء لعرسه   إذا القشع من برد الشتاء تقعقعا

ينظر جزء ١٣ أغانى نمرة ١٢٢ .

فإذا جاءت رواية أخرى غير هذه ردها المرصفى إلى الصواب .

وإذا رأى إثبات بعض التعريف بالقائل ذكره فى كراسته ليكون فى حوزته إذا احتاج إليه فى الشرح والتحليل ، ومن ذلك قوله فى كراسته :

الأميل : جمعه ميل قال عمرو بن الاطنابه ، والاطنابه أمه ، وهى من بنى كنانة ابن القيس بن جسر بن قضاعه ، واسم أبيه زيد مناة ، ويذكر الأبيات إلى أن يصل إلى البيت موضع الشاهد :

ليسوا بأنكاس ولا ميل إذا   ما الحرب شبت اشعلوا بالشاعل[1]

و(سيد بن على) لا يرضى بالشاهد إلا إذا كان من قول العرب فى العصر الجاهلى أو صدر الإسلام فقول المولدين لا يعتمده ، مادام قد وجد قول الأولين ، فإذا وجد من قول الأولين أستأنس به حتى يجد مايستشهد به ، نستشعر هذه الروح حين يأتى بشاهد فى كراسته على الرعديد فيقول .

الرعديد قال جرير من كلمة يمدح بها عبد العزيز بن الوليد :

وللترك من عبد العزيز وقيعة   والروم يوم يوم ماتتم حوامله

---

(١) انظر صورة ماجاء بكراسه المرصفى بالملحق برسالة الماجستير للمؤلف.

فما وجدوا عبد العزيز مغمرا ولا ذا سقاط عند أمر يحاوله
ولا جافيا عن قائم السيف قبضه إذا الفشل الرعد يدقفت أنامله

ثم يقول : وقد يدخلون فيه الهاء المبالغة وقد تقدم وأزيدك قول أبي محجن الثقفي :

لا تسألى الناس عن مالى وكثرته
وسائلى الناس عن حزمى وعن خلقى
قد يعلم الناس أنى من سراتهم إذا تطيش يد الرعديدة الفرق

وكأن ما قاله جرير(١) ، وكـــذا ماقاله أبو محجن الثقفى ، لم يبلغا درجة الاستشهاد الأدبى ،ولهذا فقد رأيناه ، يجر عليهما خطا بقلمه ، ويثبت فى الهامش شاهدا آخر فيقول :

قال الحصين بن حمام المرى :

إذا الموت كان شجى فى الحلوق وبادرت النفس أشغالها
صبرت ولم أك رعـــديدة وللصبر فى الروع أنجى لها(٢)

وهذا يتمشى مع منهج المرصفى فى تقديمه للنص الجاهلى على الإسلامى .

و (المرصفى) فى جمعه للكلمات الغريبة وشواهدها فى كراسته الشخصية ، إنما كان يهدف إلى أن تكون لديه مجموعة من مفردات اللغة العربية التى اندثرت ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن (سيد بن على) قد اشترك فى مجمع إدريس راغب باشا الذى أعلن فى لائحته التأسيسية : « إحياء ما اندثر من مفردات اللغة العربية ،

---

(١) جرير وأبو محجن من شعراء صدر الإسلام، وحصين بن الحمام المرى من شعراء العصر الجاهلى ـ الطبقة السابعة ـ والمرصفى هنا قدم الشاعر الجاهلى على الشاعر الإسلامى .

(٢) انظر صورة مما جاء بكراسته فى ملحق الرسالة .

وجمع المواد اللازمة لوضع معجم شامل (ولا شك أن هذه المفردات وشواهدها ، كانت أحد بحوث الشيخ بالمجمع إلى جانب ذلك فدروسه على الكامل فى حاجة إلى أمثال ذلك ، وقد رأيناه ينبه على هذه المفردات فى مواضعها ، وسنرى ذلك فى الباب الثانى إن شاء الله .

وبعد أن طالعنا شيئا من كراسة المرصفى الشخصية ، فقد آن لنا أن نعرج على تهميشاته التى كتبها بخطه على أطار بعض كتبه وسنجده فى هذه التهميشات يوضح كثيرا من مفردات اللغة ، وتصريفاتها ، ومن ذلك تهميشات كتاب (الوسيلة الأدبية) للشيخ حسين المرصفى رقم ١٥٧٢٢ بمكتبه المرصفى بجامعة الأسكندريه فقد كتب (سيد بن على) بخطه على هامش الصحيفة ٥٤ موضحا بعض الكلمات الواردة فى قصيدة : (عبد العزيز بن نباته) فقال : النكب محركا : الميل فى الشىء فلعل المعنى ذو نكب أى ميل ، ويعتمد قول أبى عبيدة لتوضيح معنى الوأد والوئيد فيقول : قال أبو عبيده : الوأد والوئيد : الصوت الشديد .

كما يوضح الفرق بين لبدة ولبد فيقول (سيد بن على) : اللبده أخص منه . ومنه قيل لزبرة الأسد : لبدة ، وهو الشعر المتراكب بين كتفيه ، وفى المثل : هو أمنع من لبدة الأسد ، والجمع لبد مثل قربة وقرب صحاح .

كما يوضح (سيد بن على) فى الصحيفه ٥٤٦ من الوسيلة بعض الكلمات فيقول : الرمل ، مدينة بالشام ، والغوطه بالضم موضع بالشام كثير الماء والشجر ، كما يعرف مقدار البريد فيقول : البريد : اثنا عشر ميلا ، ويعرف المالح من النبات والحلو منها فيقول : ما ملح من النبات كالرمث والطرفاء والرغل ، والشبه من النبات ما كان حلوا ، ويقول مستطردا : تقول العرب : الخلة خبز الإبل ، والحمض فاكهتها ، ويوضح معنى النوار من الظباء فيقول : (سيد بن على) النفور ، ومنه سميت المرأة ، والجمع نور مثل قذال وقذل ، بيد أنهم كرهوا الضمة على الواو ، يقال : نسوة نور ، أى نفر من الريبة .

فإذا طالعنا بمكتبة المرصفى القاموس ، نذكر مااستطعنا قراءته بالصحيفة الثالثة الجزء الأول : قال صاحب القاموس : من الخلف والسلف ، فكتب المرصفى من السلف والخلف ، وكأنه يرى أن الدقة فى التعبير تقتضى تقديم السلف لشرفهم وتقدم زمنهم ، وفى الصحيفه الثانية ذكر صاحب القاموس عبارة قدم فيها النجوم على البدور ، فكتب المرصفى: البدور أولا لشرفها وعلو منزلتها .

وفى الصحيفة الثانية والخمسين من الجزء الثانى من القاموس ، وضح المرصفى أسماء الذين اشتركوا فى لقب (سنقر) فيقول: سنقرى تسلطن بدمشق وعبد الله بن فتوح بن سنقر : محدث ، وأبو عبد الله محمد بن طيبة السنقرى الصوفى ، مولى الأمير على بن سنقر .. وسنقر الزينى ..

والمرصفى يرجع إلى أهل العلم إذا عرضت مسألة تتصل بهم ، وأينا ذلك حينما تعرض صاحب القاموس لبيان المغناطيس فى الصحيفة ٢٣٢ ج ٢ ، فقال المرصفى : الذى علمناه من أهله أنه ليس حجرا ، وإنما هو حديد خاص معدنى ، إلا أنه يدعى بحجر المغناطيس على ألسنة العامة .

وهو فى إيضاحات هذه التهميشات كثيرا مايسند رأيه بما جاء باللسان أو الصحاح وغيرهما من المعاجم .

وإذا انتقلنا لمطالعة كتاب الأغانى بمكتبة المرصفى نجد فى بدايته فهارس وضعها بخطه ، تشير إلى أرقام صفحات بداخله ، وشواهد جاءت فى هذه الصفحات ، وما طالعناه فى بداية الجزء الخامس من نسخته رقم ١٥٨١٧ [ــ بمكتبة جامعة الاسكندرية :

ص

٩٤ ألا قاتل الله الحمامة غدوة .. من قصيدة تائية لأعرابى .

١١٥ انتقاد رواية :

ولم أدر من ألقى عليه رداءه سوى أنه قد حط عن ماجد محض

١١٦ الشيب إن يطهر فإن وراءة .

١١٧ بكر العاذلون فى وضح الصبح

الأبيات لعدى بن زيد

١٦٩ خليلى عوجا أنها حاجة لنا

على قبر همام سفته الرواعد

فى أبيات لهمام بن نضلة .

كذلك وجدنا بعض هذه الفهارس على أجزاء الأغانى الأخرى مما يدل على أن المرصفى اعتمد الأغانى مرجعا لخدمة الكامل فى دروسه بالجامع الأزهر ، فقد ورد بخطه فى بداية الأغانى أنه كان يقارن بين جاء فيها فقد طالعنا على الأغانى خطه :

وقال متمم :

لقد كفن المنهال تحت ردائه

فتى غير مبطان العشيات أروعا

ولا برم تبدى النساء لعرسه

إذا القشع من برد الشتاء تقعقعا

(١) ينظر جزء ٢ من الكامل ٢٩٦

(٢) ينظر جزء ١٣ من أغانى ١٣٢

كما طالعنا فى مقدمة الحماسة الصغرى « الوحشيات » لأبى تمام صفحتين كتبهما المرصفي بخطه قبل بداية الحماسة، وقد أتي فيهما بمجموعة من الأبيات

الشعرية ذات المعنى المشترك ، مشيرا إلى أول من أخذ المعنى ، أو المناسبة التى قيلت فيها الأبيات[١] .

و « سيد بن على » له كثير من التعليقات على الكثير من كتبه ، لتكون مثار مناقشاته فى دروسه ، وهـــو فى مؤلفاته ودروسه وشروحه وتعليقاته وتهميشاته كان ينحو نحو منهج واضح اختطه لنفسه منذ بدأ فى دروسه بشرح الحماسة لأبى تمام ، فما خطوط هذا المنهج ؟ وما معالم سيره فيه ؟

(١) انظر مخطوطة المرصفى « الوحشيات » رقم ٩٣٦ بمكتبة جامعة الاسكندرية .

الباب الثانى

منهج الشيخ سيد بن على المرصفى

فى دراسة النص الأدبى ونقده

١ ـ الفصل الأول : مدخل إلى المنهج .

٢ ـ الفصل الثانى : التقديم للنص .

٣ ـ الفصل الثالث : دراسة النص الأدبى لإيضاح مبناه ومعناه .

٤ ـ الفصل الرابع : القصيدة العربية والمرصفى .

٥ ـ الفصل الخامس : التذوق الأدبى .

٦ الفصل السادس : نقد وتصويب .

الفصل الأول

مدخل إلى

منهج سيد بن على المرصفى

فى

دراسة النص الأدبى ونقده

١ — المرصفى يرسى دعائم منهجه — آراؤه — منهجه التطبيق »

٢ — تلامذة المرصفى يتحدثون عن منهجه .

٣ — مؤرخو الأدب العربى ومنهج المرصفى .

٤ — دعائم المنهج .

دراسة النص الأدبى ونقده :

يقول مؤلف حديث :

إن عماد دراسة الأدب ونقده إنما هو الذوق والمعرفة معا ، أو إن شئت فقل الذوق المستنير الذى يستمد من ثقافته العامة ملهما روحيا يعينه على أن يستمتع بجمال الفن ويتعمق أسراره ، ثم يستمد من معارفه الواسعة وذهنه المنظم ميزانا يزن به ما يقول إذا نصب نفسه للنقد والتحليل ، ويكفى لإدراك صدق هذا أن يتتبع الباحث سير أعلام التأليف الأدبى العربى فى عصوره الكلاسيكية ، من أمثال (ابن سلام) و (ابن قتيبة) و (الجاحظ) و (المبرد) و (الصولى) و (أبى الفرج) و (القاضى الجرجانى)

و (أبي هلال العسكرى) و (عبد القاهر الجرجانى) فقد كان كل منهم موسوعة فى الأدب والدراسات المتصلة به ، والثقافات التى تغذيه[1]) .

و (سيد بن على المرصفى) كان له من الذوق الأدبى ، ومن ثقافته الأدبية ، ما جعله يتصدى لدراسة النص الأدبى ونقده بالجامع الأزهر .

وقد حدد منهجه فى مقدمة (أسرار الحماسة) حين وضح أنه سيتناوله بالشرح والتحليل ، تناولا جديدا . يفيد منه الأدب وينتفع الطالب .

لقد رأى أن ديوان الحماسة لأبى تمام ، قد عبثت بجمعه أيدى الرواة ، فوضعوه على غير وضعه . فمنهم من ابتدأه بشعر قيس بن الخطيم الأنصارى ، ومنهم من افتتحه بشعر قريط بن أنيف العنبرى ، على أنهم كثيرا ما يفرقون بين أشعار القبائل ، ويذكرون الآواخر أثناء أشعار الأوائل ، وربما فرقوا بين كلمتين قيلتا فى حادثة واحدة لشاعر ، وباعدوا بين أنساب العمائر ، وأحساب العشائر .

لهذا فقد صرف (سيد بن على) عنايته إلى تنظيم الحماسة . وترتيبها وجعل القسم الأول منها - الموضوعات الأدبية - ذا عناوين مختلفة تتصل بمعنى الحماسة وذكر تحت كل عنوان ما يناسبه من الأشعار التى اختارها أبو تمام مقدما الشاعر الجاهلى على الإسلامى ، والأموى على العباسى ، ومحافظا على الأحداث ذات الصلة المتشابكة ، متخذا فى ذلك سبيل المؤرخين للأدب العربى الحديث .

كذلك ينبه (المرصفى) فى مقدمته (لأسرار الحماسة) أنه التزم فى دراسته للنص بإيراد القصيدة متى عثر عليها بتمامها ، وبترتيبها فى ديوانها ، فإذا قدم أبو تمام بعض أبيات القصيدة ، أو أخر بعضها ، أو حذف منها شيئا ، أو زاد عليها . نبه على ما صنعت يدا أبى تمام .

---

(١) ص ١٧٥ من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده . محمد خلف الله أحمد : طبعة ثانية ١٩٧٠ م .

ولم يكن (سيد بن علي) في شرحه لهذا الديوان ، وبيان مغازيه . وتبويبه لم يكن (متبعا لقوم مدوا أيديهم على ذلك الديوان بالكتابة ، وظنوا أنهم فوتوا سهام الصواب وقد أخطأوا غرض الإصابة ، فكثيرا ما يخلطون في أوضاع اللغة ولا يتنبهون ، ويخطئون في بيان ما يقصده أرباب الشعر وما يشعرون . ملئوا كتبهم بصناعة الأعراب والبناء ، وتحقيق ما نحاه ابن خروف أو انتحاه الفراء) .

والمرصفي في دراسته للنص الأدبي ، يحقق الرواية الصحيحة للنص ، معتمدا على صدق الرواية ومطابقتها للأصل المأخوذة عنه وموافقتها للمقام المقولة فيه ، كما يحقق المعنى المقصود معتمدا في نقل اللغة على ثقة الدراية ، ناظرا لوضع الكلمة مع صاحبتها في التراكيب ، وحملها على ما يناسب من المعاني بشهادة الأساليب[١] .

كما تحدث (سيد بن علي المرصفي) عن دعائم منهجه في مقدمته لكتابه (رغبة الآمل من كتاب الكامل) فذكر أن أبا العباس كثيرا ما كان يعتمد في لفظه على جودة حفظه ، فربما نزع في غير قوسه ، فزاغ عن القصد سهمه ، أو صعد في الأدب مرقى زلت به إلى الحضيض قدمه ، ولذلك اهتم بما حاد فيه أبو العباس عن سنن الصواب من خطأ في الرواية ، أو خطل في الدراية .

كما جعل من معالم منهجه مع أبي العباس ، أنه إذا ذكر شاهدا من شعر العرب ، أورد القصيدة بتمامها ، مع ضبط كلماتها ، وبيان مبهماتها .

وقد أوضح المرصفي في إعلانه عن كتابه بعض هذه المعالم فقال : (أنه شرح يمتع الناظر ، ويريح الخاطر ، أبان فيه غامض كلماته ، وأوضح ما خفي من مبهماته ، وحل مشكلاته ، وتمم شواهده بذكر قصائدها ، وبيان كلماتها ، ونسب الأبيات إلى قائليها ، مع ترجمة كل شاعر جاهلي أو إسلامي مبينا ما سها فيه أبو العباس من الأوضاع اللغوية ، والوقائع التاريخية) .

---

(١) راجع مقدمة أسرار الحماسة للمرصفي .

وإذا كنا قد وقفنا على بعض معالم (سيد بن على) التى وضحها فى مقدمتيه على (أسرار الحماسة) و (رغبة الآمل من كتاب الكامل) ، فإن لنا وقفه تطبيقية مع دروسه وشروحه . كى يتحقق لنا بذلك معرفة معالم منهجه من وجهتيه النظرية والتطبيقية :

ووقفة مع أحد نصوص (أسرار الحماسة) و (رغبة الآمل) نبصر من خلالها كيف طبق المرصفى معالم منهجه فى دراستها ونقدها ، وما الخطوات التى بدأ بها ، وماذا تلاها من خطا ، وبماذا انتهى ، وهل كان سيره متوافقا مع التدرج الفكرى والطبيعى فى الإنسان لقد جاء فى أسرار الحماسة هذا النص

قال خفاف بن ندبة :

أعبــاس إن الذى بيننا ... أبى أن يجــاوزه أربع

علائق من حسب داخل ... مع الإل والنسب الأرفع

وأن ثنية رأس الهجا ... ء بينى وبينك لا تطلع

وأبغض إلى بإتيانهــا ... إذا أنا لم آتها أدفع

فبدأ « المرصفى » فعرفنا بقائله ونسبه ومناسبة شعره فقال : (خفاف ابن عمرو بن الحارث بن الشريد ، أحد بنى سليم « بضم السين » ابن منصور (ندبة) إسم أمه ، ابنة أبان بن شيطان ، كانت أمه سوداء ، لحق سوادها خفافا ، وهو أحد أغربة العرب فى الجاهلية ، وكان شاعراً فارساً ، آمن بسيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وشهد معه يوم الفتح وحنينا والطائف وقد كانت بينه وبين العباس بن مرداس ، السلمى مهاجاة أدت إلى القتال حتى جرى بينهما مالك بن عوف النضرى ، ودريد ابن الصمة فى وجوه هوازن ، ثم بعث إليه خفاف هذه الأبيات ينصحه أن يحفظ ما تعاقدا عليه ، وأن يكف كل واحد منهما عن صاحبه[1]) .

---

(١) ص ٥ أسرار الحماسة : سيد المرصفى . مطبعة أبى الهول ١٣٣٠ هـ ١٩١٢ م .

ثم ثنى المرصفى ببيان معانى المفردات ، والمقصود من الأبيات ومن خلال ذلك ترى تذوقه للأدب فقال موضحاً ذلك : (يريد أن المعنى الذى يجمع بيننا لا يتجاوز أربع خصال ، أولها ما ذكر فى البيت الثانى : علائق من حسب داخل) العلائق : واحدتها : العلاقة ، وهى ما علقت به مثل الأوتاد والسوط والسيف ، والحسب : ما يعد بين أحياء العرب من مآثر الرجل ومآثر أبيه ، (وداخل) وصف أراد به أن الحسب مختص بها ، وليته وصفه بغير هذا : وثانيهما (الإل) وهو القرابة ، يريد قرابة الرحم ، وذلك أن العباس أمه الخنساء ، بنت عمرو ، أخى الحارث بن الشريد ، جد خفاف ، وثالثها : النسب الأرفع ، يريد النسب من جهة الآباء . وهما ينتميان إلى بهثه بن سليم ابن منصور ، ورابعها (أن ثنيه رأس الهجاء) يريد رأس ثنية الهجاء فقلب الإضافة ، والثنية هنا الجبل لا الطريقة فيه ، استعارها للهجاء الذى يصعب على غيرهما سلوكه (بينى وبينك لا تطلع) أى لا يصعد إليها واحد منا ، (وأبغض إلى بإتيانها) يعجب من بغض إتيان هذه الثنية . يريد أنه يكره قول الهجاء كراهة يتعجب منها (إذا أنا لم آتها أدفع) بيان لشدة بغضه لها ، يقول إذا لم آتها طوعا أجد دافعا يدفعنى عن إتيانها ، وهو ما بيننا من وثاقة عقد الصلح .

فقد وضح (المرصفى) معانى العبارات فى الأبيات ، والمقصود منها ، ومن خلال شرحه وتحليله رأينا وقفاته التذوقية ، ومن عباراته التذوقيه وجدنا : (وليته وصفه بغير هذا — فقلب الإضافة — استعارها للهجاء .)

وإذا انتقلنا إلى (رغبة الأمل من كتاب الكامل) نجد (سيد بن على) يتتبع ما جاء فى (الكامل) بالدراسة والتحليل والنقد والموازنة يقول : (قال رسول الله للأنصار ، هذه رواية أبى العباس ، وقد رواه محمد بن سلام ، عن يونس بن حبيب قال : ما جاءنا من روائع الكلام مثل ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر الأنصار فقال : والله ما علمتكم إلا لتقلون

عند الطمع وتكثرون عند الفزع ، وقد رواه الزمخشرى فى كتابه (الفائق)
قال : كان إذا أشرف على بنى عبد الأشهل قال : والله ما علمت أنكم لتكثرون
عند الفزع وتقلون عند الطمع .

وبنو عبد الأشهل من ولد عمرو بن مالك بن الأوس ، وهم من الأنصار ،
يريد والله ما علمت مثلكم أو مثل سيرتكم ، فحذف المفعول ، يمدحهم بفضل
الشجاعة وعفاف الأنفس عن طيب المغنم[1]) .

ويسير المرصفى مع أبى العباس حين يقول : الفزع فى كلام العرب على
وجهين : أحدهما الذعر ، والآخر الاستنجاد والاستصراخ ، فيرد المرصفى :
كأن أبا العباس لم يعتمد بقوله الآتى : ويشتق من هذا المعنى ، فلم يجعله وجها
ثالثا ، وعبارة اللغة : العرب تجعل الفزع فرقا ، وتجعله إغاثة للمفزع المروع
وتجعله استغاثة : ثم يوضح المرصفى ما بين الثلاثة من فروق فيقول : واعلم
أن الفزع بالمعنى الأول يتعدى بمن ، تقول فزعت منه ، وبالمعنى الثانى يتعدى
بإلى ذ تقول فزعت إلى القوم ، وبالمعنى الثالث يتعدى بنفسه تقول : فزع
القوم أغاثهم .

فاذا واصل المبرد حديثه فقال : قال جرير يهجـو عرين بن يربوع ،
رأينا المرصفى يحدثنا عن جرير فيقول : هو جرير بن عطيه بن الخطفى ، أحد
بنى يربوع بن حنظلة . كما يحدثنا عن عرين ، ومناسبة النص فيقول : (يهجو
عرين) يريد هذا الحى من تميم ، وحديث ذلك أن جريرا هجا بنى سليط ،
واسمه كعب بن الحارث بن يربوع ، فلقى ابن أختهم فضالة ، أحد بنى عرين
جريرا فتوعده ، قال له : أتشتم أخوالى ، أما والله لأقتلنك ، فقال جرير كلمة
رواها أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدى فيما جمعه من النقائض وهاهيه .
وأتى المرصفى بالقصيدة مكتملة ، شارحا لأبياتها ، موضحا مبهماتها . .

---

(١) ص ٨ جـ ١ . رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى مطبعة
النهضة ١٩٢٧ م .

وحينما رأى (سيد بن على) أبا العباس يستدل على المعنى الآخر للمفزع وهو الاستنجاد والاستصراخ يقول سلامة بن جندل :

كنا إذا أتانا صارخ فزع كان الصراخ له قرع الظنابيب

قال المرصفى : وبيت سلامة من كلمة له وصف فيها الخيل ، وكان أحد نعاتها وها هى برواية المفضل الضبى ، وأورد القصيدة مشكولة ، ثم قام بشرح غريبها وإيضاح مبهماتها .

وإذا استدل أبو العباس بقول الشاعر الكلحبة اليربوعى :

فقلت لكأس ألجميها فإنما حللت الكثيب من زرود لأفزعا

وأقحم المبرد بين اسم الشاعر وشعره بحاشية[1] باعدت بين طرفى الكلام فقال المرصفى : هذه حاشية وضعت أثناء الكلام فباعدت بين طرفيه ، ثم بين مناسبة هذا الشعر ثم قال : وها هى برواية الثقة أبى زيد ، وبعد رواية الأبيات السبعة ، قال المرصفى : هكذا روى أبو زيد ، ولو راعى ترتيب معانى الشعر ، لقدم بيت :

(ونادى منادى الحى . . بعد المطلع ، وعندما انتهى إلى البيت : فأدرك إبقاء العوادة كلمها . قال المرصفى : قال أبو زيد : رواية الأصمعى ، فأدرك إبقاء العرادة ظلعها ، وهى أحب إلى[2] .

ونستطيع أن ندرك من دراسة المرصفى ؛ لهذه النصوص ، بعض خطوط منهجه التى اختطها لنفسه ، واتبع سبيلها .

لقد اهتم بتوثيق نصه ، وأخذه من مصادر موثقة ، وذكر المناسبات ، وعرفنا بأصحاب النصوص . وأتى بالقصائد مشكولة شارحا لها موضحا معانيها وعنى بترتيب أبيات القصيدة واختيار ألفاظها .

والمرصفى كان فى دراسته للنصوص يتناولها فى حرية وحسن دراية ، مهتما بما حاد فيه أبو العباس من خطأ فى الرواية وخطل فى الدراية .

---

(١) و(٢) ص ٩ ، ٣٨ ج ١ : رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

وبعد أن وقفنا على بعض الخطوط التى وضحت من خلال دراسة « سيد ابن على » للنص الأدبى . يمكننا أن نعرج على بعض إشارات تلامذته النجباء سعيا وراء ما غاب عنا من خيوط يكتمل بها نسيج منهجه فى دراسته للنص الأدبى ونقده .

لقد تحدث تلامذة « سيد بن على » عن منهج أستاذهم فى دراسة النص الأدبى ونقده وكان من أهم الخطوط التى برزت أمامهم ما يلى :

(١) قراءة النص الأدبى وتذوقه ومحاكاته :

وتلك مراحل يمر بها الفكر والوجدان لتصنع الأديب . وقد كانت هذه المراحل فى رأى طه حسين تثرى الفكر بأساليب العرب الفصحاء ، وتثرى الوجدان من نبع العواطف الدافقة بالشعور ، الجياشة بالأحاسيس ولهذا اعترف لأستاذه « المرصفى » بالفضل فقال : « إنى مدين بحياتى العقلية كلها لهذين الأستاذين العظيمين : سيد بن على المرصفى الذى كنت أسمع دروسه وجه النهار ، و « كارلو نالينو » الذى كنت أسمع دروسه آخر النهار ..

أحدهما علمنى كيف أقرأ النص العربى القديم وكيف أفهمه ، وكيف أتمثله فى نفسى وكيف أحاول محاكاته ..[1] » .

لقد كان المرصفى يقرأ الشعر فتحس بنغمات موسيقية تنساب إلى القلب والفكر فتعيش معه فى أحداثه وأخباره « وكان حسن التقسيم للشعر حين يقرؤه فيقف حين ينبغى الوقوف ويمضى حيث تتصل المعانى ، فاذا سمعت الشعر وهو يقرؤه فهمته على ما فيه من غموض أو تقديم أو تأخير أو اعتراض فكأنه يمثله لك تمثيلا لا تحتاج بعده إلى شرح أو توقيف وكان فى صوت

---

(١) ص ١١ مقدمة طه حسين لتاريخ الآداب العربية (نالينو) ١٩٥٤ م .

الشيخ معنى عجيب من الثقة و الاقتدار ، وفى نبراته حين ينشد الشعر معنى الفهم للذى يتلوه عليك ، فلا تكاد تخطىء المعانى التى ينطوى عليها لأنها عندئذ ممثلة لك فى صوته[١] .

(ب) وبعد قراءة النص تأتى الخطوة التالية للمرصفى وهى تفسيره وتحليله فكان فى تفسيره ينحو نحو القدماء فى تفسيرهم من علماء البصرة والكوفة . أشبه باسلافه ، أبى عمرو بن العلاء ، ويونس بن حبيب ، فقد أحبا أدب العصر الجاهلى ، ونشأ د سيد بن على ، على هذا الحب و كان يميل إلى الغريب من اللغة ، وينصرف عن النحو والصرف والتقسيمات البلاغية، ويوضح تلميذه النجيب طه حسين هذا الخط من خطوط منهجه فيقول : (فى درس الأدب بمصر مذهبان أحدهما مذهب القدماء الذى كان يمثله الأستاذ الشيخ سيد المرصفى حين كان يفسر لتلاميذه فى الأزهر ديوان الحماسة لأبى تمام ، أو كتاب الكامل للمبرد أو كتاب الأمالى لأبى على القالى ، ينحو فى هذا التفسير مذهب اللغويين والنقاد من قدماء المسلمين فى البصرة والكوفة وبغداد ، مع ميل شديد إلى النقد والغريب ، وانصراف شديد عن النحو والصرف، وما ألف الأزهريون من علوم البلاغة . .[٢]) .

(ج) ملكة التذوق الأدبى : وقد غذاها المرصفى على مائدة الأدب العربى فى عصوره الأولى فى الجاهلية ، وصدر الإسلام ، ولهذا فقد فضل الأدب الجاهلى وأدب صدر الإسلام ، وآثر البدوى الجزل على الحضرى السهل ، ورأى أن المولدين قوم تكلفوا البديع ، وأقحموا على الأدب الفلسفة والمنطق ، فبعدوا عن التعبير الوجدانى الصادق ، وطه

---

(١) العدد ٦٩٦ الرسالة محمود شاكر .

(٢) ص ٧ فى الأدب الجاهلى — طه حسين — دار المعارف ١٩٥٢ م .

حسين يوضح لنا ذلك فيقول : « ذوقه ، إيثار للبدوى الجزل على الحضرى السهل ، وكلف بمناحى الاعراب فى فنـــون القول ، ونبو عن تكلف المولدين لأنواع البديع ، وانتحالهم لألوان الفلسفة والمنطق ، وبغض شديد لحكم الضرورة فى الشعر ، وللفظ السهل المهلهل يقع بين الألفاظ الجزلة الفخمة[1] » .

(د) التصويب والنقد : كان هذا إلى جانب ماتقدم من الخطوط البارزة لتلامذة « سيد بن على المرصفى » فقد اعتنى بنقد شراح الحماسة ، كما انتقد أبا تمام والمبرد إذا أوردا رواية خاطئة ، أو قالا رأيا بدون تثبت ، وبعض شراح الحماسة قد أكثر من مسائل الاعراب والنحو والصرف حتى تاهت المعانى الأدبية فى شروحهم ، وطه حسين يحدثنا عن هذا فيقول : « وكان يعنى بنقد غيره من الشراح ولا سيما الخطيب التبريزى ، والخطيب التبريزى ينقل أكثر شروحه : عن أبى العلاء ، لأنه تلميذه ، وأبو العلاء كلف بالنحو والصرف والعروض ، فكثرت فى كتاب الخطيب مسائل الاعراب والتصريف وما يشبهها[2] » .

(هـ) الحرية فى دراسة النص الأدبى ونقده : كان من الخطوط البارزة التى وضحها « طه حسين : « نقد حر للشاعر أولا ، والراوى ثانيا ، وللشرح بعد ذلك ، وللغويين على اختلافهم بعد أولئك وهؤلاء »[3] .

وقد غرس الأستاذ فى تلاميذه هذا الأساس ، فشبت نفوسهم على الحرية وأحبوا أستاذهم لما تميز به من صفات ، وما أضفاه على درس الأدب من حرية طالما هفت نفوسهم إليها . .

---

(١) ص ٥ مقدمه ذكرى أبى العلاء . طه حسين ، ١٩٦٨ م .

(٢) مقدمة ذكرى أبى العلاء . طه حسين . ١٩٦٨م .

(٣) ص ١٦٣ جـ ٢ . الأيام . طه حسين ، دار المعارف ١٩٥٢ م .

وإذا كنا قد وقفنا على بعض أقوال تلامذة المرصفى النجباء ، وخطوط منهجه البارزة لهم ، فما أحرانا أن ننظر سريعا إلى بعض أقوال المؤرخين للأدب العربى فى مصر والجامع الأزهر ، إننا إذا استمعنا إلى أقوال هؤلاء المؤرخين ، لوجدنا أنهم يرجعون أكثر ما يكتبون إلى مارجعنا إليه من قبل من كلام المرصفى فى مقدماته ، أو أحاديث تلامذته عنه(١) .

ومن المؤرخين للأدب فى مصر والأزهر ، محمد كامل الفقى ، تحدث عن منهج المرصفى ، فبين أنه يتم القصائد الناقصة ، ويشرح الألفاظ الغريبة ، وينسب الشعر لقائله ، ويراجع من أخطأ فى النسبة ، ويترجم لصاحب الشعر ، وللخطيب وللكاتب ، ويهتم بتصحيح الرواية ، وتصويب أخطاء الشراح السابقين كما يهتم بدراسة الغريب من القول ، ويتقصى عن وجوه استعمال الكلمة الواحدة كذلك يتعقب أبا العباس إذا أخطأ فى رواية النصوص والآثار أو أخطأ فى نقل اللغة ، أو فى بيان معانى العبارات ، أو فى الأحكام النحوية ، أو شرح الغريب من الألفاظ . أو تفسير معانيها(٢) .

وبعد — عرض موجز يهدف إلى بيان الخطوط الرئيسة لمنهج « سيد بن على » فى دراسة النص الأدبى ونقده ، ويتبين من خلالها معالم توضح طريق سيرنا ، ونطمئن بها إلى صواب مسيرتنا مع منهج « سيد بن على فى دراسة النص الأدبى ونقده » فإذا عرفنا هذه الخطوط والمعالم استطعنا بعد ذلك أن نقف عند كل خط وقفة تفصيلية ، توضحه ، وتبين أبعاده وأهدافه وتكشف جوانبه ونواحيه . ونستطيع الآن أن نضع أمامنا هذه الخطوط . ونبرز تلك المعالم وهى كما يلى :

---

(١) راجع ص ٢٦٤ . تراث النقد الأدبى . عبد الحى دياب . ١٩٦٨م . ص ٢٩ ونشأة النقد الادبى . عز الدين الامين ١٩٧٠م

(٢) راجع ص ٤٠٠ وما بعدها الازهر وأثره فى النهضة الادبية الحديثة محمد كامل الفقى — ١٩٦٥م

الترجمة لأصحاب النصوص والآثار ، وإيضاح المناسبات التى صاحبت أقوالهم ، والاهتمام بها بعد قراءة النص كمدخل لابد منه لدراسة النص الأدبى ونقده ، وللعيش فى ظل جوه ومناخه ، ثم دراسة النص لإيضاح مبناه ومعناه بدراسة ألفاظه نحوا وصرفا وما يعطيه من معانى ، ويتوقف على هذا إكمال النصوص والآثار ، فإن النص العربى يوحى بمعانيه وأهدافه ، والمعنى العام خادم لمعانى الجمل والعبارات فيه . وهذا يتوقف بدوره على مقدار تذوق المرصفى للأدب ، فقد يؤثر معنى على آخر أو يفضل عبارة على أخرى ، ومرجع ذلك إلى ذوق المرصفى الأدبى واللغوى ، فقد استطاع بذوقه الأدبى واللغوى مع ما حصله من معارف وثقافة ، أن يكون من منهجه تصويب وتخطئة للنصوص والآثار ، لرواتها أو لقائليها أو للشارحين لها ، وقد قام منهجه على أساس من الحرية التى كانت منطلقا « لسيد بن على » لدراسة الأدب ونقده على نحو جديد فى الجامع الأزهر — تأثر به تلامذته — فتكون لهم فكر جديد ، ووجدانات شابة ثائرة .

وسأفرد كل خط من هذه الخطوط بفصل خاص به « فنتبع فيه درسه للنصوص . وآراءه حولها ونقف معه بعض الوقت . نستلهم فكره وأهدافه فإلى الخط الأول من خطوط منهجه : التقديم للنص عند دراسته .

الفصل الثاني

التقــــديم للنص

١ ـ أهمية التقديم للنص عند المرصفي .

٢ ـ التعويف بصاحب النص .

(أ) سلسلة النسب . (ب) عصر الشاعر .

(ج) ما يتصف به . (د) مناسبة النص .

٣ ـ المرصفي يستطرد في المناسبات .

(ا) الأخبار والمرويات التاريخية .

(ب) الطرائف والقصص .

لقد بدأ (سيد بن على) منهجه لدراسة النص الأدبي ونقده ، بالتعريف بصاحب النص الأدبى ، وذكر مناسبته ، وقراءته على التلاميذ قراءة واعية ، واهتم بهذه الخطوات مقدما بها بين يدى درسه ، لأنها تمثل الانتقالات الذهنية والارتقاء بالفكر ، نحو الجو النفسى المحيط ، فبها يعيش مع الأحداث والمناسبات التى عايشها وانفعل بها قائل النص ، وبهذه الخطوات يهيء عقل الطالب ووجدانه ، لدراسة النص الأدبى ، وإذا ألمحنا إلى المناهج التربوية الحديثة ، نجد أنها تدعو لهذا التقديم ، فهو خطوة تكشف الطريق أمام الدارس . وتعد ذهنه لاستقبال ما يراد تزويده به من علوم ومعارف فى رتابة وانسجام .

وتعريف (سيد بن على) بصاحب النص ، يتناول فيه بيان آبائه وأجداده وقبيلته ، وبلده ، والعصر الذى عاش فيه . وأهم صفاته وميزاته ، وذكر الأخبار والمناسبات التى تتصل به أو بنصه الأدبى ، والتى تضفى عليها ما شيئا من البيان والإيضاح .

واهتمامات المرصفى بهذا التعريف بلغت فى العناية حداً كبيرا ، حتى أننا إذا تصفحنا شروحه للكامل والحماسة، فلن نجد فيها قائلا لنص أدبى لم يتعرض له شارحه بالتعريف والترجمة . ورأى فى كتب التراجم والأخبار . متعة وغذاء ومطلبا ، مما أعانه على التقديم للنص بما واكبه من أخبار ، وما أحاط به من حوادث كاشفة .

لقد رأينا تعريف المرصفى بصاحب النص يظهر فى سطور قليلة ، ولكنها تبرز القائل مميزا عن أقرانه ، بحيث تفرد بالذكر إذا اشترك مع آخرين فى الاسم أو اللقب ، فمن قوله فى التعريف بـ (على بن سليمان) بن الفضل ، الأخفش الأصغر ، فأما الأكبر فهو أبو الخطاب عبد الحميد ، أخذ عنه سيبويه والأوسط هو أبو الحسن سعيد بن مسعده ، قرأ النحو على سيبويه ومات الأخفش الأصغر سنة خمس عشر وثلثمائة(١) .

كذلك رأينا المرصفى يهتم بالصفات التى اشتهرت بين الناس ، فإذا اشتهر القائل بأنه نحوى ، أو صاحب غزل أو شجاعة وفروسية ، أو كرم وعطاء ، أو الرواية لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبرز كل ذلك المرصفى فى تعريفه بصاحبه . فمن ذلك قول (سيد بن على) فى تعريف أحد أصحاب النصوص : هو أبو فيد مؤرج بن عمرو بن الحرث من بنى سدوس بن شيبان ابن ذهل بن ثعلبة ، وهو من نحاة البصرة ، أخذ عن الخليل بن أحمد ، وأبى زيد الأنصارى ، وروى الحديث عن شعبة بن الحجاج ، مات سنة خمسة وتسعين ومائة(٢) .

ويقول فى تعريف آخر :

جميل - صاحب بثينة - عبد الله بن معمر بن الحارث ، أحد بنى عذرة

---

(١) صـ ٦ جـ ١ . رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

(٢) صـ ٦١ . أسرار الحماسة . سيد المرصفى ١٩١٢ م

ابن سعد بن هذيم . شاعر فصيح ، جامع للشعر والرواية ، روى الشعر عن هدبة بن خشرم العذرى ، راوية الحطيئة ، الراوى عن زهير ، وقد روى عنه كثير عزة . وهو آخر من اجتمع له الشعر والرواية[1] .

وفى تعريف ثالث يقول المرصفى :

عروة بن الورد ، بن زيد بن عبد الله بن سفيان بن ناشب ، من بنى عبس ابن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر - شاعر جاهلى ، وفارس جواد ، وفيه يقول عبد الملك بن مروان : من زعم أن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد - وهو عروة الصعاليك - تلقب به لما أنه كان يجمع الصعاليك ، وهم الفقراء الذين لامال لهم ، فيقوم بأمرهم ، وينفق عليهم مما كان يغنمه[2] .

والمرصفى يهتم بالشعراء الصعاليك . يوضح صفاتهم : ويروى أشعارهم فمن هذا ما ذكره بعد سلسلة النسب للشاعر (بكر بن النطاح) قال : وهو شاعر صعلوك ، كثير الوصف لنفسه بالشجاعة والإقدام وهو القائل

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسأل
وإنا لنلهو بالسيوف كما لهت عروس بعقد أو سخاب قرنفل[3]

وإلى جانب ما سبق فإن المرصفى يهتم بذكر سلسلة النسب للقائل من جهة الأب إلا إذا عرف القائل بأمه فإن المرصفى يتعرض لها بالذكر معللا سبب نسبته إليها ومعرفته بها ، كما يذكر عصره الذى عاش فيه ، مبينا بعض سيرته فى عصره . ثم يذكر مناسبة النص ومناخه ، كى يعد ذهن قارئه لما يرد

---

(١) المصدر السابق ص ٦٣ .
(٢) ص ١٠٤ ج ١ رغبة الآمل سيد المرصفى .
(٣) ص ١٨٥ ج ٥ رغبة الآمل . سيد المرصفى . والسخاب قلادة تتخذ من قرنفل .

بعد ذلك من نص . فهو بكل ذلك كأنما ينقل دارسة إلى البيئة والمناخ ليشاهد الأحداث . ويعاين الوقائع ، فليس من رأى كمن سمع .

كذلك يهتم بضبط الأسماء لصحة النطق بها ولعلنا نلمح كل ذلك فى تعريف (سيد بن على) التالى :

« خفاف » بن عمرو بن الحارث الشريد ، أحد بنى سليم « بضم السين » ابن منصور .

« وندبة » إسم أمه ، إبنة أبان بن شيطان . كانت أمه سوداء ، لحق سوادها خفافا .

وهو أحد أغربة العرب فى الجاهلية .

وكان شاعرا فارسا ، آمن بسيدنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وشهد معه يوم الفتح وحنينا والطائف .

ولقد كانت بينه وبين العباس بن مرداس السلمى مهاجاة إلى القتال ، حتى جرى بينهما مالك بن عوف النضرى ، ودريد بن الصمة فى وجوه هوازن ، ثم بعث خفاف اليه هذه الأبيات ، ينصحه أن يحفظ ما تعاقدا عليه وأن يكف كل واحد منهما عن صاحبه[1] .

كذلك يهتم (المرصفى) بتصويب أسماء الرجال وصحة النطق بها ، وإسناد النص إلى صاحبه ، وهو فى جميع ذلك العالم المحقق ، والفقيه الثبت والراوى الثقة ، يقارن بين الأقوال والآراء المختلفة ، وينفذ بعقله خلالها ، فينتقى منها ما يوافق العقل ويؤيده المنطق ، وسنتعرض لتوضيح ذلك فى الفصل السادس (نقد وتصويب) بمشيئة الله تعالى .

والمرصفى يعتمد فى تراجمه وأخباره على الثقات من أهل الأدب ، وكتاب السير والتراجم ، وهو يشير إليهم أثناء حديثه ، أو يشير إلى كتبهم ، وقد

(١) ص ٤ أصرار الحماسة سيد المرصفى .

لا يشير إلى شيء من ذلك وقـــد ينوه بهم وبمكانتهم فى توثيق النصوص والمرويات وقد رأينا فى مؤلفاته كثيرا من هذا فمنها :

— ألا أيها الركب المحبون — روى الجاحظ فى كتاب البيان قال[١] الخ ..

— أبا مرثد — بعد بيـان سلسلة النسب قال المرصفى : صحابى جليل ، ذكر ابن عبد البر أنه شهد المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] . .

— الذى رواه محمد بن إسحق بن يسار ، وكان حبرا فى المغازى والسير[٣] .

— سلم — بفتح فسكون — ابن قتيبة ، نزيل البصرة ، وثقة أبو داود وأبو زرعة[٤] .

— قال الشاعر — ذكر ياقوت فى معجمه قال[٥] :

— وقد ذكر الاصبهانى فى أغانيه بسنده أن غزالة الحرورية[٦] .

— عده ابن الأثير فى أسد الغابة من الصحابة[٧] .

— ابن عبد البر فى كتابه الاستيعاب[٨] .

— الحافظ صفى الدين أحمد بن عبد الله الخزرجى فى كتابه خلاصة تذهيب الكمال فى أسماء الرجال[٩] .

فقد أشار المرصفى إلى الذين اعتمد عليهم فى تعريفاته وتراجمه ، وقد رأينا منهم ، الجاحظ فى كتابه البيان ، وابن عبد البر فى كتابه الاستيعاب وابن إسحاق فى المغازى والسير ، وأبا داود وأبا زرعة ، وياقوت فى معجمه

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩)
بالصفحات ٢١٠ جـ ٢ ، ٢٨٥ جـ ٢ ، ٣٠ جـ ٥ ، ١٢٨ جـ ٥ ، ٢١٤ جـ ٧ ، ١٥٤ جـ ٦ ، ١٦٥ جـ ١ ، ١٥٤ جـ ١ ، ١٠٤ جـ ١ . رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

والأصبهانى فى أغانيه، وابن الأثير فى أسد الغابة. والحافظ صفى الدين الخزرجى فى كتابه خلاصة تذهيب الكمال فى أسماء الرجال.

و « سيد بن على المرصفى » لم يقتصر على المناسبات التى يقدم بها لنصوصه من خلال التعريف بالقائل ، بل إنه كثيرا ما يستطرد ، فيروى من الطرائف الأدبية والأخبار التاريخية والقصص والأمثال العربية ، كلما دعته الحاجة إلى ذلك أثناء شرحه لنصوصه .

وقد لمست هذا فى مواطن اهتم فيها « المرصفى » بجلاء ما ورد فى أثناء النصوص من حقائق تاريخية أو طرائف وأمثال عربية ، فهو كأديب راوية يعضد أدبه دائما بإيضاح مثل هذه المناسبات ليكتمل بها درسه ويكون لديه الغناء عما سواه .

والمناسبات التى استطرد لذكرها « المرصفى » يمكن حصرها فى ناحيتين هما : الأخبار والمرويات التاريخية والطرائف والأمثال العربية .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى ثنايا كتبه ومؤلفاته فمن الأخبار التاريخية ما ذكره مصورا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة حين أمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادى حتى تمر به جنود الإسلام فيراها، يقول المرصفى : ومرت القبائل على راياتها وكان كلما مرت قبيلة سأل عنها العباس حتى مر رسول الله فى كتيبته الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ، فقال : يا عباس من هؤلاء ؟ فقال العباس : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المهاجرين والأنصار ، فقال : والله يا أبا الفضل : لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما ، فقال يا أبا سفيان إنها النبوة ، قال : فنعم إذن[١] .

والمرصفى فى هذا كان يوضح ما أجمله أبو العباس، ومثل ذلك حين عرض

---

(١) ص ١٧٦ ج ٥ . رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

صاحب الكامل لأحداث الحديبية ، رأينا المرصفى يقوم بإيضاح حوادثها فى ترتيب وتوثيق لما حدث حتى ينتهى إلى عقد الصلح ، حين بعثت قريش سهيل بن عبد شمس ليصالح النبى على ألا يدخل مكة عامه ورضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا على بن أبى طالب فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللهم ، فكتبها على ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فأبى سهيل .. الخ[١] .

وتحدث أبو العباس المبرد عن أخبار الخوارج ووقائعهم بغير ترتيب تاريخى فأوردها منتثرة ، فجاء « المرصفى » فأشار إلى ما كان يجب عليه حين يتحدث عن هؤلاء فقال : « وليعلم أن أبا العباس أطلق لسانه فى أخبار الخوارج فأوردها منتثرة النظام ، لم يجعل لكل طائفة حدا تنتهى إليه فى كل عصر ، فبينا يحدث عن طائفة ، إذا هو وثب فحدث عن طائفة أخرى ، فى غير عصرها ، وسنقف على ذلك كله إن شاء الله »[٢] .

وهذه إشارة جديدة من المرصفى ، توضح وجهة نظره فى ترتيب عصور الأدب والتاريخ . وما ينبغى عمله على مؤرخ الأدب حين يعمد لتاريخ الأدب فى أمة أو جماعة من الجماعات وهى إشارة تسجل لصاحبها وتشهد له بنظرة جديدة ، فى منهج دراسى جديد داخل الجامع الأزهر ولعل المرصفى قد أفاد ذلك من درس الأدب بدار العلوم الذى نادى به « حسن توفيق العدل »[٣] بعد رجوعه من ألمانيا .

وقد سبق ما جاء به المرصفى فى « رغبة الآمل » ترتيب شعراء « أسرار الحماسة » حين قدم الشاعر الجاهلى على الإسلامى ، والاموى على العباسى ، حتى صار الترتيب الزمنى منحى جديدا يعرف به المرصفى داخل الجامع الأزهر فى بداية القرن العشرين .

(١ ، ٢) ص ١٠٠ ج ٧ ، ٧٦ ج ٧ ، ١٥٤ ج ٦ من رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد على المرصفى ١٩٢٧ .

(٣) خريج دار العلوم ١٨٨٧ ومؤلف تاريخ آداب اللغة العربية .

ومما أنكره المرصفى على المبرد عجلته فى ذكر حديث أحـــد رجال الخوارج ومن ذلك : قوله حينما تعرف المبرد لذكر «الشيبانى» قال المرصفى : وهو عمران بن حطان وسيأتى نسبه وحديثه فى باب الخوارج[١] .

والحرية كانت دائما ، ديدن « المرصفى » فى جميع ما تناوله من مناسبات وأخبار تاريخية ، فقد كان يبحث عن الحقائق والتراث العربى ، فى أماكنه عند الخوارج الذين نزعوا أيديهم عن طاعة أولى الأمر ، بدعوى ضلالتهم وعدم انتصارهم للحق وعند غيرهم كالإمام على بن أبى طالب وصحبه ومن حاربه كمعاوية وتابعيه . فلم يتحرج المرصفى عن صحبة المبرد إذا عرض لأحداث هؤلاء وأولئك ولم يتخلف عنه إذا تحدث عن أدب أى فرقة من الفرق ، متخذا فى ذلك ، أسلوبه الذى سار معه دائما وهو الحرية فى درس النصوص لتسجيل ما فيها من أدب وما يحيط بها من أحداث ووقائع ..

نبصر هذه الحرية فى إثباته مكاتبات بين قيس أمير مصر من قبل على بن أبى طالب ومعاويه بن أبى سفيان حين خاف على نفسه سنة ست وثلاثين قبل يوم صفين، أن يقبل إليه على فى أهل العراق، ويقبل إليه قيس فى أهل مصر، فيقع بين القوتين ، فأراد معاوية أن يستدرج قيسا ، فكتب إليه ، ورد قيس فلم يظهر لمعاوية ذات نفسه . فبعث إليه كتابا يهدده بجنده ، فرد عليه قيس قائلا :

أتسومنى الخروج عن طاعة أولى الناس بالامرة وأقولهم للحق ، وأهداهم سبيلا ، وأقربهم وسيلة من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، وتأمرنى بالدخول فى طاعتك . ؟

ثم كان رد معاوية فى كتاب كله ذم وتهديد ، ورد عليه قيس بما هو أقذع وأوجع[٢] . لقد كان المرصفى بتسجيله لهذه الخطابات والردود بين قيس

(١) ص ١٥٤ ج ٦ من رغبة الآمل من كتاب الكامل سيد على المرصفى ١٩٢٧

(٢) ص ٣٤ ج ٥ . رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

ومعاوية ، يهدف إلى إكمال ما أتى به المبرد ناقصا ، فقد جاء بخطاب معاوية الأخير ورد قيس عليه بدون ذكر ماتقدم ذلك ، كما أنه يهـــدف الى إبراز الحقائق التاريخية والآداب العربية فى صورتها المتكاملة فى حرية وصراحة ، بحيث لا يسيطر عليه خوف أو تقيد لمذهب أو جماعة .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الحرية لم تمنعه أن يرد على من يعتدى على حرمات يجب أن تصان عن العبث ، حتى لا يتوهم دارس أنه يوافق رأيه ، ومن هذا قوله فى الحجاج حينما قال : والناس يطوفون بقبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومنبره : إنما يطوفون بأعواد ورمة . قال المرصفى فى شرحه : إنما يطوفون هذا قول الحجاج قاتله الله[١] .

والمرصفى بهذا التوضيح قد بعد بنفسه عن مثل هذا القول ، كما بعد بصاحب الكامل .

والناحية الأخرى التى جاء بها «المرصفى» فى مناسباته الاستطرادية تتصل بالطرائف والأمثال العربية ، لما وجد أنها بحاجة إلى الإيضاح والبيان ، ففى الأمثال العربية تاريخ العرب وأيامهم ، وفكرهم وأخلاقهم ، ولهذا فلم يمر المرصفى «فى دروسه للنصوص ، على مثل من أمثال العرب دون أن يشير إليـه موضحا مناسبته ومورده ، ومضربه ،

فمن ذلك قوله عند درسه لبيت أبى كبير الهذلى .

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه   برقت كبرق العارض المتهلل

يقول المرصفى :

وقد تمثلت بهذا البيت عائشة رضى الله عنها ، وقد نظرت جبين رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرق ، وعرقه يتولد نورا ، فقالت : لو رآك أبو كبير الهذلى لعلم أنك أحق بشعره . وأنشدت البيت[٢] .

---

(١) ص ٣٢ حـ ٣ . رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى ١٩٢٧ .

(٢) ص ١١٩ . أسرار الحماسه ، سيد المرصفى ١٩١٢ .

وعندما يأتى إلى قول الشاعر :

إن كنت لا أرمى وترمى كنانتى تصب جانحات النبل كشحى ومنكبى

يقول المرصفى موضحا أصل هذا المثل ، مبينا أن رجلا أسديا يحمل كنانة خلقا لقى رجلا فزاريا يحمل كنانة جديدا ، فطمع فى أخذ كنانته ، فقال له : أينا أرمى ؟ فقال الفزارى : أنا ، فقال الأسدى : هـذه كنانتى فارمها ؛ فأخذ الفزارى يرمى بها حتى نفذت سهامه ، وتصب كنانته الأسدى ، فأراه أنه يرمى بها ، فلما صادف منه غرة جنح برميته إلى الفزارى وقتله طمعا فى كنانته[١] .

وقد وجد توضيح المثل فى شروح المرصفى وفكره ، مجالا خصبا ، فنما واتسق ، وبرزت قصة مورده فى ثوب بديع ، وإن كان ذلك موجزا إلا أنه يومىء إلى قدرة فى صياغة القصة ، وإحكام نسجها ، وتسلسل حوادثها ، وإبرازها فى أسلوب مشوق ، وقد تجلى ذلك فى بيانه لكثير من المناسبات فى الأمثال العربية ومنها حديث قصير بن سعد اللخمى ، الذى أوضح فيه قصته فقال :

وحديثه مختصرا ، أن ملك العرب بالحيرة جذيمة بن الأبرش بن مالك بن فهم الأزدى ، غزا ملك العرب بأرض الجزيرة ومشارف الشام : عمرو بن الظرب ابن حسان العمليقى ، فهزم جيوشه ، وملكت بعده ابنته الزباء ، واسمها فائله ، فبعثت إلى جذيمة لتجمع شملها بشمله ، وتضم ملكها إلى ملكه ، فذهب يقوده الطمع ، ويسوقه الحرص إلى أن وصل إليها ، فقطعت راهشيه ، فسال دمه حتى قضى ، فحث قصير خليفته على الملك . عمرو بن عدى بن نصر اللخمى أن يدرك ثأره ، فقال له : كيف وهى أمنع من عقاب الجو ؟ فقال قصير : أجدع أنفى ، وأضرب ظهرى ، ثم خرج إلى الزباء ليشكو لها ما صنع به عمرو ، وقال لها : اتهمنى عمرو أنى غدرت خاله ، وزينت له السير اليك ، فأكرمته ، وبذل لها النصيحة ، فسرت به ، ثم استأذنها فكان منه مثل ذلك أو أكثر ،

---

(١) ص ٩٧ . أسرار الحماسه ، سيد المرصفى ١٩١٢ .

ثم استأذن الثانية ، فملأ جـوالبق رجالا تحملها جمال مصاعيب حتى دخلوا مدينتها فشهروا السيوف ، ومعهم عمرو بن عدى ، وقد دله قصير على باب نفق لها قد أعدته لمثل هذا الخطب ، فرصدها فلما طلعت عليه وعرفته مصت خاتما مسموما كان بيدها وقالت : بيدى لا بيدك ياعمرو(١) .

فقد وجدنا فى هذه الأقصوصة برغم اختصارها ، عناصر قصصية ، تدنى المرصفى من كتاب القصة المحدثين ، لو أتاح لفكره وقصصه الرحابة والانطلاق .

وقد ذكرت هذه القصة مرة قبل هذه فى أسرار الحماسه(٢) ، غير أن أسلوب المرصفى فى « رغبة الآمل » تظهر فيه الحبكة الفنية ، ووضوح العناصر وإنسجامها ولعل هذا يرجع إلى السنوات التى مرت على المرصفى بين أخراجه لأسرار الحماسه عام ١٩١٢ وأخراجه « لرغبة الآمل » عام ١٩٢٧ فقد كانت [ولاشك] سنوات أزداد فيها المرصفى رسوخا فى العلم والأدب، فنضج أسلوبه، وقوى فكره ، وعلا شأنه مع الأيام .

وقـــد صاحبت الأمثال العربية للمرصفى ، الطرائف الأدبية ، فتخللت المناسبات الكثير منها ، وفيها نجد الكثير مما يتصل بأخلاق العرب وعاداتهم بما يفتخرون به بين الناس وبما يذم به بعضهم ، ونقتطف من طرائف المرصفى التى تناولها مايدل على روحه المرحة ، ونفسه المحبة للدعابة والمفاكهة ، لقد روى عن الأزهرى عن بعضهم النساء أربعة : فمنهن ربعة تربع، وجامعة تجمع وشيطان سمعمع ، ومنهن الفرقع ..

ويروى أن المغيرة بن شعبة لقى ابن لسان الحمرة، أحد بنى تيم الله بن ثعلبة، وهو لايعرفه فقال له من حديث يطول ذكره : أخبرنى عن النساء فقال :

---

(١) ص ٣٠ ج ٢ رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى ١٩٢٧
(٢) ص ١٦ أسرار الحماسه ، سيد المرصفى .

النساء أربع : ربيع مربع ، وجميع تجمع ، وشيطان سمعمع ، وغل لايخلع . فقال : فسر ، قال : أما الربيع ، فالتى إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أقسمت عليها برتك ، وأما الجميع فالمرأة تتزوجها ولها نشب فتجمع نشبك إلى نشبها وأما الشيطان السمعمع ، فالكالحة فى وجهك إذا دخلت ، والمولولة فى أثرك إذا خرجت ، وأما الغل الذى لا يخلع فبنت عمك الذميمة السوداء ، القصيرة الورهاء ، التى نثرت لك ذات بطنها إن طلقتها ضاع ولدك وإن أمسكتها فعلى جدع أنفك[١] .

وبعد خطوات المرصفى فى تقديمه لدراسة النص الأدبى ونقده ، نجد أنه لازالت هناك حلقة أخيرة بعد ماذكرنا ، وتعتبر هذه الحلقة حلقة الاتصال بين تقديم النص وبين دراسته لإيضاح مبناه ومعناه ، وأعنى بذلك قراءة النص الأدبى .

وقد تمتع المرصفى بصوت شجى ، يشد إليه قلوب سامعيه ، وكان فى قراءته للشعر ، يتمثل الأحداث والمعانى ، فيقف حيث ينبغى الوقوف ، ويسير حيث تتصل المعانى ، وتتشابك الأفكار ، حتى ليكاد من يصغى لقوله أن ينسى وقفته أمامه . استمع إليه أحد تلامذته وهو ينشد بصوته قول الشاعر :

حمامة بطن الواديين ترنمى سقاك من الغر الغوادى مطيرها
أبينى لنا لا زال ريشك ناعما ولازلت فى خضراء جار نميرها

فوضح له من خلال ذلك ، أن الذى يحرم من درس هذا الشيخ يخرج من الأزهر بصفقة المغبون[٢] .

---

(١) السمعمع : الشيطان الخبيث والورهاء : الحمقاء وواحده الأوره : الأحمق ص ٢٢٦ ج ٨ رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

(٢) ص ٦٥ ج ١ . البدائع . زكى مبارك ١٩٣٥ .

واستمع تلميذ آخر إلى الشيخ وهو ينشد بعض الأبيات من شعر الأعراب :

رأت نضو أسفار أميمة شاحبا على نضو أسفار فجن جنونها

فقالت : من اى الناس أنت ؟ ومن تكن ؟
فإنك راعى صرمة لايزينها

فقلت لها : ليس الشحوب على الفتى
بعار ولا خير الرجال سمينها

عليك براعى ثلة مسلحبة
يروح عليه مخضها وحقينها

سمين الضواحى لم تؤرقه ليلة
وأنعم .. أبكار الهموم وعونها

فتمثلت لعيني تلميذه هذه المأساة بين الرجل الصادق فى حبه ، والمرأة التى أحبها ، وقد كانت تطمع أن يرجع إليها فى صحة وشباب ، فلما رأت الحقيقة بعكس ماتخيلت ، غلبتها طبيعتها المتقلبة فأنكرته وأظهرت أنها لاتعرفه ، وأنف الشاعر لنفسه فانطلق يسخر منها ، بعد أن تكشف له غدرها .

ونسى تلميذ الشيخ وقفته وسرح بخيالاته مع الأعرابى وصاحبته[١] .

ويتحقق لنا من هذا أن قراءة المرصفى كانت تلعب دورا كبيرا فى الإبانة والإفصاح عن الأحداث اللغوية فإذا عرفنا أن الصوت « يتولى الكشف عن الخصائص والمميزات الصوتية ، للحدث اللغوى ، وهو بهذا الكشف يكون قد بين فى الوقت نفسه جزءا من المعنى اللغوى العام .. »[٢]

---

(١) راجع الرسالة العدد ٦٩٦ محمود محمد شاكر .

(٢) ص ٥٢ العلوم اللغوية كمال بشر . محاضرات القاها بمعهد البحوث العربية ١٩٧١ م .

فإن صوت « سيد بن على » كاشف بنبراته ، وارتفاعه ، وإنخفاضه وانفعاله مع الأحداث ، فى وقوفه أو وصله للكلام ، كاشف عن مايراد من أحداث لغوية ، وموضح لكثير من المعانى التى يراد إيصالها للمستمعين .

وبعد قراءة المرصفى للنص الأدبى تأتى الخطوة التالية لتحليل المفردات والجمل صرفا ونحوا ، للوصول إلى المعانى والأفكار ، كما سنرى ذلك فى الفصل التالى « اللغة مبنى ومعنى » بعون الله وتوفيقه .

الفصل الثالث

دراسة النص الأدبى

لإيضاح مبناه ومعناه

١ ـ الصرف والبناء .

٢ ـ النحو والإعراب .

٣ ـ المعنى .

الصرف مرحلة تحليلية يمر بها اللفظ فى المعمل الصرفى اللغوى ، حيث تفك أجزاؤه ، ثم تترابط كما يدور فى قوالب ذات أشكال مختلفة ليعرف الأصلى والمزيد ، والمادة الأولى للبناء ، والمصدر ومشتقاته التى يمكن أن يؤتى بها لأى لفظ ، وما يتحمله كل لفظ من دلالة كلما زادت حروفه أو نقصت ،وكلما تطور فى شكل جديد ، وقالب مختلف .

ولقد أدرك « سيد بن على » قيمة التحليل الصرفى ، وأثره الوقوف على المعنى اللغوى للألفاظ وصحة النطق بها ، فاستعمله لتفسير مفردات الألفاظ وبيان ماتشتمل عليه من معان ، وهو فى بيان معنى اللفظ كثيرا مايستعمل ـ ماضيه ومضارعه ومصادره الممكنه ،مسندا الماضى والمضارع إلى ضمير المفعول به ، إذا كان مايفسره فعلا متعديا بنفسه ، مثل قوله : تقليكم وتقلونا : من قلاه يقليه قلى وقلاء[1] . ومثل قوله فى تفسير « وليها » مصدر وليه يليه[2] .

---

(١) ص ١٠٢ أسرار الحماسة . سيد المرصفى ١٩١٢ .

(٢) ص ٣٥ ، جـ ١ رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى ١٩٢٧م .

أما إذا كان مايفسره فعلا لازما ، فإنه لايسنده لغير فاعله ، مثل قوله : غلق الرهن يغلق غلقا(١) .

وفى تفسيره للاسم ، يأتى بمفرده إذا كان جمعا ، كقوله فى تفسير (أواصر): جمع آصرة ، وفى تفسير (أفانين) : واحدها أفنون(٢) .

وهو يحرص على الشكل ، فيذكر أن هذا اللفظ بالكسر ، أو بالضم أو بالفتح أو يزنه على لفظ آخر معروف الوزن ، كأن يقول : ابن مكدم . كمعظم(٣) ، أو يبين نوعهما من المشتقات كقوله : معم ، ومخول ـ بضم الميم فيهما على زنة اسم الفاعل ، أو اسم المفعول(٤) .

وقد تناول (المرصفى) فى تحليله للألفاظ ، أبواب الصرف المختلفة ، من مصادر ومشتقات ، وتصريف أفعال، وتثنية وجمع ، وتصغير ونسب ، ومجرد ومزيد .. إلخ .

ولم يكن (المرصفى) فى هذا موضحا القواعد الصرفية، وإنما كان مفسرا للفظ بما هو معلوم من هذه القواعد فى أبسط صورها .

و(المرصفى) يساير (أبا العباس) إذا استطرد لإيضاح قاعدة صرفية ومن هذا قول المرصفى : الشرط فى منع الوصف من الصرف : أن يكون له فعلى كسكران وسكرى ، وشبعان وشبعى ، وذهب بعضهم إلى أن الشرط ألا يكون مؤنثه على فعلانه فيصرف مثل مصان للئيم ، وسفيان للطويل الضامر ، فإن مؤنثهما : مصانة وسيفانة ، وكذلك سعدانة وسرحانة(٥) .

والمرصفى قد يشير إلى أن هناك ألفاظا تختلف حروفها — مع قربها

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) ص ٨٩ ، ٩٣ ، ١١٤، ١٣٢ جـ ١ وغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى ١٩٢٧ م .

(٥) ص ١٠٩ جـ ١ رغبة الآمل من كتاب الكامل — سيد المرصفى .

وتشابهها — وتتحد معانيها فيقول : لاتثرثر : ويروى لاتترتر ، ولاتبربر ، والكل واحد ، تقول : ثرثر الرجل ، وترتر ، وبربر : إذا تكلم فأكثر(١) .

وينبه على ألفاظ الأضداد فيقول : البيع : الشراء هنا ، وهو من الأضداد(٢) .

ويفرق بين استعمال اللفظ للذكر والأنثى فيقول : (بعيس) بنوق عيس : وهو البيض فى شقرة يسيرة ، الأنثى عيساء والذكر أعيس .

وهو يهتم بلغة العرب ، ويثبت ماسمع منها ، ويستقصى ماورد فيها من تصريفات وأوزان ، فيقول : (والمصدر فيها البرء) هذا ماقاله أبو العباس قالت : اللغة : من قال : برئت — بالكسر — قال : أبرأ برء — بالضم — وهى لغة العرب ماعدا أهل العالية ، والحجاز ، وهما يقولان : برأت من المرض أبرأ برء — بالفتح — وزاد أهل العالية : بروءا ، وقد نقل عن الأزهرى قال : وقد رووا برأت من المرض ، يبرؤ — بالضم — ولم نجد فيما لامه همزة فعلت أفعل ، وقد استقصى العلماء باللغة هذا النوع فلم يجدوه إلا فى هذا الحرف، ثم زاد قرأت أقرؤ وهنأت البعير أهنؤه(٣) .

والعرب قوم فصحاء، تصرفوا فى عباراتهم على وجوه مختلفة، وكل ما نطقته العرب فى بأديتها فهو من الفصاحة بمكان ، والمرصفى يرشد إلى العبارات التى تصرف فيها العرب وصارت ذات أشكال مختلفة فيقول معلقا على قول الشاعر: لا أباك : هـذه كلمة تلاعبت بها العرب ، تقول : لا أب لك ، ولاب لك ، ولا أبالك ولا أباك(٤) .

وقد اعتز (المرصفى) بلغة الضاد إلى حد كبير ، ولقد سبق أن تكلمت

(١،٢) ص ٢٦و٢٧ — أسرار الحماسة سيد المرصفى .

(٣) ص ٦٢ ، ٢٢٩ ج ١ رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

(٤) ص ٦٢ أسرار الحماسة سيد المرصفى .

على كراسته الخاصة التي جمع فيها الألفاظ الغريبة وشواهدها من أشعار العرب، وما كان ذلك منه إلا إعتزازا باللغة، وغوصا في أعماقها بحثا عن درها الغالي وفرائدها الثمينة، وفي تحليلاته الصرفية كذلك رأيناه نزاعا إلى إبراز التصريفات النادرة، فستمع إليه وهو يقول عند شرح: غـير وادع ـ: وهذا شاهد استعمال اسم الفاعل من ودع الشيء يدعه، تركه، وقد قرر النحاة، أن العرب أماتوا ماضي يدع، ومصـدره، واسم فاعله، وهاك شاهد المصدر مارواه ابن عباس قال: لينتهين أقوام حتى عن ودعهم الجمعات، أو ليختمن على قلوبهم.

وشاهد الماضي ما أنشدوه لأنيس بن زنيم في عبيد الله بن زياد:

سل أميري ما الذي غيره عن وصالي اليوم حتى ودعه

وبعد أن ذكر «المرصفي» بيتين بعده قال: فكأن النحاة أرادوا بالإماتة ندور الاستعمال[1].

ومن ذلك ما نبه عليه «المرصفي» حين قال: والمظع وزان الضرب مصدر أماتوا فعله، ومنه اشتقوا: مظعت العود ماء لحائه[2].

و«المرصفي» يتتبع المبرد بتصويب ما جاء في تصريفاته لبعض الأسماء والأفعال من مجانبة الصواب، وقد رأينا من ذلك تفسير المبرد لقول الشاعر:

ألست أرد القرن يركب ردعه

فقال: فإنما اشتقاقه من السهم، يقال: ارتدع السهم.

وتتبعه «المرصفي» فقال: يريد من ارتداع السهم بدليل ما بعده ثم يقول: وأبو العباس لا يبالي أن يأخذ المجرد من المزيد... فالصواب أن يقول: فإنما اشتقاقه من ردع السهم[3].

(١) ص ١٠١ أسرار الحماسه سيد المرصفي.
(٢) ص ٦٢، ج ١ رغبة الآمل من كتاب الكامل. سيد المرصفي.
(٣) ص ١٨٥ ج ١ رغبة الآمل من كتاب الكامل. سيد المرصفي.

كما يرد آراء كثير من أئمة اللغة ، ومن هذا قوله : روى هذا الجمع سيبويه والمشهور فى جمعه[١] .

كما يستدل فى موضع آخر بقول سيبويه ليرد به على صاحب القاموس ، فيقول : قال سيبويه . وقالوا أمة وآم وإماء فهى بمنزلة أكمة واكم واكام . . ثم قال المرصفى : فقول صاحب القاموس : وأصلها اموة وأموة — يريد بفتح الميم وسكونها — ليس بذلك[٢] .

وإذا اختلف أئمة اللغة فى تصريف كلمة عرض « المرصفى » لآرائهم ، بحثا عن التصريف اللغوى المراد مبينا الأجود منها والجائز ، نرى ذلك فى شرحه لقول الشاعر :

قد جاء سيل جاء من أمر الله   يحرد حرد الجنة المغلة

فقال المرصفى . الأجود تفسيره — أى الحرد — بالغضب وقد أنشده ابن برى شاهدا على ماذكره سيبويه والأصمعى ، يقال حرد الرجل كفهم حردا بسكون الراء — إذا غضب . وقد روى عن أبى عبيدة قال: الذى سمعناه من العرب الفصحاء فى الغضب ، حرد يحرد حردا ، بتحريك الراء - وعن المفضل . التسكين أكثر .

ثم يقول المرصفى ردا على المبرد فإن فيه قولين : عن ابن الأعرابى ، الحرد : القصد ، والحرد ، المنع ، والحرد الغيظ والغضب ، قال ويجوز أن يكون هذا كله معنى قوله تعالى : وغدوا على حرد قادرين[٣] .

وهذه الوقفات تدل على بحث « المرصفى » الدائب عن الألفاظ وتصريفاتها بين ثنايا المعاجم اللغوية ، ومع أئمة اللغة ، فإذا اختلفوا فى شىء من ذلك

(١، ٢) بالصفحات ١٨٥ ، ١٨٤ ج ١ رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

(٣) ص ١٨٠ ، ١٨٥ ج ١ . رغبة الآمل من كتاب الكامل، سيد المرصفى

كان على « المرصفى » ترجيح ماوافق المسموع من كلام العرب ، وإن خالف القياس اللغوى ، « فاللغة إنما تعتمد السماع[١] » .

وكان المرصفى يشير فى تصريفاته اللغوية إلى أصحاب المعاجم الذين أخذ عنهم وإشاراته إلى ذلك كثيرة فى مؤلفاته ، منها ما جاء فى رغبة الآمل فى الجزء الأول[٢] :

وقالت اللغة ص ٦٢ نقل عن الأزهرى ص ٦٢ ، وقال صاحب القاموس ص ٦٢ ، عن الأصمعى ص ٨١ ، عن ثعلب ص ٧٦ ، وعن ابن الأعرابى ص ٧٢ ، وغلط الجوهرى ص ٦٩ ، ص ١٥٢ ، قال ابن خالويه ص ٦٧ ، وعن ابن السكيت ص ٦٦ ، ذكر ياقوت فى معجمه ص ٣٨ ، صاحب لسان العرب ص ٢٨ ، استظهره ابن برى ص ١٢ وعن أبى الفتح ابن جنى ص ١٤٢ روى هذا الجمع سيبويه ص ١٨٥ .

وهذه العبارات وأمثالها فى شروح « المرصفى » تدل على مقدار ما كان يبذله فى سبيل توثيق تصريفاته اللغوية ، فكان يبحث مع جميع اللغويين عن الحقيقة اللغوية ، فى حرية وصراحة ، ودون منزع لتفضيل واحد على غيره . واستطاع أن يقف على الجيد والقليل والنادر من هذه التصريفات بفضل مثابرته ، وتذوقه اللغوى .

وبعد أن طفنا مع « المرصفى » بالنواحى الصرفية ، ووقفنا على اهتماماته فيها . نرى أنه يتصل بهذه حلقة أخرى لاتكاد تفارقها واعنى بها النحو والأعراب وقد اهتم المرصفى به مثل سابقه وسنقف على بيان ذلك فيما يلى :-

إذا كان تصريف الكلمة بمثابة فك أجزائها ، لفحصها وتقليبها على وجوهها المختلفة ، للوقوف على مفهوم كل لفظة منفردة ، وما تعطيه من

---

(١) ص ١٨٠،١٨٥ ج ١ . رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .
(٢) هذه العبارات على سبيل المثال لا الحصر .

معان فإن النحو والأعراب فيه ضم هذه الأجزاء وتعاونها للوقوف على ما أفادته الجملة من مدلولات، ولهذا كان اهتمام (المرصفى) بالألفاظ منفردة، ثم بالجمل والعبارات.

واهتمام «المرصفى» بالنحو لدراسة النص لا تعنى أنه يشرح قواعده ويذكر تفريعاته، ولكنه يشير إلى مواقع الألفاظ فى الجملة عندما تكون تكون الإشارة النحوية موضحة لها، مبينة لمعناها، وقد رأينا فى شروح المرصفى إشارات نحوية لأكثر قواعد النحو، سنقتصر منها على ما غلب فى هذه الشروح وما كان يريد إبرازه وإيضاحه من معان بوساطة تلك الإشارات ومنها ما يلى :

يشير إلى المتعدى واللازم من الأفعال، وما ينصب مفعولا واحد وما ينصب مفعولين، فإذا أوهم الفعل اللازم تعديه بأن نصب مفعولا، وكان حقه عدم نصبه فسر لنا ذلك، ومنه قوله «أكده» ... وهو فعل لازم لا يتعدى، فضمير «أكده» منصوب بنزع الخافض[1].

ونراه أحيانا يصرح بتعدية الفعل أو لزومه وقد يكتفى بتصريفه متصلا بمفعوله أو بحرف جر، أو غير متصل بشىء، ومنه تفسيره للفظ الثواء، فقال: والثواء مصدر ثوى بالمكان يثوى ... ويقال : ثويته كذلك[2] وكان المرصفى بهذا يثير فى تلامذته كامن التوقد والذكاء. فقد أفاد المرصفى بتصريفه للفظ ثوى أن هذا الفعل لازم وقد يأتى متعديا ومثل هذا قوله فى تفسير المروة هى مصدر مرؤ الرجل بالضم[3].

---

(١) ص ٩١ أسرار الحماسة سيد المرصفى.

من قول الشاعر :

إن أدع الشعر فلم أكده إذ أزم الحق على الباطل

(٣،٢) ص، ١٦٤،٧٥ ج١ · رغبة الآمل من كتاب الكامل. سيد المرصفى.

فقد أفاد أن الفعل لازم حيث لم يذكر معه ضمير المفعول به . وأمثلته على ذلك كثيرة ، وهو فى جميعها يكتفى بالإشارة عن العبارة والتلميح عن التصريح .

والفضلة أخذت حظها فى دراسة « المرصفى » للنص ، فقد عرض لبيان نوعها الأعرابى ، لإيضاح المعنى المراد ، ومن ذلك قوله فى تفسير «معاذ الإله» ومعاذ وجه الله . ومعاذ الله ، ومعاذ وجه الله ، كلها مصادر منصوبة بدلا من اللفظ بالفعل(١) .

كما وضح ما نصب على الاختصاص ، عند شرح قول الشاعر : «بنى نهشل» فقال : نصب بأخص مضمرا(٢) .

والمرصفى يهتم بحروف الجر ومعانيها ، وبالمقدر منها والزائد ، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره من أن الباء قد تأتى بمعنى بدل ، فى تفسيره لقول القائل : فليت لى بهم ، قال المرصفى : فليت لى بدلهم ، فالباء للبدل(٣) .

ومثل ذلك قوله فى شرح الشاعر : بنعيمكم ، بالدم : يريد بدل نعيمكم ، بالدم : بدل الدم(٤) .

كما نبه على أن حرف الجر « من » قد يأتى للتجريد مثل تفسيره لقول الشاعر « من قلب . . . . » . فقال : من للتجريد مثلها فى قولك : رأيت منك أسدا(٥) .

وإذا جاء حرف الجر بمعنى حرف جر آخر نبه المرصفى على المعنى الجديد من ذلك قوله فى شرح قول الشاعر :

---

(١) (٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) : ص ٣٣ ، ١٢٧ ، ٧٨ ، ٤ ، ٢٩ أسرار الحماسة سيد المرصفى .

مدمن يجلو بأطراف الذرا . قال المرصفى : الباء بمعنى عن[١] .

وكذلك عند شرحه لقول الشاعر : « للكلاكل » قال المرصفى : اللام بمعنى على مثلها فى آية : وإن أسأتم فلها[٢] .

وإذا حذف حرف الجر ، ونصب المفعول بنزع الخافض ، نبه عليه ، ومن هذا تفسيره لقول الشاعر : يهوى مخارمها ، فقال : يهوى فى مخارمها ، مثل قولهم : ذهبت الشام ، وعسل الطريق الثعلب[٣] .

وهل حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ، كما قال بذلك الكوفيون ؟ أو أن الفعل الذى تعلقت به قد تضمن معنى فعل آخر ، كما ذهب إلى ذلك البصريون ؟ لقد رأينا « سيد بن على » يأخذ برأى الكوفيين فى نيابة بعض الحروف عن بعض كما سبق .

ويأخذ مرة أخرى برأى البصريين خاصة إذا عومل الفعل المتعدى معاملة اللازم ، أو تعدى الفعل الذى حقه أن يتعدى لمفعول واحد فتعدى لمفعولين فمن الأول قوله فى تفسير قول الشاعر : « حملن به » ضمنه معنى علقن فعداه بالباء[٤] .

ومن الثانى قوله فى شرح قوله : « تستريه » : ولتضمنه معنى الإعطاء عداه إلى مفعولين[٥] .

والمرصفى اهتمامه الخاص بفرائد النحو والإعراب فإذا ورد شىء منها نبه إليه ومن ذلك قوله : اعرورى الفرس : ركبة عريا ، هذا ولم يجىء افعوعل متعديا إلا اعرورى الفرس « واحلوليت المكان[٦] .

---

(١) ص ١٧١ ح ١ . رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .
(٢ ، ٣) ص ١١٥ ، ١١٨ أسرار الحماسة . سيد المرصفى .
(٤ ، ٥ ، ٦) ص ١١٧ ، ١٣٢ ، ١٩ أسرار الحماسة .

وقوله : ويلمه - بكسر اللام وضمها - والأصل ويل لأمه ، فركبوه ، وجعلوه كالشيء الواحد . . وينصب ما بعدها على التمييز[1] .

والمرصفي يعرض آراء النحويين فى حرية ، وحسن دراية ، ويقف دائما مع ما وافق لغة العرب أو شاع فيها ، من ذلك ماجاء فى تفسيره للفظ « ألبتة » حين قال : ومذهب سيبويه وأصحابه أن ألبته لا تكون إلا معرفة لا غير ، وإنما أجاز تنكيره الفراء وحده[2] .

ويقول المرصفى فى تعليقه على أبى الحسن « الأخفش الأصغر » رواية المبرد ، حينما قال : وأجود ما روى عندى : يقر بعينى ، وهو الأصل ، والباء فى موضعها غير مؤكدة . فقال المرصفى : يريد أن الباء للتعدية ، وكأن أبا الحسن جهل استعمال العرب ، وأجاز قوله ، وذلك أن العرب لا تزيد الباء داخلة على العين مع قر الثلاثى أبدا ، فلم يقولوا : قر بعينه كذا ، وإنما يقولون : قرت عينه بكذا . حتى إذا أسندوه إلى غير العين أتوا بها تمييزا ، قال الله تعالى « فكلى واشربى وقرى عينا » . وقال بشر :

بها قرت لبون الناس عينا   وحل بها عزاليه الغمام[3]

بحذف نون المثنى لضرورة الشعر أو توسط « اما » بين المضافين ، قال بذلك بعض النحاة ، ومنهم من تخلص من ذلك ، وقد ذكر المرصفى هذه الآراء حينما تعرض لشرح قول الشاعر :

هما خطتا إما إسار ومنة   وإما دم والقتل بالحر أجدر

فقال المرصفى : كذا أنشده أبو تمام بلفظه ، فوسط « إما » بين المضافين وذلك مما لا تعترف به النحاة ، والأغرب من ذلك رواية بعضهم « إما إسار ومنة ، وإما دم » - بالرفع وحكم بأن حذف نون خطتان ضرورة ولا نعلم من عدها من الضرورات إلا هو ، والفراء فى قول امرىء القيس :

لها مثنتان خظاتا كما   أكب على ساعديه النمر

(١، ٢) ص ١٣٢ ، ١٦٥ ج ١ رغبة الآمل . سيد المرصفى .

(٣) ص ١٨١ ج ١ رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

... وقد تخلص من هذه الضرورة التي لا تكاد تعرف في كلام العرب علي بن حمزة الكسائي فقال : أراد خطتا ، فلما حرك التاء رد الألف التي هي بدل من لام الفعل لأنها إنما حذفت لسكونها وسكون التاء ، وهذا وإن كان ضرورة إلا أنها تغتفر وذلك أن الشاعر اضطر فأجرى الحركة العارضة مجرى الحركة اللازمة في نحو قولا وبيعا وخافا . هذا والرواية :

لكم خصلة إما فداء ومنـــة   وإمـا دما والقتل بالحر أجدر

بنصب فداء وما بعده على إضمار تختارون[١] .

والمرصفي كثيرا ما وقف المبرد وراويته أبي الحسن ، مصوبا آراءهما النحوية ومن ذلك ما أتى به أبو الحسن دليلا على استعمال قول الشاعر : .. إن الحر حر .

فقال أبو الحسن : ومنه قول الله عز وجل : «فغشيهم من اليم ماغشيهم» . فرد المرصفي ذلك وقال : الصواب حذفه لأنه ليس مما اتحد فيه المبتدأ والخبر لفظا وإنما هو موصول مسند إليه فعل ، جعل مثله صلة ، للمبالغة في تهويل ما أصيبوا به[٢] .

وعندما تعرض أبو العباس لتفصيل تاء التأنيث المتحركة اللاحقة أقصى الجمع قال المرصفي : يريد المبرد أن يتكلم على هذه الهاء اللاحقة أقصى الجمع إلا أنه لم يحسن القول فيه وسنبين ذلك . وبعد مسيرته مع المبرد مفندا لآرائه ومصححا لها . قال : وقد تلخص من هذا أن الهاء اللاحقة أقصى الجمع إما أن تكون لتحقيق التأنيث أو للنقل من العجمة أو للنسب ، أو للعوض ، فهذه وجوه أربعة[٣] .

(١) صـ ٥٧ . أسرار الحماسه سيد المرصفي .

(٢ ، ٣) صـ ١٥٩ ، ٢١٩ حـ ؛ رغبة الآمل من كتاب الكامل ، سيد المرصفي.

وقد اتصل « سيد بن علي » بزعماء النحو في البصرة والكوفة ، كما كان دائب البحث عن الاستعمال العربي الصحيح ، وقد نبه في شروحه عمن اتصل بهم وأخذ عنهم وإشاراته في ذلك كثيرة ، ومنها ، ونقله عن المازني ، والمازني أمام نحاة البصرة[١] — هذه عبارة أبي الحسن الأخفش[٢] — قال الفراء : إنما استجاز العرب[٣] — قال أبو الحسن أحمد بن يحيى .. المعروف بثعلب إمام الكوفيين[٤] .

ومن عبارات « المرصفي » التي تدل على اتصاله الوثيق بلغة العرب التي كانت الأساس المتين الذي شيد عليه بنيان لغته وأسلوبه ونحوه وصرفه ، من ذلك قوله : والعرب تقول كذا ... ولم تقل كذا[٥] — والعرب كثيرا ما تجعل[٦] هذا تقول من أبي العباس على العرب[٧] — هذا من زوائد أبي العباس لا يعرفه أهل اللغة[٨] .

والمرصفي كان مع هؤلاء قرنا يأخذ بالحجة الواضحة والمنطق السليم وقد ظهر ذكاؤه ودرايته ، كلما احتك زناد فكره بأحد هؤلاء اللغويين الكبار .

وإذا قلنا إن « سيد بن علي » قد استعمل في دراسته للنص الأدبي التحليل الصرفي والنحوي ، فليس معنى هذا أنه استغرق فيها مثل غيره من الشراح السابقين . حتى ضاع المعنى المقصود بين ثنا تفريعات قواعد النحو والصرف بل إنه استعملها استعمال الحاذق الفطن بالقدر الذي يحتاج إليه للبيان والإيضاح دون إسراف أو تقتير ، فلم يضع المعنى المراد ، ولم يفقد النص بيانه ومراميه .

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨) ص ١٤٤ ، ١٤٠ ، ١٣٦ ، ٥٧ ، ص ١٩ ، ٢١٦ ، ٢١٦ ، ١١٧ جـ ١ رغبة الآمل من كتاب الكامل ، سيد المرصفي

لقد كان « سيد بن على » دائم النقــد للشراح السابقين ، ولا سيما الخطيب التبريزى ، لأنه كان مثل أستاذه أبى العلاء . كلف بالنحو والصرف والعروض ، فكثرت فى كتابه على الحماسة مسائل الإعراب والتصريف وما يشبهها من المسائل العلمية واللغوية ، حتى ضاع بين ثناياها المعانى المعبرة للنص وكره « المرصفى » الإكثار من مسائل النحو والصرف ، كما كره أسلوب «الفنقلة» الأزهريه ، والحواشى والتفريعات ، التى يضيع معها المعنى المقصود والهدف السامى الذى أريد من النص .

وبعد أن سار « المرصفى » فى دراسته للنص الأدبى ، بتحليل ألفاظه صرفيا ، وأوضح إعرابه تأتى الخطوة الأخيرة فى هذا الفصل لإيضاح معناه فإن بيان المعنى الذى يهدف إليه النص ، هو المقصود فى النهاية ، بعد أن سعينا إليه بالخطوات السابقة ، حيث بدأنا مع المرصفى بالتقديم للنص ، ثم كانت الخطوة التالية لتحليله صرفيا ونحويا ، حتى إذا شارفت العبارة على الوضوح جاء التعبير عن المرادة والمقصود منها .

والمعنى الذى تناول به المرصفى تفسير نصوصه ، هو المعنى المفهوم من السياق للعبارة والقصيدة جملة ، فلم يقف جامدا أمام ماجاء بالمعاجم اللغوية بل نظر إلى روح الأساليب وحركة الأحداث فى القصيدة ، وأعطى للكلمات معانيها التى تتسق مع معانى النص ككل ، وهو يتحدث عن ذلك فيقول ناظرا لوضع الكلمة مع صاحبتها فى التراكيب ، وحملها على ما يناسب من المعانى بشهادة الأساليب[1] .

وهو يصل إلى المعنى بدون تكلف أو إغراق ، وينقد كل من يتكلف لمعناه أو يبعد فى القول عنه ، كما نقد كل من أخل بتركيب عبارته . فلم يلتمس لعبارته

---

(١) مقدمة أسرار الحماسة .

المعانى بل أرانا التركيب الصحيح المؤدى إلى المعنى بدون تكلف ، ومن هذا تفسير المرصفى لرواية أبى تمام : وصنوى قديما إذا ما اتصل .

قال المرصفى : كذا صنعه أبو تمام ، قدم بعض الكلمات وغير بعضها ، فاختل معناه وذلك أن الصنو هنا : ابن العم ، والأعرف فى كلامهم أنه الأخ الشقيق أو العم ، على التشبيه بالصنو من النخل ، وهو أن تكون النخلة لها رأسان أصلهما واحد ، كل منهما صنو الآخر ، واتصل فلان بآبائه : انتسب فيكون المعنى :

وأبلغا ابن عمى إذا ما انتسب قديما ، ولا معنى له وإنما الرواية : « قديما وصنوى إذا ما تصل ، يريد : أبلغا ابن عمى راشدا ، صديقى من عهد قديم إذا وصلت إليه[١] .

و « المرصفى » يستدل لمعانيه ، بما ثبت من لسان العرب ، وفصيح الكلام ويتضح ذلك من تفسيره قول الشاعر : « لا ندر لعاصب » .

حيث قال : جعل ذلك مثلا لإبائهم عن العطاء على القسر ، والانقياد على القهر ويستطرد المرصفى قائلا ، وفى هذا المعنى يقول الحطيئة :

تدرون إذا شد العصاب عليكم ونأبى إذا شد العصاب فلا ندر[٢]

ويستشهد بالمأثور من كلام الصحابة ومن هذا تفسيره للفظ « الوغم » حيث قال : الوغم : الزحل والترة ، وجمعه الأوغام ، يريد : لم أجن على الأمير جناية سابقته بها ، ثم يقول مستشهدا لقوله : ومن كلام على كرم الله وجهه : وإن بنى تميم لم يسبقوا بوغم فى جاهلية ولا إسلام[٣] .

كما يستشهد لقوله بالحديث الشريف ، ومنه تفسيره لكلمة « الزرابى » حيث قال : واحدتها زربية ، وهى البسط الملونة ، كزرابى النبت إذا اصفر

(١ ، ٢ ، ٣) ص ١ ، ١٩ ، ٨٩ أسرار الحماسه سيد المرصفى .

أو احمر وفيه خضرة ، يريد بها تلوين أخلاقهم ، ثم يقول : ومن هذا حديث أبى هريرة قال : « ويل للزوبية ، فقيل له ما الزوبية ؟ قال : هم الذين يدخلون على الأمراء فاذا قالوا شرا قالوا صدقتم[1] .

كما يستشهد بالقرآن الكريم ، ومن ذلك ما جاء فى تفسيره لكلمة « كهمك » فقال : يريد كعزمك ، والهم : العزم . ومنه آية « وهموا بما لم ينالوا »[2] .

كما يستشهد بشعر العرب ومن ذلك ما تقدم من قول الحطيئة : تدرون البيت .

و « المرصفى » فى بيان معانيه ، يحاول دائما أن يلمس مايختلط على الفكر فيذكر ما بين الكلمات من فروق ، ومن هذا تفسيره للكلمتين « القبيل والقبيلة » حيث قال : القبيل : الجماعة من الثلاثة فصاعدا ، من أقوام شتى كالزنج والروم والعرب ، وربما يكونون من أب واحد ، وجمعه : القبل ، أما القبيلة فهم بنو أب واحد وجمعها القبائل[3] .

ومنه تفسيره للكلمتين « الآل والسراب » حين قال : الآل : اسم لما تراه ضحى بين السماء والأرض كأنه ماء . والسراب : الذى تراه نصف النهار كأنه ماء جار ، وزعم الأصمعى أنهما واحد[4] .

واللفظ الذى يفسره « المرصفى » يدور فى فلك كثير من العلوم والمعارف المختلفة فقد يعرض لتفسير اسم ورد فى التراجم والأنساب أو لتفسير أماكن وأيام وتاريخ وأزمان أو يتناول اللغة ، ومافيها من نحو وصرف وعروض وقافية وقد تعرض له أشياء فى الطب أو الفلك ، أو مما تتصل بعلوم الفقه أو التوحيد أو الحديث ، أو تفسير القرآن العظيم ، أو غير ذلك من العلوم والمعارف ، وقد ساعدته ثقافته العامة التى يجب أن يثقف نفسه بها كل من يتصدى لتدريس

---

(١) ص ١٠٣ أسرار الحماسة سيد المرصفى .

(٢) ص ١٢٦ . أسرار الحماسة . سيد المرصفى .

(٣ و ٤) ص ٣٦ ، ٣٠ حـ ١ . رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

الأدب واللغة العربية ، فرأيناه فى شروحه يبرز المعنى من أخصر طريق بدون تكلف ، وإذا كان المعنى بعيدا عليه لاختصاصه بقوم سأل عنه أهله ، فأهل كل صناعة هم أدرى الناس بدقائقها .

و « المرصفى » قليلا ما يذكر المعنى الإجمالى للأبيات ، فاذا ذكره . فهو الحريص على أن تؤدى الألفاظ العربية معانيها وإيحاءاتها وعلى أن يتضح للمتخصصين ما فيها من أسرار لغوية ، نرى ذلك عند شرحه لقول الشاعر :

أرأيت إن جاءت به أملودا مرجلا ويلبس البرودا
ولا ترى مالا له معدودا أقائلون أعجلى الشهودا
فظلت فى شر من اللذ كيدا كاللذ تزبى صائدا فصيدا

قال المرصفى : أخبرنى إن جاءت بولد ناعم يسرح شعره لابس برد: وله مال لا يعد لكثرته ، أتجحده وتقول : أنت ومن يشايعك لهذه المرأة: أحضرى الشهود على أنه منك ، تكيدها بذلك ، فظللت فى شر من الذى كدت وكنت كالذى اتخذ زبية يصيد بها الأسد فوقع بها فهلك[١] .

والمرصفى يوضح معناه فى ثقة ودرايه وإلمام بآراء النحويين واللغويين . فاذا حاد المبرد عن الصواب ، رده المرصفى ويتبع معانيه بالتصويب والتصحيح وهو ينصفه من غيره إذا رأى فى قوله الصواب ، وسنذكر ذلك فى الباب السادس إن شاء الله .

والمرصفى يأخذ معانيه عن أئمة اللغة والاهتداء بهم إلى ما قالته العرب وله عبارات فى ذلك منها : وعبارة اللغة : العديل: الذى يعادلك فى الوزن والقدر[٢] والعرب تقول فلان لا يريش ولا يبرى ، يرمدون لا ينفع ولا يضر[٣] — إلى جانب عباراته : عن الأصمعى ـ ذكر ياقوت ـ فسره ابن الأعرابى — عن أبى حنيفة الدينورى ، وغير ذلك من العبارات التى نراها فى ثنايا شروحه .

(١ و ٢ و ٣) ص ٩٧ و ١١٢ و ٢٨ حـ ١ . رغبة الآمل من كتاب الكامل سيد المرصفي .

وبعد أن حلل المرصفى المفردات صرفا ونحواً واتضحت معه العبارات والجمل ؛ رأيناه يلقى على النص نظرة شمولية ليرى هل كان مرتب الأجزاء متكامل المعانى ، وكأن المرصفى بذلك ينبه إلى أن النص جسم متكامل تتناسق أعضاؤه وبناء مرصوص يشد بعضه بعضا ، وهذا موضوع الفصل التالى .

الفصل الرابع

القصيدة العربية والمرصفى

١ — وحدة القصيدة العربية .

٢ — اهتمام المرصفى فى دراسته للنصوص بوحدة القصيدة :

(ا) إكمال الناقص .

(ب) نفى الزائد .

(حـ) الانتقال فى القصيدة .

(د) ترتيب أبياتها ومعانيها .

بعض النقاد يبعدون القصيدة العربية عن مقياس الوحدة فى بنائها وموضوعها وربما اعتبروا البيت من الشعر فى القصيدة قائماً بذاته ، يصح أن يتقدم عن مكانه ، أو يتأخر ..

والحقيقة أنه لم يخل النقد الأدبى عند العرب من التنبيه على التفكك فى بناء القصيدة ودلالته على ضعف الشاعرية فهو يحول دون استمتاع المتلقين من القراء والسامعين بالعمل الشعرى إذا فقد الترابط بين أجزائه ، ومعنى ذلك أن الوحدة الكلية للقصيدة أو ارتباط أجزائها بعضها ببعض موجودة فى كثير من القصائد العربية على مر العصور ، كما أن قياس الشعر بذلك المقياس كان له وجود فى أذهان كثير من النقاد[1] وعلماء الأدب ، وقد طبقوه على كثير من

---

(١) قال المرزوقى عن عمود الشعر وعن الشعراء الذين حققوه فى شعرهم « إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته ، =

الشعر ، فاستحسنوا منه ما توافر فيه الترابط الذى يجعل القصيدة عملا فنيا متكاملا ، له موضوع تعالجه ، وله هدف يسعى إلى تحقيقه ..»[١] .

لقد عرفت القصيدة العربية بأنها بناء ينسجم ويتآلف من عناصر وقوى تظهر على نحو يتم فيه تكامل المعانى الشعرية المتبلورة فى حقائق لغوية فعالمها عالم متجانس تتلاقى أفكاره وتتعاقب فى حركة مضطردة .

إذا بدأت كانت بدايتها فى غاية الحسن ، عذوبة ألفاظ وأداء معان فإذا برع الشاعر فى الاستهلال انتقل إلى الموضوع فى حسن تخلص بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع فى الثانى , فإذا أدى الشاعر ما أراده فى إتقان نظم وترابط معنى ختم قصيدته بأحسن خاتمة ، لهذا « يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة فى اشتباه أولها بآخرها نسجا وحسنا وفصاحة ، وجزالة ألفاظ ، ودقة معان وصواب تأليف ; ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعانى خروجا لطيفا حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغا .. لا تناقض فى معانيها ، ولا وهى فى مبانيها ، ولا تكلف فى نسجها ، تقتضى كل كلمة ما بعدها . ويكون ما بعدها متعلقا بها ومفتقرا إليها[٢] » .

= والإصابة فى الوصف ومن اجتماع هذه الأساليب الثلاثة ، كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات والمقارنة فى التشبيه والتحام أجزاء النظم والتآمها على تخير من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ومشاكلة اللفظ بالمعنى ، وشدة اقتضائهما القافية حتى لا منافرة بينهما . فهذه سبعة أبواب هى عمود الشعر ، ولكل باب معيار » انظر شرح المرزوقى لديوان الحماسة جـ ١ ص ٩ . ط ثانية ١٩٦٧ .

(١) ص ١٠ قضايا النقد الأدبى — بدوى طبانه — معهد البحوث ١٩٧١ م .

(٢) ص ١٢٦ عيار الشعر ابن طباطبا .

وإذا وقفنا على آراء بعض المنصفين من النقاد . الذين رأوا وجوب الوحدة فى القصيدة العربية فإن « سيد بن على » فى دراسته للنص الأدبى ونقده ، أخذ يهتم بذلك فاعتبر القصيدة العربية بناء متماسك اللبنات والقوى ، تتحد أبياتها وعباراتها لإبراز مراد الشاعر .

وقد حداه ذلك إلى أن يكمل ما نقص من أجزائها ، ويأتى بها فى صورة متكاملة ، ثم يدرسها بعد ذلك ألفاظا وعبارات متصلة بأصولها ، لا منقطعة عنه ؛ فتتضح معانى العبارات من خلال الرؤية النافذة لمعناها العام .

لقد رأينا المرصفى فى شروحه على الحماسة ، والكامل ، يأتى بما نقص من النصوص ، سواء كان هذا الناقص فى أول القصيدة ، كقوله حينما عرض لدراسة قول الشاعر : لحا الله صعلوكا . . .

فقال المرصفى : من كلمة له أولها :

أقلى على اللوم يا ابنة منذر ونامى وإن لم تشتهى النوم فاسهرى[1]

وإذا أسقط أبو تمام بيتا من القصيدة ، نبه على ذلك المرصفى ، لتكمل القصيدة . وتظهر فى صورتها الأولى ، يقول المرصفى فى دراسته لقول الشاعر :

يرجون عثرة جدنا . .

الضمير عائد على الحساد . فى بيت أسقطه أبو تمام هو :

ساء الأقارب يوم ذاك وأصبحت بهجين قد سرت به الحساد[2]

فقد أوضح « المرصفى » ، من خلال إتيانه بما سقط من أبيات ، أن القصيدة متصلة الأجزاء ، مرتبطة المعانى والأفكار ، تتضح معانى عباراتها بإكمال ما نقص منها .

---

(١) ص ٢٥ . أسرار الحماسه سيد المرصفى .

(٢) صـ ٤٧ أسرار الحماسة سيد المرصفى .

وإذا كان «المرصفى» يأتى بما نقص فى أولها ، وبما سقط فى أثنائها فانه كذلك يأتى بما يكملها ، فكثيرا ما رأيناه إذا ذكر أبو العباس شاهدا من كلام العرب أتى بالقصيدة ، متكاملة ثم يتبعه بالدراسة والتحليل والأمثلة على ذلك كثيرة فى كتابه «رغبة الآمل من كتاب الكامل» .

كذلك يهتم «سيد بن على» بنفى ما زاد على أبيات القصيدة مما ليس منها ، سواء كانت هذه الزيادة فى كلمة أو عبارة أو بيت من الشعر . وروايته تعتمد دائما على ما نصح من القول . وما جاء به الرواة الثقات ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها :

حين عرض لأبيات عمرو بن شاس قال المرصفى : أنشأ كلمة عدتها على ما روى محمد بن حبيب أحد وعشرون بيتا ، اختار منها أبو تمام خمسة أبيات وزادها بيتا وذكر القصيدة بتمامها ، ونبه على البيت الزائد فقال : هذا البيت زاده أبو تمام ولم يروه محمد بن حبيب(١) .

ويهتم «المرصفى» بالانتقالات فى القصيدة العربية ، إذ يجب أن تكون أبياتها مناسبة لما قبلها ، مرتبطة ببعضها ، وينقد الشعراء إذا خرجت عباراتهم عن المعنى الكلى المطلوب للقصيدة أو جاء بعضهم ببيت لا يتصل بسابقه ، ولا يرتبط به .

وتتضح هذه العناية من نقده لما جاء فى أبيات معبد بن علقمة :

فقل لزهير إن شتمت سراتنا . . .

حيث قال : هذا حديث آخر ليس له بحديث الحتات مناسبة(٢) .

فالأبيات التى قالها معبد بن علقمة ، توضح أنه كان متغيبا أثناء قتل ابن أخيه الحتات ، وهو يملك سيفا صارما ، ولن يكف عن الأخذ بثأره ،

---

(١) ص ١٠١ أسرار الحماسة سيد المرصفى .

(٢) ص ٢٠ أسرار الحماسة سيد المرصفى .

فالانتقالات هنا يجب أن تؤخذ من الجو العام للنص ، يجب أن تتصل بمعانى القوة والأخذ بالثأر ، فاذا انتقل الشاعر إلى أمر بعيد ، عد ذلك خروج على المعنى لا مناسبة له .

ومن ذلك قول المرصفى فى دراسته لقول الشاعر :

قضى الله بعض المكاره للفتى ... برشد وفى بعض الهوى مايحاذر

ألم تعلمى أنى إذا الألف قادنى ... إلى الجور لاأنقاد والألف جائر

وهذا البيت مستقل لا تعلق له بما قبله[1] .

فالصلة ليست وثيقة بين البيتين ، إذ البيت الأول يبين أن قضاء الله قد يرشد فى بعض المكاره إلى الخير . ويأتى فيما يهواه بما يكره ، ومن ذلك قوله تعالى :

وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ؛ وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، (٢١٦ البقرة) .

والبيت الثانى معناه أنه حازم قوى المراس ، لا يستطيع أليفه أن يقوده إلى الجور والظلم . وبون شاسع بين المعنيين ، ولهذا كان نقد المرصفى بأن البيت الثانى مستقل المعنى لا يتصل بما قبله .

والمرصفى يهتم بترتيب أبيات القصيدة ومعانيها وانتظام أبياتها فى شكل منسق، تتضح به الصورة . ويلتقى فيه المعنى واللفظ فى تآخ وعناق، فإذا أخر أبو تمام بيتا ، أو قدمه وضعه « المرصفى » فى مكانه الصحيح ، ومن هذا قول المرصفى :

أخر أبو تمام قوله : يعكفن مثل أساود التنوم لم يعكف لزور

فحار فيه الكاتبون ، ومحله بعد البيت الذى ذكرنا[2] .

---

(١) صـ ٢٠ ، ٥٩ أسرار الحماسة سيد المرصفى

(٢) صـ ١٤١ أسرار الحماسة سيد المرصفى .

والمرصفي في ترتيبه للأبيات يراعي المعاني الذهنية، وتداعيها في الخواطر إذ يجب أن تأخذ المعاني بحجز بعض. فإذ تقدمت أبيات أو تأخرت وهت المعاني، واختلت الأفكار، وتهلهل النسج، وصارت بحاجة إلى من يصلح شأنها، ويسد فرجتها.

و «المرصفي» ينقد الرواة الذين أوردوا الشعر على غير وجهه وذلك دون مراعاة لترتيب الأبيات وتسلسلها مما أدى إلى ضعف المعاني وعدم ترابطها، ومن النقد الذي وجهه «المرصفي» للرواة حينما أتى برواية أبي زيد لقول الكلحبة:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى ولا أمر للمعصى إلا مضيعا

وبعد أن أورد الأبيات السبعة بترتيب أبي زيد قال: هكذا روى أبو زيد ولو راعى ترتيب معاني الشعر لقدم بيت:

ونادى منادي الحي ... بعد المطلع(١)

وقد يكون من الممكن لعقل كالمرصفي «أن يفعل ما فعله الشراح قبله في الحماسة فيحتال مثلهم لإيجاد نوع من التعلق والارتباط بين العبارات والمعاني المتباينة، ولكنه كان دائما يؤكد في منهجه عدم التكلف والاحتيال فترتيب الأبيات وتناسقها، وترتيب المعاني وتآلفها بحيث تتحد مع المعنى العام للنص عما يهدف اليه المرصفي في شروحه، ويقف على مراد الشاعر؛ من المعنى الكلي للأبيات؛ التي ينتظم كل منها ويتفق، مع ماسبقه وما يتلوه من دلالات، ويمثل هذا تفسير المرصفي لقول المرقش الأكبر:

بيض مفارقنا تغلي مراجلنا نأسو بأموالنا آثار أيدينا

فيقول: يريد ببياض المفارق: أنهم شيب الرؤس من ممارسة الحروب،

---

(١) ص ١٨ ج ١ رغبة الآمل من كتاب الكامل. سيد المرصفي.

وبغليان المراجل : إستعار نيرانها . . . ولا يصح أن يراد بالبياض نقاء الأعراض ؛ وبالمراجل قدور الضيافة لأنه لاينتظم بما قبله ولا بما بعده[1].

فالذى قبل البيت : إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا — ولو نسام بها فى الأمن أغلينا . والذى بعده : فأسوا بأموالنا آثار أيدينا ..

وكلاهما فى الحروب والاستعداد لها ، وتقديم الأنفس رخيصة ، فليس المجال فيها للكرم والإفتخار به أو إظهار نقاء أعراضهم ..

ومما تقدم يتضح أن « سيد بن على المرصفى » كانت له عنايته بالقصيدة العربية ، فأكمل الناقص من أبياتها ونفى الزائد عنها ، وراعى تآلف أجزائها وترتيب أبياتها ، كما راعى تسلسل معانيها وتداعى أفكارها ، يأخذ بعضها بحجر بعض فى حسن تجاور وانسجام وكل هذا له صلته الوثيقة بمقياس الوحدة فى القصيدة العربية عند المنصفين من النقاد . وقد أتاح المرصفى بذلك لدارس الأدب ، فرصة أغنته عن الرجوع إلى الدواوين الكثيرة للشعراء ، كما وسع أفقه حيث لم يجعله يقتصر على ديوان الحماسة لأبى تمام ؛ أو نصوص المبرد بل أكمل شعرهما ليفيد منه الطالب والأديب، وكأن المرصفى بأكمال النصوص العربية من نظم ونثر يشير إلى أن متذوق الأدب لايقنع ببيت من الشعر ليحكم به على شاعر بالجودة والرداءة ، كما أن البيت وحده لايكفى لإبراز المعنى المراد للشاعر أو قائل النص بل إن معانى القصيدة تبرز من خلال ترتيبها وتناسقها وتآلفها ، فهى بناء متكامل وأعضاء لجسم متناسق .

و « سيد بن على المرصفى » بسيره مع هذا المنهج الذى أبرزه واضحا فى القصيدة العربية والذى أرانا من خلاله أن القصيدة العربية القديمة يجب أن يعطى لاحقها من هذه الوحدة ويجب أن تدرس فى صورة جديدة، لاتختلف كثيرا عن بناء القصيدة الحديثة .

---

(١) ص ١٢٨ . أسم الحماسه سيد المرصفى .

وإذا كان «سيد بن علي» يتفق عمليا مع مقياس وحدة القصيدة العربية فإن مما ساعده على ذلك رهافة حسه ، وحسن تذوقه للأدب العربي في عصر الجاهلية وصدر الإسلام وسأعرض في الفصل التالي بمشيئة الله وعونه - تذوق «سيد بن علي» للأدب العربي ؛ كدعامة من دعامات منهجه لدراسة النص الأدبي ونقده .

الفصل الخامس

تذوق المرصفي للأدب

١ — الذوق الأدبي — مكوناته — تأثيراته — دعامة أساسية لدراسة النص الأدبي ونقده .

٢ — ذوق المرصفي .

٣ — إيضاح بلاغة النصوص .

٤ — الإهتمام بالمعنى الصادق المعبر عن قائله .

٥ — نقد تكلف المولدين .

٦ — السرقات الشعرية .

إن دارس الأدب وناقده ، لابد له ، من تذوقه كي يستطيع أن يقف على أسراره ومراميه ، ولا بد له إلى جانب ذوقه من ثقافة عامة أصيلة تكون أساسا لكل بحث أدبي منتج ، وأدباء العرب القدماء كانوا يرون أن الأدب هو الأخذ من كل شيء بطرف ، فكانت لهم الثقافة العامة التي كانت أساسا لبحوثهم الأدبية القيمة .

وناقد الأدب ، لايتذوق فحسب ، ولا يستمتع بالجمال فحسب ، ولا يشارك في تجربة الفنان فحسب ، ولكنه يزن ويحلل ويحكم ، ويميز الجيد من الرديء ، ويحاول أن يوصل كل هذا إلى أكبر جمهور ممكن من المثقفين ، فمن حق البحث والإنصاف عليه أن تكون له فكرة (أو فلسفة) في الأدب وطبيعته وجماله ومنابعه من الشخصية الإنسانية ومسالكه إلى النفوس ، وأن تكون هذه الفكرة واضحة التطبيق في نقده [1] .

---

(١) ص ١٧٦ من الوجهة النفسية . محمد خلف الله أحمد . طبعة ثانية ١٩٧٠م

وقد ثقف « سيد بن على المرصفى على مائدة القدماء . فحفظ من أشعار العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام ، واتصل بعلوم اللغة العربية إلى جانب ثقافته بالجامع الأزهر وكتبه التى درسها أبان عهده بطلب العلم واتصل بثقافات عصره ، وما جاءت به نسمات التطور والإصلاح من علوم ومعارف جديدة وأفاد من حركة البحث للتراث العربى فى اللغة والأدب ؛ فاطلع على الكتب المعتبرة فى الأدب واللغة ، وتكون له فكرة وذوق أدبى ينهل من معين القدماء ، ويبحث عن شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والإصابة فى الوصف . ويرى أن الأدب معين للحجة الواضحة . والحجة البليغة . والحكمة الهادية . والبيان الصحيح . ولسان العرب الفصيح إياسرك بمرسل مجازاته ويحلق بك مع حسن تشبيهاته ، وتنتشى مع بلاغة استعاراته، وتحظى بملاحة كناياته ، وتسر بلطافة إشاراته .

كما يرى أن الأدب : معنى ينفذ إلى الوجدان ؛ لصدقه وصفائه ، ولفظ جزل يؤدى المراد ، فى صراحة ووضوح ، أوفى براعة تلميح ، وتعبير مصيب للهدف من أقصر طريق ، موف بالغرض لم يجانبه التوفيق ، وأسلوب متساوق لانشاز فيه . تعاونت ألفاظه لإبراز معانيه . متلائم النسج . متآلف الأفكار .

وقد رأينا مقياسه الذوقى هذا يصاحب سيرته فى دراسته للنصوص ونقده لها . ويتجلى هذا فى عنايته . بأيضاح أساليب البلاغة والبيان . وفى الاهتمام بالمعنى الصادق المعبر عن روح قائله وعصره وبيئته العربية الخالصة . ويجدر بنا أن نوضح هده الجوانب التى برزت من خلال دراسته للنص الأدبى ونقده

لقد عنى « سيد بن على » بأساليب البلاغة والبيان بحيث لا يهتم بالاصطلاحات البلاغية ولا بالتقسيمات والتفريعات . بل يشير اليها بقدر ما يوضح المعنى ويعرف موطن الجمال . فاذا أشار إلى المجاز المرسل اهتم بالمعنى

الأصلى الذى نقل منه . والمعنى المجازى الذى نقل اليه والصلة التى أجازت هذا النقل . ومن ذلك تعليقه على قول الشاعر .

فى ليلة مزءودة ...

: يريد فى ليلة مزءود أهلها . فأسند إلى الليلة مجازا . لوقوع الزؤد فيها وهو الفزع[١] .

والمجاز يستحسن إذا وقع موقعه من النفس . ومنه تعليقه على قول الشاعر:

فانقها برد الهواجر ..

فانقها : نعمها : وإسناده إلى برد الهواجر مجاز حسن ، يريد أنها منعمة ببرد النسيم لا تمسها حرارة الهاجرة[٢] .

وإذا أجازت العرب استعمال اسم الجنس مكان الصفة إن افهم معناها أشار المرصفى إلى ذلك ، بل وأتى لنا بمثله ، ومن ذلك ما جاء عند دراسته لقول الإمام على كرم الله وجهه :

يا طغام الأحلام ..

فقال : ذلك أسلوب للعرب تستجيز أن تصف باسم الجنس إن أفهم معنى الصفة ، وذلك أن لفظ الطغام ، لما أفهم معنى الضعف ، استجاز أن يصفهم به كأنه قال : يا ضعاف الأحلام ، ومثل هذا قولهم للمرأة الدقيقة المرفق : إنها لإشفى المرفق ، والأشفى منقب للأسا كفة دقيق الطرف[٣] .

« والمرصفى » يوضح فى دراسته للنصوص و نقده لها ما جاء فيها من تشبيه يقرب المعنى ، ويظهر المعقول كالمحسوس ، يتناول ما فيـــه من خيال خصب وصورة شاعرية صادقة معبرة عن فكر الأديب وخياله وبيئته .

---

(١) ١١٧ أسرار الحماسة . سيد المرصفى .

(٢) ص ٧١ جـ ٩ . رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

(٣) ص ١٢١ جـ ١ رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

ومن الأمثلة على ذلك قوله فى شرح قول الشاعر :

حتى وفيت بها دهنا معقلة كالقار أردفه من خلفه قار

يبين بهذا التشبيه هيأتها وهى مناخة معقولة بعض صفوفها وراء بعض ، عند تسليمها اسيار[١] .

ومنه التشبيه المأخوذ من البيئة العربية فى صدقها ووضوحها . ويتمثل فى قول الشاعر :

فلا تبعثوها بعد شد عقالها .

يقول المرصفى : وقد شبه الحرب بناقة شد وظيفها مع ذراعها بعقال[١].

والتشبيه يجمع بين المتباعدين ويحسن وقعه فى النفس كلما وقفت على وجه الافتراق وإعجابنا بقول الشاعر :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

لأنه عرفنا بوجه الافتراق ، كما أعجب المرصفى بقول الشاعر :

كأنه يرقى نام عن غنم مستنفر فى سواد الليل مذءوب

فقال موضحا وجوه القرب : شبه الفرس بذلك الراعى وهو على هذه الحال فى شدة هوجه وسرعة حركته ، وطموح بصره[٢] .

وإذ قد عرفنا بعضاً من إشارات المرصفى البلاغية فى التشبيه فإن هذا يوصلنا إلى الحديث عن إشاراته فى الاستعارة فلها وثيق الصلة بالتشبيه وهى فرع له ، ولهذا نجد فيها ما وجدناه فى التشبيه خصب الخيال والصور الشاعرية المعبرة عن الانفعال النفسى والوجدانى للشاعر والأديب .

وقد رأينا المرصفى فى دراسته للنص الأدبى يوضح أسلوب الاستعارة

---

(١) ص ٩٤ : أسرار الحماسة . سيد المرصفى .

(٢) ص ٩٧ — أسرار الحماسة . سيد المرصفى .

(٣) ص ١٤ ج ١ — رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

حينا المعنى الأصلى والمعنى المنتقل إليه اللفظ ، ومن ذلك تحليله لقول ذى الرمة :

ورجل كظل الذئب ألحق سدوها وظيف أمرته عصا الساق أروح

يقول المرصفى : « أمرته عصا الساق » بيان لقوة الوظيف ، والأمرار فى الأصل إحكام فتل الحبل ، استعاره للشدة والقوة[1] .

ومنها شرحه لقول النابغة :

والراكضات ذيول الريط فانقها بردالهواجر كالغزلان بالجرد

حيث قال : الركض فى الأصل ضرب الدابة بالرجل يستحثها على السير ، استعارة لضرب الجوارى بأرجلهن[2] .

ويوضح المرصفى الاستعارة التخييلية ، مبرزا ما فيها من خيالات وصور مشرقة مثال شرحه لها ما جاء فى تفسيره لقول ذى الرمة :

وسوج إذا الليل الخدارى شقه عن الركب معروف السماوة أقرح

فقال المرصفى : أقرح : فى الأصل بياض فى وجه الفرس أصغر من الغرة استعاره لبياض الصبح يشق ظلمة الليل[3] .

والاستعارة التمثيلية تجرنا مع المرصفى إلى الأمثال العربية التى أخذت حظها من شروحه ففى الأمثال وجد أخلاق العرب وعاداتهم ومنعة الرجال للنساء أما النساء فهن ضعيفات لا يستطعن دفعا ولا يمتلكن قوة ، يمثل ذلك شرح المرصفى لقول القائل :

عن لحم على وضم .

فقال الوضم : ما وضع عليه اللحم من خشب ونحوه والعرب فى باديتها إذا نحر بعير للحى يقتسمونه ، كانت تقلع شجرا وتضع عليه اللحم مقطعا

---

(١) ص ٤٢ ح ١ : رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

(٢ و ٣) ص ٧١ ، ٥٢ ج ١ :رغبة الآمل من كتاب الكامل.سيد المرصفى

يأخذ منه كل شريك قسمه ، ولم يعرض له أحد ، وكانت تضرب له المثل فى ضعف النساء وقلة امتناعهن من طلابهن بذلك اللحم ما دام على الوضم(١).

كما وجد المرصفى فى الأمثال العربية ، أمثلة حبيبة لرجال بصيرين بعواقب الأمور يحتالون لتصريفها ، يقول المرصفى : والعرب تقول : هو حول قلب ، تريد أنه محتال بصير بتقليب الأمور ، ومنه قول معاوية ، وكان يقلب على فراشه فى مرضه الذى مات فيه : إنكم لتقلبون حولا قلبا إن وقى كبة النار ، يريد ركب صعب الأمور وذلولها وقلبها ظهرا لبطن وكان رضى الله عنه محتالا فى أمره حسن التقلب(٢) .

وأبرز المرصفى ما فى الأمثال العربية من قوة وتأثير خاصة عندما يستخدمها العربى فى مقام التهديد والوعيد . ومن هذا شرح المرصفى لقول الحجاج والله لأحزمنكم حزم السلعة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، حيث قال : غرائب الإبل : هى الغريبة التى تدخل بين الإبل حال ورودها الماء ، فتضربها الرعاء ضربا وجيعا ويطردونها ، وذلك مثل ضربه للتهديد والوعيد(٣) .

وأبرز المرصفى فى شرحه للأمثال العربية صفحات من تاريخ العرب ، وأيامهم واهتم بها كما اهتم بها غيره ، وانفعل بها كما انفعل بها غيره وشروحه مليئة بالكثير وفيما ذكرناه كفاية ..

ومن الأساليب التى وضحها ، سيد بن على ، مما له علاقة بالبلاغة والبيان العربى ويدل على ذوقه الأدبى : أسلوب الكناية والتعريض عندما يكون المقام موجبا لذلك ، ومن الأمثلة على ذلك قوله فى شرح قول الشماخ :

تدنى الحمامة منها وهى لاهية   من يانع الكرم غربان العناقيد

(١ و ٢) ص ١١٢ ، ٥٦ - أسرار الحماسة . سيد المرصفى .

(٣) ص ١٢ جـ ٢ : رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

فقال المرصفى : يريد العناقيد المشبهة بالغربان فى سوادها ، كفنى بذلك عن سواد شعرها وكثرة خطله(١) .

وقال فى شرح قول الشماخ :

أنا الجحاشى شماخ وليس أبى ... بنخسة لدعى غير موجود

منه نجلت ولم يؤشب به حسبى ... ليا كما عصب العلباء بالعود

وبعد أن وضح المرصفى معانى الألفاظ والعبارات قال : وهذا كله تعريض بالربيع(٢) .

ومن الأساليب العربية التى أبرزها «المرصفى» فى شروحه ، القول الموجز الذى يفيض بالمعانى والإيحاءات ؛ ويمتلىء بالمشاعر و «المرصفى» ينفعل به إذا جاء فى أروع صوره وقد رأينا «المرصفى» فى تفسير قول الله عز وجل «وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون» يقف أمام هذه الآية فى خضوع وخشوع قائلا : وإنها لآية ترهب القلب وتدهى العقل ، وتوهى القوى ، وتوهن العظم وفى حديث صفوان بن محرز أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية بكى حتى نقول أنه قد اندق قصص زوره ، يريد منبت شعره على صدره(٣) .

وإذا كنا قد أوردنا بعض الصور البلاغية الدالة على ذوق المرصفى فى إبرازه لها وحسن تعبيره عنها فاننا نجد اهتمام «سيد بن على» بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والإصابة فى الوصف ، سالكا فى نقده مسلك القدماء من النقاد ، فهو يبحث عن المعنى الصادق ، المعبر عن قائله ، واللفظ الجزل الذى لم تشبه الحضارة ، بترفها وزخرفها ولم تختلط به الألفاظ السهلة أو الاصطلاحات الفلسفية أو المنطقية ، كما يبحث عن الوصف الذى صادف محله بدون بعد أو تكلف ..

---

(١) ص ٧٦ ح ١ : رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

(٢) ص ٧٩، ٦٢ ح ١ : رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

(٣) صـ ٧٩ ، ٦٢ ح ١ رغبة الآمل من كتاب الكامل ؛ سيد المرصفى

فإذا أتى معنى غير صحيح ، أو لم يستقم لفظ فى وضعه فى مكان من الجملة ، أو جاء وصف متكلف ، أو بعيد عن موصوفه ، بين المرصفى ذلك ووجه الصواب فيه ، وإذا أصاب التعبير بين المرصفى ذلك أيضا .

وقد رأينا فى شروحه من ذلك عبارات نقديه منها قوله فى شرح قول الشاعر :

هواجس الهم بعد النوم تعتكر . .

ليته قال حين النوم[1] .

لقد كان صدور هذه اللمحة الذوقية من « المرصفى » اعتمادا على صحة المعنى واستقامة اللفظ ، فالهواجس تعتكر حين النوم لا بعده ، فالكلمة تكون جيدة إذا صادفت موقعها فى الجملة ، فاذا بعدت عنه ، أخلت بالمعنى المراد ، وكذلك الصفة إذا صادفت محلها فانها تكون جيدة ، أما إذا وصف بها من لا يستحق فان ذلك مما يضعف العبارة ، ولهذا رأينا المرصفى يشرح قول الشاعر :

تنالوا الغنى أو تبلغوا بنفوسكم　　إلى مستراح من حمام مبرح

فيقول : ويروى : من عناء مبرح ؛ وهى جيدة[2] .

ومن إشارات المرصفى التى تدل على ذوقه الأدبى قوله فى شرح قول الشاعر :

كفانى عرفان الكرى وكفيته　　كلوء النجوم والنعاس معانقه

يريد أن صاحبه عرفان كفاه أمر النوم فقام مقامه فيه ، وكفاه هو أمر السهر للحراسة فقام مقامه فيه وهذا معنى فاسد ، لأنك تقول كفانى فلان الأمر إذا قام بدونك ، فأغناك عن القيام به ، وليس كذلك النوم[3] .

(١) ص ١٢ : أسرار الحماسه سيد المرصفى

(٢) ص ٣١ : أسرار الحماسه سيد المرصفى .

(٣) ص ٥١ ، ٥٨ أسرار الحماسة سيد المرصفى

فالمعنى فى العبارة لم تستطع الألفاظ الموجودة أن تقوم به لأداء مايريده الشاعر ، وكما عبر فيما سبق فقال : ليته قال حين النوم فاختار من الألفاظ ما تستقيم به المعنى وتصح العبارة فانه يقول ذلك مرة أخرى فى موضع آخر تعليقا على قول القائل : ومتن مخصر . .

فيقول المرصفى : وليته قال : وكشح مخصر ، وذلك لأن الضمير صفة للبطن لا للظهر(١) .

والمرصفى بهذا يؤكد أن وضع اللفظ يجب أن يكون فى المكان الذى تصح به المعنى ، فاذا جاء لفظ آخر مكانه اختل المعنى .

وإذا ازدان الكلام بطريقة فريدة ، أو مبالغة حسنة تنبه ذوق المرصفى إلى ذلك ، فأشار إليه فمن هذا قوله فى تفسيره لقول الراعى :

وقدقادنى الجيران حينا وقدتهم وفارقت حتى ماتحن جماليا

قال : حتى ما تحن جماليا ، هذه أحسن غاية ذكرت فى معنى المفارقة ...

يريد : تعود الفراق حتى لا يحن إلى حبيب ، ولاتحن إبله إلى أليف(٢) .

ومن المبالغات الحسنة التى نبه عليها فى درسه لقول الشاعر عبد الله بن همام السلولى :

إذا نصبوا للقول قالوا فأحسنوا ولكن حسن القول خالفه الفصل
وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها أفاويق حتى ما يدر لها ثعل

فقال المرصفى : (حتى مايدر لها ثعل) الثعل « بضم الثاء وفتحها » خلف زائد صغير فى أخلاف الناقة وضرع الشاة لا يدر من اللبن شيئا .

يصف أنهم أحرص الناس على طلب المال يستنزفونه من خزائنه حتى لم يبق منه شىء . وهذه مبالغة حسنة فى معنى الاستئصال والنفاد(٣) .

(١) ص ٥١ ، ٥٨ أسرار الحماسة سيد المرصفى .

(٢) ص ٦٠ — أسرار الحماسة سيد المرصفى

(٣) ص ١٨٦ ج ١ رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

كما استجاد المرصفى حسن التعليل فى قول عنترة بن الأخرس المعنى من طيء :

إذا أبصرتنى أعرضت عنى   كأن الشمس من قبلى تدور

فقال : وما أجود قوله : كأن الشمس من قبلى تدور فى بيان معنى الاعراض يريد كأنك أبصرت الشمس تدور من جهتى، فلحقتك غشاوة من شدة أشعتها فلا تتمالك النظر (١) .

إن الشاعر المجيد عنـــد « المرصفى » هو من يفعل شعره بالقلوب ، ما تفعله الخمر بالعقول ، فقد جاءت فى درسه كلمة ابن عباس : ما عصى الله بشعر اكثر مما عصى بشعر عمر بن أبى ربيعة ، فقال المرصفى : أهذه مثلبة أم منقبة ؟ فأجاب أكثر الطلاب أنها مثلبة وأجاب أحدهم بأنهما منقبة ، فقال له . وكيف ؟ فأجاب : يريد ابن عباس أن شعر ابن أبى ربيعة يفعل بالقلوب ما تفعله الخمر بالعقول حيث ينقلها من الهـدى إلى الضلال ، فقال المرصفى فى حماسة شديدة لتلميذه : ايه ياعروس الأدب ! (٢) .

والمعانى الشاعرة تفيض بالمشاعر الجياشة ، والعواطف والعواصف التى تموربهما النفس البشرية فإذا عرضها المرصفى بالدراسة، عكس صورتها وجلى ماهنا لك من تهكم أو تعريض ، أو تصريح شنيع ، ونقرأ معا شرح المرصفى لقول الشداخ بن يعمر الكنانى :

قاتلى القوم يا خزع ولا   يدخلكم فى قتالهم فشـــل

القوم أمثالكم لهم شعر   فى الرأس لا ينشرون إن قتلوا

أكلما حاربت خزاعة تحدونى كأنى لأمهم جمـل

حيث يقول : القوم أمثالكم لهم شعر يريد لا تجبنوا عنهم فليس خلقتهم غير خلقتكم ، وهذا من أشد التهكم بهم .

---

(١) صـ ٦٨ . أسرار الحماسة سيد المرصفى .

(٢) صـ ٣٤ جـ ١ : البدائع : زكى مبارك ١٩٣٥ م .

ويقول : كأنى لأمهم جمل؟ يريد : مثل جمل ناضح يستقى عليه ، وفى تصريحه بالأم مخزاة لن تبيد(١) .

والمرصفى ينظر إلى المعنى من خلال، ما يريد نشاعر من تعبير عن إنفعالاته الخاضعة لقيم عصره ، والتى قد تتغير من عصر إلى عصر، ويوضح لنا المرصفى ذلك فى شرحه لبعض شعراء بلعنبر :

كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنسانا

حيث قال : هذا من التهكم والتعريض بأنهم جبناء(٢) .

قد كان يصح أن يعتبر هذا البيت مدحا لهؤلاء القوم لو أنه صدر لبيئة مسلمه تخشى الله ، ولكنه صدر فى عصر تسيطر فيه القوة على غيرها من القبائل الضعيفة ، ولذلك فهو يتهكم من قبيلته التى خذلته ولم تنتصر له ، وتمنى أن يستبدل بهم قوما أقوياء :

فليت لى بهم قوما إذا ركبوا شنوا الإغارة فرسانا وركبانا

وبعد أن رأينا مدى تأثر ذوق المرصفى بالمعنى الصادق النابع من البيئة العربية الخالصة ، ووضع الألفاظ فى موضعها المحكم ومطابقة الصفة للموصوف نجد أن هذا التأثر الذوقى فى الأدب قد جره إلى نقد تكلف المولدين ، فقد نظر إلى شعرهم فوجده شعرا متكلفا للبديع وكانت عنايتهم تتجه إلى الحلى اللفظية أما المعنى فهو سطحى لا شرف فيه أو اختلطت به مباحث الفلسفة والمنطق ، فصار إليه التعقيد وعدم الوضوح فتباعدت منهم أساليب العرب البادين فى صراحتها ووضوحها وفى صدقها ونقائها وسيرها مع الفطرة والسليقه العربية ومن أجل هذا فلا يصح الاستشهاد بقولهم فى القواعد النحوية .

وقد أشار المرصفى فى شروحه إلى صناعة المولدين وعدم صحة الاستشهاد بقولهم فى اللغة من ذلك تعليقا على قول الموصلى :

(١ ، ٢) ص ٧٠ ، ٧٨ . أسرار الحماسة سيد المرصفى .

الموصلى ، هو إسحاق ، وهو مولد لا يستشهد بقوله ... على أنه أورد الشطر على غير وجهه وصوابه على ما قبله وما بعده :

لا يروعنك شيبى فإنى مع هذا الشيب حلو مزير
قد يفل السيف وهو جراز ويصول الليث وهو عقير(١)

كما نبه المرصفى فى موضع آخر على صناعة التوليد فقال : هذا تفسير ما أنشده أبو تمام على ما فيه من صناعة التوليد(٢) .

وإذا كانت حفاوة « سيد بن على » بالمعنى العربى الصادق ، وباللفظ الجزل يأخذ مكانه فى الجملة وبالوصف يطابق موصوفه قد حدا به إلى نقد تكلف المولدين لألوان البديع وإخضاعهم المعنى للفظ ، ومزجهم الفلسفة والمنطق بالأدب فان ذوقه الأدبى قد اهتم إلى جانب ذلك إلى الوقوف على أصل المعانى وأول من ابتكرها ، ومن أخذ من المعنى الأول فى أدبه وشعره . واهتمام « المرصفى » بذلك إنما جاءه من صحبته للقدماء فى خلال تراثهم الأدبى « ولعل المبرد بكلامه فى السرقات ، وبحثه المستفيض فيها ، كان أول من فتح باب القول فى هذا الموضوع الدقيق من موضوعات النقد ، فولجه من بعده كثير من النقاد ، وتوسعوا فيه . وعدوه بابا من الأبواب الهامة فى النقد ، بل وفى البلاغة(٣) .

وقد أفاد « المرصفى » من القدماء ، واعتمد على كثرة محفوظه من نصوص الأدب العربى فى عصرى الجاهلية وصدر الإسلام وتكون له ذوق أدبى ارتوت جذوره من معين القدماء فكانت إشاراته الذوقية تمتد بعمق إليهم . ثم كانت إشاراته للسرقات الشعرية إمتدادا لمكونات هذا الذوق الأدبى لسيد بن على المرصفى .

---

(١) ص ١٩٢ ج ٥ رغبة الآمل من كتاب الكامل . المرصفى .
(٢) ص ٢٠ أسرار الحماسة . المرصفى .
(٣) ص ١٩٣ دراسات فى نقد الأدب العربى - بدوى طبانة - ط ثانية ١٩٥٤

وقد وجدت بمخطوطة الحماسة الصغرى بمكتبة المرصفي بجامعة الأسكندرية صفحتين قبل بدايتها دون فيهما المرصفي بعض المعاني الشعرية ذات الهدف المشترك ، وهو فيها قد يشير إلى أول من ابتدع المعنى وقد لا يشير . فمن الأول قوله :

يتعاوران من الغبار ملاءة غبراء محكمة هما نسجاها
تطوى إذا وردا مكانا جاسيا فإذا السنابك أسهلت نشراها

وأول من نظر إلى هذا المعنى شاعر من بنى عقيل قال :

فثار مروان يجاريها القطا ويمشى بها الجاران يفترقان
يثيران من نسج الغبار عليهما فيصير أسمالا ويرتديان

ومما ذكره المرصفي ولم يشر فيه إلى أول من ابتدع المعنى قوله :

من قول الوليد بن يزيد المغربي يصف الخيلان :

تتنفس الصهباء فى لهواته كتنفس الريحان فى الآصال
وكأنما الخيلان فى وجناته ساعات هجر فى ليال وصال

لأبى بكر الدانى يصف الخال :

بدا على خده خال يزينه فزادنى شغفا فيه إلى شغف
كأن حبة قلبى حين رؤيته طارت فقلت لها فى الخدمنه قفى

ومن إشارات المرصفي فى مؤلفاته قوله فى شرح قول الشاعر :

جيش تضل البلق فى حجراته بيثرب أخراه وبالشام قادمه
إذا ماخرجنا خرت الأكم سجدا لعز علا حيزومه وعلا جمه

وقد سرق الشاعر صدرى هذين البيتين من قول زيد الخيل :

بجيش تضل البلق فى حجراته ترى الأكم منه سجدا للحوافر(١)

---

(١) ص ١٣٨ : أسرار الحماسه . سيد المرصفي .

كما أشار إلى أول مبتدع للمعنى من الشعراء ومن أخذه عنه من بعده حين قال فى دراسته لقول الأعشى :

وإن عتاق العيس سوف تزوركم ثناء على أعجازهن معلق

وهذا المعنى أول من ابتدعه الأعشى .وأخذ من بعده من الشعراء، ومنهم « نصيب » قال :

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليه الحقائب[١]

ونتساءل : هـــل فيما فعله « سيد بن على » فى نظرته « لوضع الكلمة مع صاحباتها فى التركيب ، وحملها على ما يناسب من المعانى بشهادة الأساليب » هل فى ذلك تشيع لرأى «عبد القاهر الجرجانى » الذى يرى أن الكلمة المفردة لاقيمة لها قبل دخولها فى التأليف ، وقبل أن تصير إلى الصورة التى يؤدى بها الكلام غرضا من أغراضه ، وأن جمال الأساليب ليس بما فيـــه من بديع أو بيان بل بما فيه من قوة السبك،ومن العلاقات المستجنة فى التركيب كالفصل والوصل[٢] ..

لقد تشابه الرجلان فى اعتماد كل منهما على المعنى المفهوم من السياق وقد تأثر « سيد بن على » بنظرية عبد القاهر ، فى نظم الكلام ، وترتيب معانيه ومايحمل من علاقات ومقدار صدقه وتأثيره .

وإذا كان « عبد القاهر » قد انحاز إلى جانب المعنى ، وأرجع كل مزية فى الكلام إليها وثار على الصناعة اللفظية التى استشرى خطرها فى القرن الرابع الهجرى،وفى القرن الخامس الذى عاش فيه . فكانت وقفته فى وجه هذا التيار الذى أخذ يضعف من صفاء الأدب وصدقه ويقض على جوهره ونقائه ..

فإن « سيد بن على المرصفى » هو الآخر قد عاصر الأزهر فى النصف الثانى

(١) ص ٤٣ ح ١ . رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

(٢) راجع النقد الأدبى . شوقى ضيف . وراجع أسرار البلاغة الجرجانى

من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ورأى « نفوس القوم مصروفة إلى تحقيق المسائل العلمية والمباحث العقلية » والعلم عندهم ، من نظر في الاستدلال ، وأكثر طرق الاحتمال ، وولد من الكلام مالا يولد ، وأوجد الإفهام مالا يوجد[١] ..

وعاش في زمن صار الأدب فيه « أن تقول شعرا مقفى موزونا ، فإذا أعوزك العروض ، وعميت عليك أوزان الشعر ، فحسبك أن يكون المصراع في طول المصراع ، على شرط أن تتغزل ، فتتغزل كلما طلبت مديحا أو رثاء أو هجاء[٢] .

وكذا كان الأزهر في تلك الفترة يعنى بالصناعة اللفظية ، وتوليد الكلام والفتقلة الفلسفية ، وجاء الإمام العليم « محمد عبده » قائلا :

« لا يمكن لهذه الأمة أن تقوم مادامت هذه الكتب فيها ، لن تقوم إلا بالروح التي كانت في القرن الأول، وهي القرآن ، وكل ماعداه فهو حجاب قائم بينه ، وبين العمل والعلم[٣] .

وجاء صدى صوت الإمام من صديقه الشيخ « سيد بن علي » فسمعناه ينادي من داخل الجامع الأزهر ومن بين درسه الأدبي :

« ولو علموا — هداهم الله تعالى — ماعلمناه من خصائص اللغة العالية في أساليبها وما أودعت من لطائف الأسرار في تراكيبها ، لهجروا تلك الكتب ذوات التنافر والتعقيد ، واعتنقوا لغة القرآن المجيد ، والحديث الحميد[٤] .

ولهذا التشابه في التيارات الفكرية بين العصرين، تشابه الرجلان في نزوعهما

(١) مقدمة أسرار الحماسة سيد المرصفي .

(٢) الرسالة العدد ٦٩ عبد العزيز البشري ، راجع مجلة الأديب عدد أغسطس ١٩٦٥ محمد رجب البيومي .

(٣) ص ٥١ الأزهر بين الماضي والحاضر ، منصور على رجب ١٩٤٦م .

(٤) مقدمة أسرار الحماسه سيد المرصفي .

للمعنى ، والبحث عن خصائص التراكيب اللغوية . وما أودعت من أسرار ولطائف ، جاءت من حسن سبكها، وتساوق معانيها ، وإذا كان عبد القاهر قد سبق بتأليف « أسرار البلاغة » فقد جاء المرصفي بكتابه « أسرار الحماسة » .

وارتقى الزجلان بالأدب إلى منازله الرفيعة ، في شرف معناه ، وسلامة أساليبه .

وبعد أن أدركنا ما امتاز به « سيد بن علي » من تذوق الأدب في عباراته البلاغية ، في أدائه للمعنى في صدق، وأنه قد استمد روافده في هذا من القدماء ، إبان ازدهار عصور الأدب والنقد الأدبي ، فإنه ليجدر بنا بعد ذلك أن نتعرف على ما يتصل بذوقه الأدبي من نقد لأخطاء وقع فيها الرواة أو الشراح، لنرى تصويبات « سيد بن علي » على هؤلاء وهؤلاء ، وهذا ما سأعرضه في الفصل التالي بمشيئة الله بعنوان « نقد وتصويب » .

الفصل السادس

نقد وتصويب

١ — نقد وتصويب لقائلي النصوص والآثار .

٢ — نقد وتصويب للنصوص والآثار .

٣ — نقد وتصويب لأقوال الشارحين .

٤ — عبارات التصويب .

يعد هذا الفصل من الركائز الأساسية،فى منهج « سيد بن على » فى دراسته للنص الأدبى ، ونقده ، وقد نبه عليه فى مقدمته لكتابه « رغبة الآمل من كتاب الكامل » ، وكتابه : « أسرار الحماسة » كما أشار إليـــه تلامذته ، والمؤرخون لمنهجه .

وقد تعرض المرصفى فى تصويباته ، لتصويب قائلى النصوص ، وصحة نسبتها ، وتصويب مروياتهم من الأشعار ، والأقوال المأثورة ، والأخبار ، كما قام بتصويب ، بعض ألفاظ اللغة فى مبناها ومعناها ، وتصويب ترتيب أبيات القصائد ، وتصويب معانيها ، وأقوال الشارحين لها ، والمرصفى فى كل ذلك يصدر عن ذوقه الأدبى ، وثقافته الناهلة من التراث العربى ، يتحدث فى حرية مطلقة فى جميع تصويباته ، فهذه الحرية كانت ديدن القدماء فى أحاديثهم وقد حفظ من شعرهم ونثرهم ما كان صادرا عن حـــرية وشجاعة ودون خوف أو رهبة ، ولهذا رأينا نقد المرصفى وتصويباته هذه تمتلىء بها شروحه ودروسه وسنقف عليها فيما يلى .

لقد رأى « المرصفى » أن أبا تمام ، وأبا العباس ، قد يجانبهما التوفيق

فيخطئان فى نسبة النص لقائله ، أو فى التعريف به ، والخطأ الذى يقع فيه أبو تمام يرجع إلى اعتماده فى روايته على ذوقه الأدبى ومحفوظه من الشعر العربى دون رجوع إلى دواوين الشعراء . ومثل هذا الخطأ قد وقع فيه أبو العباس المبرد ، والمرصفى إذاوجد تحريفا لبعض الأسماء ، وقع فيه واحد منهما ، أشار إلى صحته ، مستندا إلى الموثوق برواياتهم وتراجمهم فمن ذلك قول أبى تمام : « ابن عباد » .

فقال المرصفى : ذلك تحريف،وصوابه على ماروى أبو هلال : ابن عيار[١] كما يستند فى تصويبه بما روى من شعر ، ورد بين ألفاظه صحة الاسم المقصود ومن ذلك تصويبه لما ذكره أبو تمام من قوله : « ابن دارد » .

فقال المرصفى : هذا غلط ، وصوابه : « ابن داذ » ، وقد ذكر فى شعر له يتشوق فيه إلى بنات عمه :

من بنات الكريم داذ وفى كندة ينسبن من أباة اللعن[٢]

كذلك يهتم : (سيد بن على) بنسبة الشعر إلى قائله ، وهو يصوب من أخطأ فى ذلك ، مستندا إلى الراوى الثقة ، نرى ذلك حين قال أبو تمام :

وقال عنترة بن الأخرس .

فقال المرصفى ، وقد غلط أبو تمام فى نسبة الشعر إليه ، والصواب ماذكره الأصبهانى فى أغانيه ، أن الشعر لعبد الله بن الحشرج أحد بنى جعدة[٣] ؛

والمرصفى لا يأخذ بقول أحد من الرواة إلا إذا وثق منهم ، وعرف مقدار قوتهم ، والأخذ عنهم ، ولهذا فقد رأيناه يتحدث عن قوة الرواة وضعفهم ، وإمكان صحة أقوالهم ونسبتها للقائلين ، فمن ذلك قوله عن « نوح بن دراج » :

(١) ص ٦ : أسرار الحماسة (سيد المرصفى .

(٢) ص ٩ : أسرار الحماسة . سيد المرصفى . والبيت من الخفيف .

(٣) ص ٦٧ أسرار الحماسة : سيد المرصفى .

قال فيه النسائى إنه ضعيف متروك الحديث ، وقال يحي بن معين : لم يكن يدرى ما الحديث ، ولم يحسن شيئا[١] .

ومن ذلك قوله معلقا على ما أورده أبو العباس : (وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال لأبي تميمة الهجيمى .. فقال المرصفى : كذا روى أبو العباس ، وقد أنكره أبو عمر بن عبد البر فى كتابه ، الاستيعاب ، قال : لا يعرف فى الصحابة أبو تميمة ، قال : وأبو تميمه هـذا هو طريف ابن مجالدا الهجيمى بصرى ، روى عن أبى هريرة وغيره ، وذكره من ألف فى الصحابة وقد غلط[٢] .

وإذا لم يستطع الراوى أن يوضح مناسبة الشعر ، رأينا المرصفى يرجع إلى ذلك للايضاح والبيان ، ومن ذلك قول المرصفى تعليقا على قول المبرد: فقد قيل فى بيت الأعشى :

أرى رجلا منهم أسيفاً كأنما　　　يضم إلى كشحيه كفا مخضبا

فقال المرصفى : لم يعلم أبو العباس السبب الذى قيل فيه هذا البيت وقد ذكره أبو محمد الأعرابى فى كتابه فرحة الأديب قال : كان سبب ذلك.[٣] إلخ .

وإذا عرف المرصفى المناسبة التى قيل فيها هذا البيت ، فإنه استطاع أن يحـدد المعنى المقصود من لفظ (أسيفا) التى وردت فى بيت الأعشى فقال المرصفى : وإذا كان ذلك كذلك فالأسيف هو صاحب الراحلة من الأسف بمعنى الحزن فى غضب .. ثم يقول بعده هكذا ينبغى فهم البيت لا ما ذكر أبو العباس ، على أن ما ذكره لو كان كما يقول لضاع التشبيه .

و (سيد بن على المرصفى) كما كان له نقد وتصويب ، يتصل بمقدمات

---

(١) ص ٢٠ حـ ٥ : رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

(٢) ص ١٥٤ جـ ١ رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

(٣) ص ١١٩ حـ ١ رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

النص ، من تصويب لأسماء القائلين ، أو تصحيح لنسبة أو مناسبة كما تقدم ، فقد عنى كذلك بالنقد والتصويب فى اللغة مبنى ومعنى ، فقد راجع أصحاب المعاجم اللغوية ، وكثيرا مانهض لتصحيح أخطائهم ، وتصويب آرائهم .

وقد كان عدم الإعجام ونقط الحروف قديما سببا فى إحلال ألفاظ محل ألفاظ أخرى متشابهة فى الصورة . ولكنها تختلف فى المعنى ، وقد تنبه ذوق (سيد بن على المرصفى) لكثير من هذه الألفاظ ، فصححها وردها لأصلها المناسب ، ومن ذلك تصويبه للفظ (شاء) فى قول الشاعر :

وإن العزيز إذا شاء ذل[١]

فصححه (المرصفى) إلى ساء (بعدم النقط والاعجام ، كما صحح لفظ) يقينه إلى : (نعيه)[٢] ولفظ (يابس) إلى (نائس) قال المرصفى : وعن أبى الفتح بن جنى : من رواه (يابس) فقد أفحش فى التصحيف ، والرواية (نائس) : بالنون ، من ناس ، ينوس ، إذا تحرك واضطرب[٣] .

وكثير من الشراح السابقين عندما يمر بهذا التصحيف لا ينتبه إليه ، ويفسر النصوص على ماجاء بها من تصحيف ، متكلفا لمعانيه ، غير شاك فى الأصل الذى أخذت عنه ، وجاء (سيد بن على المرصفى) فراجع أمثال هؤلاء ، فأبرز الخطأ وأرشد إلى الصواب . ومن ذلك ما جاء فى رواية أبى تمام :

مستجير مراتعة[٤]

فقال المرصفى : كذا أنشده أبو تمام ، ، وأعربه من كتب ، نعتا لحى كل قوم ، وفسره قال : أباحت رماحنا حمى كل قوم استجارت مراتعه بكل

(١و٢) ص ٣٦٠٢ : أسرار الحماسة . سيد المرصفى .

(٣) ص ١٤٢ ح ١ : رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

(٤) من قول الشاعر :

منعنا حمانا واستباحت رماحنا حمى كل قوم مستجير مراتعه

بجير قوى ، وقد أخطأ صناعة الإعراب فإنها تقتضى نصبه لاجرد ، وجهل لغة العرب ، فإن استجارك فلان ، معناه سألك أن تجيره ولامعنى لاستجارة المراتع ، على أنه جعل اللفظ من الموجز المعيب الذى قصر لفظه عن أداء معناه ، مع عدم دلالته على ماقصد من حمايتها ، وهاك الرواية :

حمى كل قوم مستحيرا مراتعه .. بالحاء .

يريد : أن مراتعه مستحيره النبات ، مترددا فيها ، لايكاد ينقطع ، من قولهم : استحار الماء فى الوادى ، إذا اجتمع وتردد فيـــه ، ولا مصرفا له ، والعرب تقول لكل شىء ثابت دائم ، لايكاد يزول ولاينقطع : مستحير ، ومتحير ، وبهذا تبين لك ماقصد الشاعر ، من شدة النكاية بكل قوم أعزاء ، يصعب عليهم استباحة أحمائهم ، ذوات الخصب والنماء[1] .

وإذا رأينا الشراح يبعدون فى شروحهم عن المعنى المقصود ، بسبب عدم وقوفهم على التصريف اللغوى للألفاظ ، وينظرون إلى بناء بعيد ، يبعد معه المعنى المراد ، فإن المرصفى ينتبه بذوقه الأدبى إلى مثل ذلك ، نراه مع المبرد فى عبارته : (أنيض لم ينضج) .

فيقول المرصفى : هذا تفسير أبى العباس ، وتابعه الأعلم النحوى ، شارح ديوان زهير ، فجعلاه وصفا ، من : أنض اللحم ، (بالضم) أناضة : لم ينضج ، يكون ذلك فى الشواء والقديد ، فيكون معناه : تلجلج مضغة ، فيها جزء مسته حرارة النار أو الشواء ، ولم ينضج ، وهذا المعنى لايريده زهير على أنه لايناسب قوله (أصلت) ، ولا قوله : (غصصت بنيئها) وذلك أنه يقال : (أنض اللحم) إذا أنتن وفسد ، والأصل فى اللحم النىء (بكسر النون مهموزا) مالم تمسه النار ، فالصواب أن يكون الأنيض ، مصدر أنض اللحم يأنض (بالكسر)

---

(١) ص ١٣٣ أسرار الحماسة . سيد المرصفى .

إذا تغير ، فيكون معناه ، تلجلج مضغة فيها تغير وفساد ، وهـــذا ما أراده زهير[١] .

وكان للمرصفى تصويبات كثيرة نحوية إلى جانب تصويباته الصرفية ، ومن الأمثلة عليها رده أبا العباس المبرد فى قوله : وقوله صلى الله عليه وسلم المتفيهقون إنما هو بمنزلة قوله الثرثارون . توكيد له : فقال المرصفى فى ذلك صواب لو كان معناهما واحد وليس كذلك ، وكأن أبا العباس ذهل عما ذكره من اشتقاقه وبيان معناه وهو الامتلاء ، فالصواب أنه تأسيس لا توكيد[٢] .

وقد انتقد صاحب الكامل قبل المرصفى ، على بن حمزة فيما كتبه على الكامل وقد أتى المرصفى بمقالته فى ذلك ، ثم نحى عليه باللائمة حيث قال على بن حمزة : الرواية (فى معاوزه) (بهاء الضمير) وقـــد أطال لسانه . ثم قال : وإنما استجلب أبو العباس هذه الهاء ليأتى بما أتى به من التفسير الذى لا يحتاج إليه .

فقال المرصفى : وكأن ابن حمزه لم يدر أن المعرفة لا توصف بالنكرة[٣] .

ومن التصويبات التى تناولها المرصفى ، تصويباته المعانى ، وحجته فى ذلك أئمة اللغة ومن ذلك تصويبه لقول المبرد : ويقال فى معنى أسيف عسيف فقال المرصفى : يريد أن العسيف يكون الأجير ويكون الأسير ، وهـــذا مما تفرد به أبو العباس . وأئمة اللغة أجمع تقول : العسيف الأجير المستهان به ، أو العبد المستهان به ، ولم يقل أحد منهم أنه يكون الأسير .. وقال المرصفى : وهو إما فعيل بمعنى فاعل من عسف له إذا عمل له ، أو بمعنى مفعول من عسفه إذا استخدمه .

ويصويب المرصفى لأبى العباس المبرد الكثير من المعانى التى حاد عن

---

(١) ص ٨٧ ج ١ . رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

(٢،٣) ص ٢٣ ، ٢١٧ ج ١ رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .

الصواب فيها ، ومن ذلك رده على أبى العباس حينما قال : (يقال حقب البعير إذا صار الحزام فى الحقب) حيث قال المرصفى : هذا من أبى العباس تقول على العرب ، على أن عبارته فاسدة ، وذلك أن الحزام هو الحقب فكيف يصير الشىء فى نفسه ، على أنه لايناسب معنى المثل ، وإنما العرب تقول حقب البعير (بالكسر) حقبا إذا وقع الحقب على ثيله فتعسر عليه البول ، وهذا أيضا لايناسب معنى المثل ، والأجدر بأبى العباس أن يذكر مايدل على شد البطان والحقب ، يقول : يقال أبطنت البعير وأحقبته ، إذا شددت بطانه وحقبه[١] .

وكما عرفنا تصويبات المرصفى للغة فى مبناها ومعناها . وكما رأينا من عنايته بنسبة النصوص لقائليها ، وتصحيح النسبة أو المناسبة التى ألقيت فيها ، نجد كذلك أن المرصفى كان يعنى بنقد الرواة الذين أخطأوا فى ترتيب الأبيات ، بتقديم بعضها على بعض ، وكذا عنى بتصحيح الرواية إذا حدث فيها تحريف بإبدال بعض ألفاظها أو عباراتها ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، وقد ذكرت فى الفصل الرابع أثناء حديثى عن القصيدة العربية وعناية المرصفى بها بعضا من ذلك ، وأزيدك شيئا فى هذا المقام يدل على نقده للرواة الذين أخطأوا فى ترتيب الأبيات ، فمن هذا ما أورده المبرد للخنساء :

فلولا كثرة الباكين حولى   على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولكن   أعزى النفس عنه بالتأسى
يذكرنى طلوع الشمس صخرا   وأذكره لكل غروب شمس

فيقول المرصفى : قدم أبو العباس وأخر فى هذه الأبيات ، وها هى برواية ديوانها :

يؤرقنى التذكر حين أمسى   وتردعنى عن الأحزان نفسى

---

(١) ص ١٠٠ ج ١ رغبة الآمل من كتاب الكامل سيد المرصفى .

على صخر وأى فتى كصخر ليوم كريهة وطعان خلس
ولم أر مثله رزأ لجـــن ولم أر مثله رزأ لأنس
يذكرنى طلوع الشمس صخرا وأذكره لـكل غروب شمس[1]

ويقول المرصفى مصححا رواية أبي تمام :

وقوله : « قتلوا .. » قدم أبو تمام هذا البيت على مابعده ، والروايه :

عذرت جذيمة غير أنى لم أكن أبدا لأولف عذرة أثوابى
قتلوا ابن أختهم وجار بيوتهم من حينهم وسفاهة الألباب[2]

وإذا جاء عجز البيت غير مطابق لصدره ، بحث عن الرواية الجيدة ، ومن ذلك تعليقه على قول الشاعر :

« وما العجز إلا أن يضاموا فيجلسوا »

فقال : وهذا الشطر غير ملائم للصدر ، والرواية الجيدة عن أبي عمرو :

وما اليأس إلا حمل نفسى على السرى
وما العجز إلا نومة وتشمس[3]

وبعد فلقد رأينا قليلا من كثير ، من وقفات المرصفى النقدية لصاحب الحماسة ، وشراحها ولأبى العباس وتفسيراته ومروياته ، وقد شرح الحماسة قبل المرصفى المرزوقى ، والخطيب التبريزى الذى أكثر من اللغة ، كما ألف أبو الفتح عثمان بن جنى كتابه « التنبيه فى شرح مشكل أبيات الحماسة »[4] ،

---

(١) ص ٨٥ ج ١ : رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفى .
(٢) ص ٩٢ : أسرار الحماسة . سيد المرصفى .
(٣) ص ١٦ : أسرار الحماسة . سيد المرصفى .
(٤) مخطوطة بدار الكتب رقم ٤٤ أدب .

ونظرة لشرح أحد النصوص من الحماسة للرجلين توقفنا على رأي كل منهما في رواية أبي تمام، والنص الذي أمامنا هو قول تأبط شرا .

هما خطتا إما إسار ومنة وإمادم ، والقتل بالحر أجدر

يقول ابن جني : أما من جر إسار ومنه فأمره واضح ، وذلك أنه حذف النون للإضافة ، ولم يعتد بأما فاصلا بين المضاف والمضاف إليه ، وعلى هذا تقول : هما غلاما إما زيد وإما عمرو ، وهذان ضاربا إما زيد وإما جعفر .

وأما الرفع فطريف المذهب ، وظاهر أمره أنه على لغة من حذف نون التثنية ، لغير أضافة ، فقد حكى ذلك ، ومما يعزى إلى كلام البهائم ، قول الحجلة للقطاة : بيضك ثنتا وبيضي مائتا ، أي ثنتان ومائتان ، وقول الآخر :

لنا عنز لبن ثلاث فبعضها لأولادها ثنتا وما بيننا عنز

وذهب الفراء في قوله :

لها متنتان خظاتا كما أكب على ساعديه النمر

إلى أنه أراد خظاتان ، فحذف النون استخفافا ، واستدل على ذلك بقول الشاعر :

ومتنان خظاتان كزحلوف من الهضب(١)

فقد رأينا ابن جني يوجه ماجاء به الرواة،غير شاك فيالراوي ولا روايته ملتمسا لتوجيهه بعض الشواهد الضعيفة .

فإذا انتقلنا إلى شرح ديوان الحماسة لأبي على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي المتوفى ٤٢١ هـ ، نجده في شرحه لبيت تأبط شرا يقول :

هما خطتا إما إسار ومنة وإما دم : الخطة مأخوذه من الخط وهي تجرى مجرى القصة . وإن كان لها مواضع تنفرد بها ، وحذف النون من « خطتا »

(١) انظر مخطوطة ابن جني ص ٣٨ ت ٣٩٢ هـ .

إذا رفعت « إما إسار » استطالة للاسم ، كأنه استطال خطتا ببدله وهو قوله إما إسار «كما استطال الشاعر الآخر الموصول» بصلته والموصوف» بصفته فقال :

أبنى كليب إن عمى اللذا قتلا الملوك وفككا الاغلالا

فحذف النون من اللذا ومثله فى الحذف قول الآخر :

لها متنتان خظاتا كما أكب على ساعديه النمر

فحذف النون من خظاتا ، وقول الآخر :

لها أعنز ابن ثلاث فبعضها لأولادها ثنتا وما بيننا عنز

ويجوز أن يكون الحذف على وجه الحكاية كأنه قال : هما خطتا قولكم إما كذا ، وإما كذا فلما نوى ذلك حذف النون للاضافة(١) .

وإذا رجعنا لشرح التبريزى لنفس البيت وجدناه يقول :

هما خطتا إما إسار ومنة وإمادم — هما أى الأمر والقصة ، وخطتا مثنى خطة وبينهما بقوله : أما أسار أى أسر ومنة وأمادم أى قتل ، وحذف النون من خطتا لطول الكلام . ويجوز فى أســـار ومنة الجر على أقحام أما بين المتضايفين والمعنى ليس لى إلا واحد من أمرين على زعمكم ، أما أسار والتزام منتكم إن أردتم العفو وإما قتل وهو بالحر أجدر ، أى أحق بما يكسبه الذل ، وجملة والقتل بالحر أجدر اعتراضيه بين ماعده من الخصال(٢) .

فإذا نظرنا إلى رأى المرصفى فى ذلك وجدناه يقول :

كذا أنشده أبو تمام بلفظه ، فوسط «إما» بين المضافين ، وذلك مما لا تعترف به النحاة ، و الأغرب من ذلك رواية بعضهم : [ابن جنى] .

إما إسار ومنـة وإمادم ..

---

(١) ص ٧٩ حـ ١ شرح ديوان الحماسة — المرزوقى .

(٢) مختصر شرح التبريزى ط صبيح ١٩٥٥ مطبعة لجنة التأليف والترجمة سنة ١٩٦٧ م .

بالرفع ، وحكم بأن حذف نون خطتان ضرورة ، ولانعلم من عدها من الضرورات إلا هو والفراء فى قول أمرىء القيس :

لها متنتان خظاتا كما أكب على ساعديه النمر

وقد تخلص من هذه الضرورة ، التى لاتكاد تعرف فى كلام العرب (على ابن حمزة الكسائى ، فقال : أراد خظتا ، فلما حرك التاء ، رد الألف التى هى بدل من لام الفعل .. هذا والرواية .

لكم خصلة إما فداء ومنة وإما دما ، والقتل بالحر أجدر

بنصب فداء وما بعده على إضمار تختارون[١] .

فجاءت نظرة « المرصفى » لتخلص من الضرورات التى لاتكاد تعرف فى كلام العرب ، ويجدر بنا القول بأن المرصفى لم يتبع فى نقده ، أو دراسته للنص الأدبى فيما ألف من أسرار الحماسة لم يتبع قوما مدوا أيديهم إلى ذلك الديوان ، بل كانت مهمته دائما ، الوصول إلى المعنى الذى أراده — الشاعر من أقرب طريق ، وتحقيق أقوال الشعراء ، مما علق بها من شوائب ..

وإذا نظرنا إلى كتاب الكامل للمبرد ، نجد أن « أبا القاسم على بن حمزة البصرى » المتوفى فى عام ٣٧٥هـ = ٩٨٥م قد ألف كتابه «التنبيهات على أغاليط الرواة » وقد نبه فيه على الأخطاء الواردة فى عدد من مؤلفات عصره ، من بينها الكامل للمبرد ، وكتب أخرى . وقد أخذ على المبرد ماعده أخطاء فى تفسير عدد من الكلمات ، وفى رواية أبيات من الشعر ، ونسبته لقائله ، أو شرحه وأغاليط تتصل بالنحو والتاريخ ، وختم تنبيهاته عن الكامل بقوله : هذا آخر ما أخذناه على أبى العباس مما لاعذر فيه ، وقد سامحناه فى كثير من الاغلاط[٢] ..

---

(١) ص ٥٧ . أسرار الحماسة . سيد المرصفى .

(٢) ص ٢٠٢ دراسة فى مصادر الأدب . طاهر مكى ١٩٦٨م .

والمرصفي قد يشير إلى نقد أبي القاسم للمبرد ، ولكنه لم يسر وراءه ، بل كان له رأيه الذي قاله في ثقة واعتزاز ، ومن ذلك قوله :

هذا ، وقد انتقد أبا العباس علي بن حمزة البصري قال : قد أساء أبو العباس في أن جعل « غار الطائر فرخه » من الغرار ، وإنما هو الغر ، والغر : الزق ، قال نهشل العنبري :

يربب بيضه ويغر فرخا ترعرع غصنه ريح خريق

هذا كلامه ، ولعمري ما أساء إلا نفسه ، وكيف سوغ لنفسه أن تنكر ما أثبته يد اللغة ، قال الأصمعي : الغرار أيضا : غرار الحمام فرخه إذا زقه ، وقد غرته تغره « بالضم » غرا وغرارا ، وكذلك قال : وغار القمري أنثاه غرارا ، إذا زقها ، فأنت تراه قد استعمل الغرار مصدرا للفعل الثلاثي والرباعي(١) .

وهنا كذلك نستطيع أن نقول : بعد معرفة رأي المرصفي فيمن توجهوا بالنقد للمبرد إن هذا الرجل كان يقف على الأقوال وقفة العالم الأديب . يزنها بذوقه الأدبي واللغوي ، ويدرسها شارحا ومحللا ، وينقدها بذوق فطري فيه ، نماه بما ثقفه من ألوان التراث العربي ، الذي شب في عهده بعد دعوات المصلحين لإحيائه وكان في كل دراسته للنص الأدبي يعتز بما أخذه عن القدماء وما حفظه من أشعارهم وأقوالهم في عصوره الزاهرة ، التي بعد فيها اللسان العربي عن التحريف والعجمة ..

وبعد لقد كانت « لسيد بن علي » عبارات للتصويب والنقد ، ومن هذه العبارات نقتطف منها ما يلي : وزعم الكاتبون أن الخطاب للنعمان بن المنذر

---

(١) ص ٢٢٨ ج ١ . رغبة الآمل من كتاب الكامل . سيد المرصفي .

وهو غلط[1] قدمه أبو تمام وصنع فيه ، ومحله آخر الأبيات ، وسنذكره بروايته[2] ـ عن أبي محمد الأعرابي أن الرواية[3] ـ وتكلف له الكاتبون . والرواية[4] لو أنصف أبو العباس لجعله شاهدا على المعنى الأول[5] أو آم هذا الضبط غلط ، صوابه آرام[6] هذا ذهول من أبي العباس . فسر الكلمة بما لا يراد منها في تركيبها . والصواب[7] كان المناسب للفظ البيت أن يقول : ... فقلبه أبو العباس ، ثم إنه غلط في روايته وتفسيره[8] .

وأمثال هذه العبارات كثير في أسرار الحماسة ، ورغبة الآمل ، ولو أردت استيعابها ، لضاقت بنا الصفحات .

ولقد أثير حول هذه العبارات ، انتقادات . لما جاء في بعضها من قسوة وجرأة فاتهمه البعض بخلق الغرور والادعاء فقال : إن مؤلفات المرصفي تنم عن خلق الغرور والادعاء :. وإنه لتأمل هذا الخلق فيه كان شديد التحامل على المبرد والتشهير به . فيما يظن أن المبرد أخطأ فيه، وكم كنا نتمنى للشيخ المرصفي أن يجرد علمه من غروره ، ويسبل على تآليفه ثوبا ضافيا من التواضع والاعتدال حتى يكون ذلك أبين لفضله ، وأدل على نبله[9] .

وقال عنه البعض : إنه كان كثيرا ما يقسو في نقد المبرد ، فيرسل جملا فيها من الجرأة ما لا يتفق مع مقام هذا الإمام الجليل ، كأن يقول كذب

(١ ، ٢ ، ٣) : ص ١٨ ، ٦٨ ، ٧٦ : أسرار الحماسة . سيد المرصفي .

(٤) ص ٩ أسرار الحماسة . سيد المرصفي ١٩١٢ .

(٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨) : ص ٨ ، ١٣٩ ، ١٦١ ، ١٧١ ج ١ : رغبة الآمل من كتاب الكامل : سيد المرصفي .

(٩) ص ١٨٥ مجلة الرسالة السنة التاسعة .

المبرد فى هذا ، والمبرد كاذب فى هذا ، وهذا مما تفرد به[١] .

والحقيقة أن (المرصفى) لو كان قد سجل على المبرد سقطاته ، وستر محاسنه ، لقلنا إنه متحيز مالىء ، ولكن (المرصفى » أنصفه من خصومه تارة ، وأنصف الحق منه تارة أخرى ، وقد كان يمكن للمرصفى أن يكون هادئا فى نقاشه ، فيه سماحة الحليم ، وتواضع العالم،ولكن نفسية (المرصفى) ومزاجه كانا كثيرا مايعكسان راحة باله أوضيق نفسه ، فقد يكون (المرصفى)حين كتابته لبعض التصويبات هادىء النفس مستريح البال ، فيقابل الخطأ الكبير من المبرد أو أبى تمام بكثير من التسامح والحلم ، فلا يزيد على أن — يقول : غلط أبو العباس ، أوسها ، وقد يضيق به صدره لبعض المحرجات فى شئون الحياة ، فينطلق لسانه لأدنى سهو ، ويهاجم الخطأ من المبرد أو أبى تمام فى قسوة وعنف ، فيقول : كذب المبرد ، هذا غلط[٢] .

أو يقول : هذا من أبى العباس تقول على العرب ، على أن عبارته فاسدة .. على أنه لايناسب معنى المثل[٣] . وإلى جانب هذا نجد أن (المرصفى) نشأ أديبا ناقدا ، حر التعبير ، وكان ينزع دائما إلى القدماء فى فكرهم ومزاجهم ، وقد تحدثوا قبله فى حرية ، ونقدوا فى قسوة وعنف ، وقد تقدمت عبارة (على بن حمزة) فى نقد المبرد حين قال : قد أساء ابو العباس .. (فرد عليه) المرصفى قائلا : ولعمرى ما أساء إلا نفسه[٤] .

لهذا يمكننا أن نقول بأن المرصفى لم تصدر منه هذه العبارات عن حقد ، أو مبرزة لخلق الغرور والادعاء ، بل إن تأثره بالقدماء فى أدبهم ومزاجهم قد جنحا به أحيانا لمثل هذا السبيل ، فجاء نقده لاذعا ، وعبارات تصويبه عنيفه

---

(١) ص ٤٠٠ ومابعدها . الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية ، محمد كامل الفقى ١٩٦٥ م .

(٢) مجلة الأديب ـ أغسطس ١٩٦٥ ـ محمد رجب البيومى .

(٣،٤) ص ١٠٠ ، ١٤٨ جا ، رغبة الآمل من كتاب الكامل سيد المرصفى .

أحيانا ، ولكنها تحمل روح الاعتزاز بالنفس، والاعتداد بما وصل إليه من علم وثقافة ،كما تعكس أثر تذوقه للأدب العربي ، والحرص الشديد على تنقيته مما علق به من شوائب ، وتجليته فى ثوبه المونق البديع .

وبعد أن سرنا معا هذه الخطوات لنتابع (حياة الشيخ سيد بن على المرصفى ومنهجه فى دراسة النص الأدبى ونقده) ، نتساءل ماموقف هذا الرجل بين شراح النص الأدبى ؟ وأين موقعه بين رجال الأدب واللغة المعاصرين له ؟ ما أثره فى مجتمع عصره ؟

وهذا ماستكشف عنه الخاتمة التالية .

خاتمة

١ – مكان (سيد بن علي) في دراسته للنصوص ونقده لها .

٢ – موقعه بين رجال الأدب واللغة المعاصرين له .

٣ – أثره في مجتمع عصره .

لقد قطعنا مع (سيد بن علي المرصفي) أشواطا في رسالتنا، وقفنا خلالها على معالم بارزة من حياته وثقافته ومؤلفاته ، وتعرفنا على منهجه في دراسته للنص الأدبي ونقده، ومن تقديمه للنص بذكر مناسبة قوله وإيضاحه للنصوص في مبناها ومعناها، وعنايته بالقصيدة العربية بإيرادها كاملة ، وترتيبها وتنسيقها، وتعرفنا على ذوقه الأدبي ، ومنحاه الذي اتجه به للعناية بالمعاني النابعة من البيئة العربية في صدقها وصفائها ووضع الألفاظ في مواضعها لتؤدي فيه معانيها ، والوصف يطابق موصوفه ، وأخيرا وقفنا عند تصويباته لأخطاء الرواة والشعراء وشارحي النصوص . . وبعد : فما يزال أمامنا في هذه الخاتمة إبراز مكان الرجل بين شراح النصوص وموقعه من رجال الأدب ، واللغة ومدارس عصره ، ثم ماذا أحدث من أثر في مجتمعه داخل الأزهر وخارجه.

لقد عاش (سيد بن علي) حياته في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين ، وكانت فترة حافلة في تاريخ مصر – كما تقدم – دب فيها النشاط الحضاري في أوصال المصريين ، متمثلا في انتشار الصحافة السياسية والأدبية ، وظهور المسرح الثقافي الفني ، وإحياء التراث العربي بإخراج أمهات الكتب العربية اللغوية والأدبية إلى جانب الثورات السياسيه والاجتماعية ، ثم كان إنشاء مدرسة دار العلوم ١٨٧١ م حين رأى على مبارك اتساع الهوة بين التعليم الحديث في المدارس ، والتعليم في الجامع

الأزهر ، لتقوم بدورها فى إمـــداد المدارس الحديثة بالمدرسين الأكفاء المؤهلين بثقافة عالية تجمع بين القديم الصالح والجديد الحى .

وتطلع الأزهر إلى الاصلاح . وقامت بين جنباته دعوات بأصلاح الكتب التى كانت تدرس فيه ، وإصلاح المدرسين الذين يتصدون للتدريس ، وازداد عمق هذه الدعوات رسوخا ، بعد مجيء « جمال الدين الأفغانى » إلى مصر ١٨٧١ و ١٨٧٩ م فوجد فى الأزهر مكانا خصبا لدعوته لنهضة الأمة الإسلامية ، وقد تناول العلوم المختلفة من فلسفة وحكمة بروح الأصالة والتجديد ، ومعالجة المسائل السياسية فى صراحة وجرأة ، وقد تأثرت بتعاليمه مدرسة من نابهى المثقفين بالأزهر ، وفى مقدمتهم الشيخ محمد عبده .

وجاء الشيخ « محمد عبده » عضوا بمجلس إدارة الأزهر ١٨٩٥ ، فكانت الفرصة سانحة أمامه للقيام بالإصلاح المنشود فى الأزهر ، وإصلاح الأزهر كما أراد الشيخ محمد عبده فى إدخال العلوم الحديثة به ، من تاريخ وجغرافيا وأدب وغير ذلك ، والرجوع إلى أمهات الكتب كمقدمة ابن خلدون الذى قام بتدريسها بدار العلوم فى التاريخ ، وكتابى عبد القاهر ، أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ونهج البلاغة للإمام على كرم الله وجهه الذى قام بتدريسها فى الجامع الأزهر ، وكان يحرص فى درسه على أن يربط درسه بالحياة ، مصورا حالة العصر ومقارنا بينه وبين عصور السابقين ، وأعطى درس الأدب فى أول الأمر للشيخ الشنقيطى ، فدرس المعلقات ، كما أعطى لمدرس آخر سورى درس الإنشاء ولكن الشيخ الشنقيطى لم يصل بالأدب إلى ما أراده الشيخ محمد عبده ، فأخذ يبحث وينقب عن شيخ مصرى ، وعالم أزهرى نبيه لدراسة أمهات الكتب فى اللغة والأدب ، فجاء بالشيخ « سيد بن على المرصفى » وعهد إليه بتدريس هذه الكتب بمنهج القدماء بعيدا عن التعقيدات والمناقل الأزهرية ، للوقوف على فصاحة العرب وبلاغتها ، وإفادة الطلاب من ذلك فى التعبير بمثل هذه الأساليب ، والرقى بالأسلوب الأزهرى .

ويتضح لنا من هذا أن الشيخ (سيد بن على المرصفى) كان من الدعائم الإصلاحية التى أرسى قواعدها الإمام محمد عبده ، فى الأزهر ، فكان أول رجل عهد إليه بتدريس أمهات الكتب فى الأدب واللغة بالجامع الأزهر كحماسة أبى تمام ، وكامل المبرد ، وأمالى أبى على القالى ، وظهر منهجه من خلال دروسه ، فعرف بريادة مدرسة دراسة الأدب على منهج القدماء بالجامع الأزهر .

ونتساءل هل منهج (سيد بن على) بعناصره وخطواته ، وجد لدى شارحى الحماسة ، أو وجد لدى المبرد ؟

وللإجابة على ذلك يجب أن نلقى أضواء على أسلوب دراسة النصوص عند شارحى الحماسة ، وعلى أسلوب المبرد فى كامله ، كى نستطيع التعرف على مناهجهم ، والمقارنة بينهم وبين المرصفى ، ثم يأتى الحكم على المرصفى بالأخذ منهم أو الإتيان بمنهج يختص به .

ولقد عرفنا أن (المرصفى) يبدأ درسه بالتقديم للنص ، فهل فعل ذلك التبريزى أو المرزوقى فى شرحهما للحماسة ، أو المبرد فى شرحه للكامل ؟

من أمثلة التبريزى فى دراسته للنصوص والتقديم لها قوله بعد عنوان ١٤ - وقال السموءل بن عادياء:هذا اسم مرتجل غير منقول ، ووزنه فعولل كالسرومط) وهو وعاء تكون فيه الخمر ، وعادياء مثله فى الارتجال وغير النقل ، وهو فاعلاء من عدوت بوزن القاصعاء والراهطاء والسافياء والسابياء ، وأصله عادواء فقلبت لامه للكسرة ، وقال أبو العلاء : السموءل : اسم عبرانى وليس بعربى ويقال : إن المكان الغليظ يقال له السموءل وأنشد قول امرىء القيس :

« أثرن الغبار بالكديد السموءل :

وقال قوم: أراد بالكديد والسموءل الغبار، ولم يثبت لأن السموءل معرب ، ووافق من العربية قولهم : اسمأل الظل إذا قصر قال :

يرد المياه حضيرة ونفيضة ورد القطاة إذا اسمأل التبع

وعادياء جاء ممدودا ومقصورا ، قال النمر التولى :

هلا سألت بعادياء وبيته والخل والخمر التى لم تمنع

وقال السموءل :

بنى لى عاديا بيتا رفيعا وماء كلما شئت استقيت

وقيل : السموءل بالهمز: طائر، والسموءل بغير همز أرض صلبة، ويقال إنها لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى وهو إسلامى[1] :

فالخطيب التبريزى لم يسر مسيرة (المرصفى) فى تقديمة للنص ، بل أكثر من الآراء ، والاستطراد فى الاستشهادات حول دلالات الأسماء وأوزانها ، وهل هى منقولة أو مرتجلة إلى غير ذلك مما جال فيه من لغوياته التى مرت فى نصه.

فإذا انتقلنا إلى المرزوقى ، لنرى عنده هذا العنصر ، وأعنى به التقديم للنص كما جاء به (المرصفى) لرأينا أنه قليلا مايعرف بأصحاب النصوص ، أو يذكر شيئا من المناسبات ، بل إنه يدخل على نصوصه لإيضاحها بدون تعرض لذلك ، ومن الأمثلة على ذلك قوله فى شرح قول الشاعر : وقال آخر :

الا أبلغا خلتى راشدا وصنوى قديما إذا ما اتصل

قديما : (انتصب على الظرف)[2] .. إلخ شرحه للنص .

---

(١) ص ١٠٧ جـ ١ شرح الحماسة للتبريزى تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد.

(٢) ص ٢٥١ جـ ١ شرح المرزوقى للحماسة . ط ثانية ١٩٦٧ .

ويكفينا لذلك قول عبد السلام هارون في تقديمه لشرحه : (وشرح المرزوقي يعد أكبر الشروح التي وصلت إلينا وأكثرها عناية بمعنى الشعر ، وبالنقد والموازنة ، على حين لم تفته العناية باللغة والاشتقاق وكذا العناية التي لا إسراف فيها بمسائل النحو والتصريف .. لكنه قد فاته كثير من أخبار الشعر ومناسباته ..)(١)

فإذا انتقلنا إلى المبرد ، لم نجد عنده كذلك مثل هذا التقديم المرصفي ، والدلالة على ذلك ماجاء بعد ذكره لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، للأنصار في كلام جرى : انكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع حيث قال المبرد الفزع في كلام العرب على وجهين : أحدهما ماتستعمله العامة تريد الذعر والآخر الاستنجاد والاستصراخ من ذلك قول سلامة بن جندل :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع
كان الصراخ له قرع الظنا بيب(٢)...إلخ

فالمبرد لم يأت بمناسبة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو لبيت سلامة ابن جندل . ولهذا فقد رأينا المرصفي في شرحه له يأتي بما نقص محققا منهجه في دراسته وبعد فيمكننا أن نقول بأن (سيد بن علي) قد أتى في دراسته للنصوص بتقديم للنص ، لم يعرف لدى شارحي الحماسة ، أو صاحب الكامل .

فإذا انتقلنا إلى العنصر الثاني من عناصر منهج (سيد بن علي) لدراسة النصوص ، وأعني به ، دراسة النص لإيضاح مبناه ومعناه ، رأينا (التبريزي) يتناول شرح قول السموءل بن عادياء :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

---

(١) من مقدمة عبد السلام هارون لشرح المرزوقي في الحماسة ط ثانية ١٩٦٧م .
(٢) ص ٨ ج ١ : رغبة الآمل من كتاب الكامل ، سيد المرصفي .

فيقول : الثالث من الطويل ، والقافية من المتواتر .

ثم يقول : دنس يدنس دنسا ، وتدنس تدنسا ، إذا تكلفه يقول : إذا لم يتدنس باكتساب اللؤم واعتياده فأى ملبس يلبسه بعد ذلك كان جميلا وذكر الرداء هنا مستعار ، وقد قيل رداه الله رداء عمله ، فجعل كناية عن مكافأة العبد بما يعمله ، كما جعله هذا الشاعر كناية عن الفعل نفسه ، وتحقيقه فأى عمل عمله بعد تجنب اللؤم كان حسنا ، واللؤم : اسم لخصال تجتمع ، وهى البخل ، واختيار ما تنفيه المروءة ، والصبر على الدنية وأصله من الالتئام ، وهو الاجتماع . وإنما سمى لئيما لإجتماع هذه المعايب فيه ، و« إذا » تتضمن معنى الجزاء ، والفاء مع ما بعدها جوابه ، وليس هذا البيت من قول الآخر :

ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رديت بردا

بسبيل فتعتقد أنه يريد بالرداء الثياب(١) .

فقد بين « التبريزى » البحر الذى تقوم عليه تفعيلته ، كما بين نوع قافيته ، ثم قام بتفسير الألفاظ الصعبة ، فبدأ بلفظ «دنس» وأتى بتصريفاته ثم ببيان المعنى المراد من البيت ، ثم تعرض للفظ « الرداء » وهل المراد به الحقيقة أو المجاز ، ثم بين معنى لفظ « اللؤم » ولماذا سمى به اللئيم ، ثم بين الجزاء والجواب فى البيت ، وانتهى به الكلام فى شرح البيت إلى أن هذا البيت من قبيل الكناية ، وليس مثل قول الشاعر الآخر الذى أراد الحقيقة .

ونظرة فاحصة لهذا المنهج نرى أن مثل هذا الشرح ينقصه التنظيم وترتيب عناصر قوله بحيث يبتدىء بالتصريف والنحو ثم المعنى ثم ما فيه من استعارة أو كناية وعدم الاسراف فى النحو والصرف والبلاغة :

فإذا انتقلنا إلى « المرزوقى » فى شرحه لقول الشاعر :

ألا أبلغا خلتى راشدا وصنوى قديما إذا ما اتصل

---

(١) ص ١٠٧ ج ١ شرح التبريزى للحماسة تحقيق محى الدين عبد الحميد .

وجدناه يقول :

قديما : انتصب على الظرف لقوله خلتى والمراد : أبلغا خليلى قديما راشدا وصنوى إذا ما انتسب، والصنوان : الفرعان يخرجان من أصل واحد ، ويقال للأخوين هما صنوان تشبيها بذلك ـ ولعم الرجل صنو أبيه ، ويقال : صنو وصنوان فى التثنية . وصنوان فى الجمع ، ولا يعرف له نظير إلا قنو ، فيقول راشد خليلى القديم ، ونسيبى القريب ، فأبلغاه عنى رسالة ، وفى جمعه بين خلتى وصنوى ، وتأخيره قديما إذا ما اتصل ، ما ذكره أبو العباس المبرد رحمه الله من أن العرب تلف الخبر لفا ، ثم ترمى بتفسيرهما جملة ، ثقة بأن السامع يرد إلى كل ما له[1] .

فالمرزوقى قد استطرد فى ذكر مقالة العرب للفظ صنو وصنوان ، كما كرر المعنى المراد مرتين بدون داع لذلك .

فاذا نظرنا إلى شرح الكامل لنصه سالف الذكر ، وجدناه يأتى بمعانى الألفاظ مستشهدا لذلك بأقوال العرب وأشعارهم ، ومن هذا حين فسر « الفزع » فقال : الفزع فى كلام العرب على وجهين : أحدهما ما تستعمله العامة تريد الذعر ، والآخر الاستنجاد والاستصراخ من ذلك قول سلامة ابن جندل :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع كان الصراخ له قرع الظنابيب

ثم يوضح معنى هذا البيت فيقول : يقول إذا ما أتانا مستغيث كانت إغاثته الجد فى نصرته . ويرى أن فى البيت لفظ « الظنابيب » يحتاج إلى إيضاح فيقول : يقال : قرع لذلك الأمر ظنبوبه ، إذا جد فيه ولم يفتر ، ثم يعود لتفسير الفزع فى الحديث الشريف ، فيقول : ويشتق من هذا المعنى أن يقع فزع فى معنى أغاث ، كما قال الكلحبة اليربوعى : وتأتى حاشية لأبى الحسن

---

(١) ص ٢٥١ ج ١ شرح المرزوقى للحماسة طبعة ثانية ١٩٦٨ م .

ـ بين اسم الشاعر وشعره ـ يبين فيها أبو الحسن إسم هذا الشاعر ولقبه وقبيلته ، والنسب إليه ، وبلده ، وهجاء جرير لقبيلته عرينه ، ثم يأتى قول الـكلحبة فى معنى الفزع .. إلخ .

فأسلوب المبرد فى شرحه استطرادى ليس محددا بمنهج فى بيان المعانى والعبارات .

وبذلك يمكننا القول بأن المهج المنظم فى تفسير النصوص وإيضاحها مبنى ومعنى لم نره عند واحد من هؤلاء كما رأيناه عند « سيد بن على المرصفى »

فإذا انتقلنا إلى خطه الثالث من خطوط منهجه لدراسة النص الأدبى ونقده وأعنى به إكماله للنصوص العربية ، وترتيب أبياتها . ونفى ما زاد عليها لم نجد شيئا من ذلك عند أحد من الثلاثة .

فإذا بحثنا عن التذوق الأدبى عند ثلاثتهم ، نجد أنه وجد فى شروحهم متصلا بفروع البلاغة ، ومن ذلك ما قاله التبريزى أثناء شرحه للبيت السابق حيث قال : وذكر الرداء هنا مستعار . وقد قيل رداه الله رداء عمله فجعل كناية . . إلخ فقد خلط التبريزى فى عبارته الكناية والاستعارة فلم ندر بأيهما نأخذ .

كذلك تناول « المرزوقى » فى بيان معناه « أسلوب اللف والنشر » حيث قال : وفى جمعه بين خلتى وصنوى ، وتأخيره قديما إذا ما اتصل ، ما ذكره أبو العباس المبرد ـ رحمه الله ـ من أن العرب تلف الخبرين لفا ، ثم ترمى بتفسيرهما جملة ... إلخ .

وهذا تفسير حسن ، غير أنه ينقصه كما ينقص شرح التبريزى لأمثال هذا البيت . البحث عن الرواية الصحيحه التى قالها صاحبها ، فلا ينبغى التسليم بكل ما قاله أبو تمام ، لأنه كثيرا ما كان يعتمد على ذوقه ، فأحيانا يقدم ويؤخر فى أبياته ، وأحيانا يبدل كلمات العرب بكلماته ، وربما حذف مايحتاج إليه المعنى فيختل المبنى ، لهذا فقد استطاع ـ سيد بن على ـ تصويب هذا البيت وأمثاله ، ومن تصويبه لهذا البيت قوله : وإنما الرواية : قديما وصنوى

إذا ماتصل : وفسره فقال : يريد أبلغا ابن عمى راشدا صديق من عهد قديم إذا وصلت إليه .

وقد رأينا عند «المرصفى» هذا النقدوالتصويب لأقوال الشارحين والرواة، وقد مر بنا أن الرجل لم يكن فى هذا النقدوالتصويب، تابعالواحد من الثلاثة ، بل كان ذلك أسلوبه ومنهجه لدواسة النص الأدبى ونقده .

ويمكننا بعد هذه المتابعة أن نجيب على تساؤلنا بأن المنهج الذى سارعليه «سيد بن على» قد اختطه لمسيرته ، وفقا لحاجة الفكر ، وتذوق الأدب ، متدرجا فى ذلك بمالا يصطدم مع العقل والمنطق . فهو منهج جمع فيه خلاصة ماتذوقه من أدب ، وما أفاده من رواته ، وماثقفه من التراث العربى متمثلا فى أمهات الكتب الأدبية والنقدية والتراجم ، والمعاجم ، وما أفاده من ثقافة عصره ، وذوقه الفطرى ، الذى نماه بما حفظ من أشعار ، وبما تلقاه من علوم ومعارف .

وهو منهج منظم لا إسراف فى خط من خطوطه ولا تقتير بحيث يوضح الغرض ويوفى بالمطلوب .

ونتساءل ثانيا : ماموقفه من المعاصرين فى دار العلوم وفى الجامعة ؟

إذا أردنا أن نبحث عن الأقران فى مدرسة دار العلوم نجد «حمزة فتح الله» وقد وقع اختيارى عليه، لأن وجه الشبه بين درس الرجلين فى اللغة والأدب : يكاد يكون متقاربا ، وقد عهد إليه بتدريس اللغة العربية فيها عام ١٨٨٨م ، وقد حفظت دروسه فى كتابه ، «المواهب الفتحية فى علوم اللغة[1] العربية» وهو مبنى على أربع دعائم ، فالأولى شرح قصائد عشر ، والثانية شرح مقارنات عشر ، والثالثة شرح رسائل عشر ، والرابعة شرح خطب عشر .

---

(١) طبع الجزء الأول منه بالمطبعة الأميرية بمصر عام ١٣١٢ — والجزء الثانى بالمطبعة الأميرية عام ١٣٢٦هـ :

وطريقة المؤلف فى معالجة هذه النصوص الأدبية كما يقول محمد خلف الله أحمد تختلف حسب شهرة النص وموضوعه ، وأسلوبه ومايستشهد به منه،فهو فى تحليله للقصيدة الأولى من الدعامة الأولى ، - مثلا — يطيل إطالة ظاهرة، فيبدأ بتقرير أن القصيدة لامرىء القيس ، وهى التى مطلعها « ألا عم صباحا » البيت ، وإن المؤلف قد حذف منها أبياتا أفحش فيها الشاعر ، ولم يشرح من مفرداتها تلك الأبيات حتى الشواهد سوى مالا فحش فيه . ويذكر أن اسم امرىء القيس « حندج بن حجر » ويشرح المعنى اللغوى لحندج ولامرئ القيس .

ثم يورد قصة (حجر) مع (بنى أسد) وما كان من امرئ القيس بعد مقتل أبيه شارحا مايصادفه فى ذلك من شعر أو رواية تاريخية إلى أن يصل إلى ما فيه إفحاش ، ثم يأخذ فى شرح مفرداتها من جهة اللغة والنحو والصرف ،موردا مافى بعض الصيغ أو المسائل من خلاف — كالخلاف فى اشتقاق (مدينة) وهل هى من (مدن) فيكون وزنها فعيلة ، أو من (دان) فيكون وزنها مفعلة — منبها إلى ما تشير إليه بعض الأبيات من مظاهر الحياة العربية — كخروج العرب إلى البوادى أيام الربيع يبتغون الكلأ ومواقع الغيث، فإذا ما جاء الصيف وجفت الغدران ويبس النبات رجعوا إلى الحواضر — فإذا ماعرضت مناسبة نقدية انتهزها فأورد ماقيل فيها وفى مثيلاتها : كالذى أنكر على المتنبى من تطبيق العجزين على الصدرين فى بيتيه المشهورين (وقفت ومافى الوقت شك لواقف) وتشبيه صنيعه بصنيع امرىء القيس فى بيته (كأنى لم أركب جوادا للذة) ويجد المؤلف الفرصة سانحة هنا للكلام عن المناسبة المعنوية التى هى أحد أنواع البديع المعبر عنها بائتلاف المعنى . وقد يستطرد المؤلف ليذكر معلومة أو طرفة تاريخية فحين يرد أثناء الشرح ذكر (أبى موسى الأشعرى) و (البصرة) يستطرد إلى الكلام عن البصرة وضبطها وعادات أهلها ، وماقيل فى مدحها أو ذمها ، وما كان فيها من أعجوبات ليست

فى غـــيرها من البلدان ، وحين يرد ذكر الزمان يتحدث المؤلف عن السنة وفصولها عند العرب ، وعن التفرقة اللغوية بين السنة والعام . وعلى هذا النسق يسير المؤلف فى تحليله للقصيدة ، حتى إذا انتهى من ذلك انتقل إلى الـكلام عما استشهد به فى العلوم العربية من أبياتها[١] .

فصاحب (المواهب الفتحية) لم يتقيد فى مؤلفه بفن من الفنون الأدبية والعلوم العربية ، بل استطرد فى الحديث عنها جميعا ونحا بمنهجه نحو أئمة الأدب المتقدمين ، كالمبرد فى الـكامل ، والجاحظ فى البيان والتبيين ، والحيوان ، فقد وجدنا عنده التقديم للنص والتعريف بالقائل والمناسبات وشرح الألفاظ اللغوية ، وذكر الوفيات أو زمن الوجود والتنبيه على الأخطاء وبيان الصواب ، ولـكنه لم يأت بها مرتبة ، بحيث تـكون هى الأهداف المطلوبة والغاية المرجوة ، ولـكنه آثر أسلوب الاستطراد والـكلام عن كل فن من الفنون الأدبية والعلوم العربية ، كما أنه فى تعريفه بالشاعر أشبه (التبريزى) فى ذكر المعنى اللغوى لأسماء الشعراء ، والإتيان بعرض النص وبحره وقافيته .

وكان فى خطواته مسرفا بحيث يتوه الدارس له فلا يفطن للهدف السامى المنشود .

فإذا عقدنا المقارنة بينه وبين (سيد بن على) نجد أن الثانى قد عمد إلى حماسة أبى تمام بالتبويب والترتيب ، بحيث تبدو بعيدة عن أسلوب الاستطراد وكان أمامه منهجه الواضح المتمثل فيما تقدم من خطوات ، كذلك رأيناه مع كامل المبرد ، له خطوات منهجه الثابتة التى سار عليها طوال مســيرته معه بدون إسراف .

فإذا أردنا الوقوف على درس الأدب فى الجامعة المصرية ، نرى (طه حسين)

---

(١) ص ١٤٦ ومابعدها .. معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها ـ محمد خلف الله أحمد . طبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة .

يعطينا فكرة عن أساتذته ، ومنهجهم لدراسة الأدب وتاريخه فيها فيقول :
(أنشيء قسم الآداب فى الجامعة ، ودعى إليها جلة الأساتذة من المستشرقين فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا وانتسبت لهذا القسم ، وأخذت أسمع الدروس فيه، فإذا ألوان من الدرس لم أعرفها من قبل ، وإذا الباحث عن تاريخ الآداب ليس عليه أن يتقن علوم اللغة وآدابها فحسب ، بل لابد له أن يلم إلماما بعلوم الفلسفة والدين ، ولابد له أن يدرس التاريخ وتقويم البلدان درسا مفصلا ، وإذا الباحث عن تاريخ الآداب لا يكفيه من درس اللغة حسن البحث عما فى القاموس واللسان وما فى المخصص والمحكم وما فى التكملة والعباب . لا بل لابد له مع ذلك أن يدرس أصول اللغة القديمة ومصادرها الأولى ، وإذا الباحث عن تاريخ الآداب لابد له من أن يدرس علم النفس للأفراد والجماعات إذا أراد أن يتقن الفهم لما ترك الكاتب أو الشاعر من الآثار ، وإذا اللغة العربية وحدها لا تكفى لمن أراد أن يكون أديبا أو مؤرخا للآداب حقا[1] ..

فقد رأى (طه حسين) فى الجامعة مع الأساتذة المستشرقين منهجا جديدا للبحث عن تاريخ الأدب ، ولم يعد ينحصر الأدب عنده فى تلك النظرة التى عرفها مع أستاذه (المرصفى) ويقرر (طه حسين) فى أول كتابه (فى الأدب الجاهلى) أن درس الجامعة هذا كان أحد مذهبين لدراسة الأدب فى مصر ، أحدهما مذهب القدماء الذى كان يمثله الأستاذ الشيخ سيد المرصفى حين كان يفسر لتلاميذه فى الأزهر ، (ديوان الحماسة لأبى تمام) أو كتاب (الكامل للمبرد) أو (كتاب الأمالى لأبى على القالى) ينحو فى هـــذا التفسير مذهب اللغويين والنقاد من قدماء المسلمين فى البصرة ، والكوفة وبغداد ، مع ميل شديد إلى النقد والغريب ، وانصراف شديد عن النحو والصرف ، وما ألف الأزهريون من علوم البلاغة .

---

(١) مقدمة ذكرى أبى العلاء — طه حسين ١٩٦٨ م .

والمذهب الثانى ، مذهب الجامعة التى انفتحت على الآداب الغربية وتاريخ الأدب . والمناهج الحديثة لدراسة الأدب وتاريخه ، وقام به الأساتذة المستشرقون .

والمذهب الثالث ، مذهب مشوه . لم يستطع أن يسلك أحد الطريقين وهو مذهب دار العلوم ، ويقرر « طه حسين » أن مذهب « المرصفى » لا غناء عنه ، كما أن مذهب الجامعة نافع النفع كله ، ولذا فهو يعترف بالفضل لصاحب المدرسة الأولى ، ولمن مثل المدرسة الثانية فيقول : « إنى مدين بحياتى العقلية كلها لهذين الأستاذين العظيمين : سيد على المرصفى ، الذى كنت أسمع دروسه وجه النهار ، و « كارلو ناللينو » الذى كنت أسمع دروسه آخر النهار . . أحدهما علمنى كيف أقرأ النص العربى القديم ، وكيف أفهمه ، وكيف أتمثله فى نفسى وكيف أحاول محاكاته ، وعلمنى الآخر كيف أستنبط الحقائق من ذلك النص ، وكيف ألائم بينها . وكيف أصوغها آخر الأمر علما يقرؤه الناس فيفهمونه ويجدون فيه شيئا ذا بال ، وكل ما أتيح لى بعد هذين الأستاذين العظيمين من الدرس والتحصيل فى مصر وفى خارج مصر ، فهو قد أقيم على هذا الأساس الذى تلقيته منهما فى ذلك الطور الأول من أطوار الشباب ، بفضلهما لم أحس الغربة حين أمعنت فى قراءتى كتب الأدب العربى وحين اختلفت إلى الأساتذة الأوربيين فى جامعة باريس ، وحين أمعنت فى قراءة كتب الأدب الحديث[1] » .

ونستطيع بعد هذه الجولة أن ندرك قيمة « سيد بن على المرصفى » فى مجتمع عصره . الذى عاش فيه ، وقيمة منهجه الأدبى فى دراسة النص الأدبى ونقده .

---

(١) من مقدمة طه حسين لتاريخ الآداب العربية المستشرق نالينو ، القاهرة ١٩٥٤ .

وأخيرا نتساءل ما أثر هذا المنهج فى الجامع الأزهر وفى خارجه ؟

لقد كان لمنهج « سيد بن على المرصفى » أثر كبير فى تكوين كثير من تلامذته ، الذين أخذوا عنه واقتفوا أثره . لقد كان الشيخ يدرس الأدب على نحو جديد ، وكانت الحرية فى تناوله هى السمة التى يناقش فى جوهرها درسه مما حبب درسه لتلامذة كانت نفوسهم ضيقة بالأزهر ، تتمنى شيئا من الحرية لتعبر عن رأيها فى صراحة وجرأة ، فحط عنها المرصفى القيود والأغلال ، وتأثروا بذوقه وأدبه . وحافظوا على درسه ، فصاغ من فكرهم فكرا على مثاله ، وتكون لهم فى الأدب والنقد ذوق مثل ذوقه ، وعرفوا بفضل الشيخ السبيل إلى أمهات الكتب العربية القديمة التى لا تحسب فى كتب الأزهر . ولا تعد من مراجعة ، ولا من عدة طلبته وأساتذته . فقرأوا منها : ديوان الحماسه ، ونهج البلاغة ، وكامل المبرد ، ومقامات الحريرى ، وبديع الزمان ، وأسرار البلاغة ، وإعجاز القرآن ، وكتاب سيبويه ، واتصلوا بدواوين الشعراء فى العصر الجاهلى والإسلامى ، وقرأوا غير هذه الكتب فى دار الكتب مما وجدوه مطبوعا أو مخطوطا ، وأخذت حياتهم طابع الجد . فكانوا ينتقلون من درس العلم إلى درس الأدب ، ومن درس الأدب إلى مجلس الشعر ، ومن مجلس الشعر إلى دار الكتب ، ومن دار الكتب إلى الجامعة المصرية القديمة ومن الجامعة إلى دور الصحف ـ يعرضون عليها مانظموا من شعر ، ثم يرجعون إلى دار أحدهم ، يتدارسون ما حصلوه من علم وأدب .

وقد كان أيسر الأمور وأهونها ، أن يذهب الطلاب مذهب أستاذهم ، فأصبحوا يمارسون الأدب فى حرية ، ويقرأون دواوين الشعراء ولا يتحرجون فى إختيار هذه الدواوين ، ولا فى الجهر بإنشاد ما فيها من شعر المجون أحيانا فى الأزهر ، وراحوا يقلدون هذا الشعر ، ويتناشدون ما ينشئون من ذلك إذا التقوا .

ومارسوا الحرية فى دراستهم لنصوص الكامل ، وناقشوها فى جرأة ، وسط مجتمع ما زالت روح الجمود تسيطر عليه ، غير مبالين بما يترتب على ذلك

من عواقب لهم ولأساتذتهم ، ففى ذات يوم كان طه حسين يعد مع صاحبيه أحمد حسن الزيات ، ومحمود زناتى ، درس الكامل ، بقراءته قبيل درس الشيخ له ، فعرضت لهم جملة من كلام المبرد ، جاء فيها : ومما كفرت الفقهاء به الحجاج قوله والناس يطوفون بقبر النبي ومنبره : « إنما يطوفون برمة وأعواد فأنكر أن يكون فى كلام الحجاج ما يكفى لتكفيره ، وقال : لقد أساء الحجاج أدبه وتعبيره ، ولكنه لم يكفر ، وسمع بعض الطلاب هذا الكلام ، فأنكروه ، ثم تناقلوه.

ووصل هذا الكلام وغيره إلى شيخ الجامع الأزهر . الشيخ حسونه النواوى ، ونقل أحد الطلبة بمهارة كل ما كان يحدث من هؤلاء الثلاثة، فدعاهم الشيخ إلى حجرته ، وكان معه أعضاء مجلس إدارة الأزهر، وأخذوا يستمعون الى ما كان يعيبهم به هؤلاء الثلاثة ، وشهد طلاب بصدق كل ماقيل ، وسئل ثلاثتهم فلم ينكروا ، فأمر الشيخ حسونه بمحو أسمائهم من الأزهر ، لأنه لايريد مثل هذا من تلامذته ، كما ألغى درس الكامل لفترة ، وانتقال الشيخ المرصفى من الرواق العباس الى عمود داخل الجامع لتدريس المغنى لابن هشام فى النحو ، وذهب التلاميذ لصاحب الجريدة « أحمد لطفى السيد » يطلبون منه أن يتوسط لهم عند شيخ الجامع ، فأعيدوا الى الجامع الأزهر ، وظلوا مع أستاذهم لايعنيهم أن يدرس لهم الكامل ، أو المغنى لابن هشام ، (١) وسارت معهم روح التحرر والتطلع والتوثب والذوق الادبى الثائر ، حتى كبروا ، وتخرجوا من الجامع الأزهر أو من الجامعة المصرية القديمة، فحملوا مشاعل التحرر والتطلع والتوثب ، والذوق الادبى الثائر ، واصطبغت مؤلفاتهم بكل ذلك .

لقد قرأنا مؤلفات لتلامذة المرصفى فوجدنا فيها روح أستاذهم، تسرى بين سطورها ، كما رأينا المصادر التى استعانوا بها تتمثل فى أمهات الكتب الأدبية

(١) ص ١٦٤ حـ ٢ ـ الأيام ـ طه حسين ١٩٥٢م .

القديمة من التراث العربي ، التي أرشد اليها أستاذهم المرصفي وغذاهم عليها وأنت إذا رجعت إلى مصادر طه حسين في تاريخ العرب وآدابهم وفلسفتهم، وقت درس أبي العلاء وقبله ، وقعت منها على طائفة من الكتب التي لاتزال عدة الباحث إلى يوم الناس هذا ، مثل الوساطة ، والموازنة ، والصناعتين ، والشعر والشعراء ، والاغاني، وتاريخ إبن الاثير وأبي الفدا ، وابن خلدون والنجوم الزاهرة ، وما إليها مما قدمه بين يدى رسالته عن أبي العلاء[١] .

وفضل الأستاذ على تلامذته ، اعترف به كل منهم فيما كتبه من مؤلفات ، بل صدروا به كتبهم ، وأبرزوا منهجه في درسه ، وصفاته ، وتحرره ، وأشادوا به ، فارتفع بذكرهم ذكره وتنبه لمقالتهم من ضل فكره ، وإذا كان الشيخ بمؤلفاته قد ذكر وثقفها كل طالب علم وأدب ؛ فإن تلامذته كان لهم فضل الاشادة والذكر إعترافا له بالجميل ، وأثره النافع ، ومنهجه الذي رباهم عليه ، فنشأوا على مثاله ، وكان من تلامذته الكاتب البارع صاحب الأسلوب العذب مثل أحمد حسن الزيات والمنفلوطي ، وكان منهم المحقق الأديب مثل محمود محمد شاكر ، ومحمد محي الدين عبدالحميد ؛ وكان منهم أصحاب الأقلام الثائرة مثل على عبدالرازق أو الأقلام المصورة للانفعالات النفسية في حبها، وحياتها، وشروحها للأدب مثل زكي مبارك ، وكان منهم كتاب القصة وأصحاب المجلات ، مثل المنفلوطي ومحمد نائل المرصفي ، وكان منهم زعماء الفكر ، وروادالأدب كطه حسين ومصطفى لطفي وأحمد حسن الزيات ، ومن تلامذته المرموقين كثير في جميع ميادين الفكر والأدب ، ومنهم محمد حسن الزناتي ، وأحمد محمد شاكر ، وحسن السندوبي ، ومحمد الههياوي ، وعبد الرحمن البرقوقي ، ومحمد إبراهيم هلال ! وفهيم قنديل . وعبد العزيز البشري ، وفي مجال الشعر ظهر من تلامذته : حسن القاياتي ، وأحمد الزين ، وأحمد شفيع السيد ، وإبرهيم

---

(١) ص ٥٠٨ تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في مصر - حلمي مرزوق - دار المعارف ١٩٦٦ م .

الدباغ ، وعلى الجارم ، ورمزى نظيم وأستاذ كالمرصفى ، يترك مثل هـذه المؤلفات الحية تنشر معارفه ومنهجه وتذكر فضله وعلمه، خليق بالتقدير والخلود.

وقد استحق « سيد بن على المرصفى » منا هذا التقدير والخلود لما لمسناه فى خلال رحلتنا معه عن حياته ومنهجه فى دراسة النص الادبى ونقده ، فقد ظهر لنا كما ظهر لتلميذه النجيب طه حسين الذى آلت إليـــه عمادة الأدبى العربى حيث قال .

« أستاذنا الجليل سيد بن على المرصفى، أصح من عرفت بمصر فقها فى اللغة، وأسلمهم ذوقا فى النقـد . وأصدقهم رأيا فى الآدب ، وأكثرهم رواية للشعر ، ولا سيما شعر الجاهلية وصدر الإسلام . . »

وفى جمادى الآخرة ١٤٠٣ هـ إبريل ١٩٨٣م ، وفى الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر كرمت الدولة رجال الأزهر المرموقين فنال المرحوم الشيخ سيد ابن على المرصفى جائزة الدولة التقديرية اعترافا بفضله وعلمه . جازاه الله خير الجزاء ، وغفر له ونفع المسلمين بعلمه .

وبعد .. فلعلى أكون قد وفقت فى أعطاء « سيد بن على المرصفى » ما يوفى بالغرض فى البحث والدراسة ، عن حياته ومنهجه ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

سيف النصر عبد الفتاح الدسوقى الطلخاوى
٦ حارة الفرة - منقر - السيدة زينب
بالقاهرة

رمضان المعظم ١٤٠٤ هـ
يونيه ١٩٨٤ م

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع ٣٥٥٥ / ١٩٨٤

سيد بن على المرصفى

بحسن أدبه يقول :

* أثناء الثورة العرابية ١٨٨٢ م

يا آل مصر تنبهوا فمن الذى يرضى بذل فى الخليقة أنكد ؟

[القصيدة المرصفية]

* فى الحب والأشواق :

أرواحنا بهوى الغزلان مابقيت تشكو من الوجد والتبريح مالقيت
فسر بنا بنفوس طالما شقيت « نؤم ناشئة بالجزع قد سقيت
نصالها بمياه الغنج والكحل »

[الدر الذى نسجم]

* فى الأدب واللغة :

إن أحسن الخيرة ، وأنفس الذخيرة ؛ أدب يتوسل به إلى درك مجد ، ونيل سؤدد ، وشرف منصب ، وعلوهمة .

ولانجد لذلك سبيلا أوضح محجة ، وأبلغ حجة ، ولا أهدى حكمة ، ولا أصح بيانا : من لسان العرب فى مرسل مجازاته ، وحسن تشبيهاته ، وبلاغة استعاراته ، وملاحة كناياته ولطافة إشاراته .

[رغبة الآمل]

* فى درسه لبيت أبى كبير الهذلى .

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

وقد تمثلت بهذا البيت عائشة - رضى الله عنها - وقد نظرت جبين رسول الله صلى الله عليه وسلم . يعرق ، وعرقه يتولد نورا ، فقالت :

لو رآك أبو كبير الهذلى لعلم أنك أحق بشعره . وأنشدت البيت .

[أسرار الحماسه



